

أمراء البيان

تأليف
محمد كرد علي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

أضواء البيان



أمراء البيان

تأليف
محمد كرد علي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ 2012

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كرد على ، محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد على ، 1876-1953
امراء البيان / تاليف: محمد كرد علي
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2011
مج2، 24 سم
تدمك : 978-977-341-547-7
1- اللغويون
أ- العنوان

ديوى:924

رقم الايداع:2011/17914

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره:

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم، واطردت سياستها، وخيف سلطانها، وعظم شأنها، ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التي نشبت بين الأمين والمأمون، للنزاع على ولاية العهد، فسالت الدماء في خراسان والعراق، وأنفق الأمين الأموال، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة، عادت الأمور إلى مجراها الأول في عهد الرشيد وأبيه المهدي وأخيه الهادي، ثم اختلت الدولة بعد عهد الواثق، فقتل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم.

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربي أوربا مثل (شارلمان وبيبن) على غاية الوئام، يتبادل العباسيون مع ملوك الإفرنج السفراء والهدايا، ويريد بنو العباس من هذا التلطف على الغالب أن يقف الإفرنج بالمرصاد لدولة الأندلس. أما دولة روم القسطنطينية، فكانت في بلاءٍ من جيش بني العباس إلى زمن الواثق، يغزوها في الأحايين فيفظر ويغنم، حتى اضطرت أن تؤدي للعباسيين جزية سنوية.

وعرف الرشيد أن دولة الأمويين في الأندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة، فحاذر تقدمها نحو بلاده، ورأى أن يقيم أمامها حاجزًا في إفريقية من دولة الأغالبة، فمنح هذه شبه استقلال، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد، فقاتلهم بجزءٍ من جيشه، فأيقنوا أن لا

سبيل إلى تحقيق رغائبهم في قلب أوضاع الدولة، وعادوا بما لاقوا من الجدّ في استئصالهم يعتصمون بالتقية، وأرجأ بقايا السيوف منهم بثَّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب.

وأهم ما تم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدي، وتقطيع كتبهم كتقطيع أوصالهم، استمتاع أرباب العقول بحرياتهم، فأنشئوا يفكرون على ما يشاءون في نطاق الإسلام، لا يخرجون عن رُخصه وعزائمه، وكثر الباحثون والدارسون، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدي من أتقنوا فنهم وعلمهم، واشتد الغرام بنقل العلوم المادية اشتداده في تدوين العلوم الدينية، وفي هذا الزمن نبغ عظماء في علوم الدين، وعظماء في علوم الدنيا، وعظماء في الآداب والفنون، وعظماء في الحرب والسياسة، وكان كل من تفرَّد بضرب من ضروب العلم والأدب يلقي من الخلفاء على الأكثر أنواع التجلّة والإكرام، ويخلع عليه كل جميل.

وفي هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الأربعة التي وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة، ودوّن مذهب مالك وأبي حنفية وغيرهما، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر، وكثر عظماء القرّاء، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية، وراجت الوراقة رواجًا عظيمًا، لما بدأ الملوك يجمعون خزائن كتب في قصورهم، ويقيمون دُور الحكمة في عاصمة الخلافة، وعَلق الأمراء وعِلية الأمة يتنافسون في اقتفاء آثار خلفائهم في خدمة الآداب، يُحْظُون ويُعْطُون كل من ينقل لهم ضربًا جديدًا من المعارف. وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية، شاركتهما بغداد بهذا الشرف، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار، فما هي إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد مدينة علم، وكان من قبل مدينة ملك، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم.

وأيقن أرباب البصائر أن الدنيا لا تأتي من غير طريق الكفاية، وأن (كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يئول) فأكبوا على التأدب، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم، وكان إذا تفرس رب البيت في ولده ذكاءً جاءه بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهي نفسه من الآداب، ولذا أصبح التعليم صناعة، وحسن عيش المؤدبين؛ وغدا التأديب أيضًا طريقًا إلى المجد والسؤدد، على ما أمست منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها؛ وقد يبلغ سلطان النديم في قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتّاب، وهو ابن الخَلوة والجَلوة، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار.

عمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مثابة المُفَنِّين والإخصائيين، يغشاها أرباب الأفكار، وحملة الآثار والأشعار؛ والعهد بعلماء البصرة يختلفون إلى المسجد والمِرْبد، وكان المسجديون والمربديون جماعًا من شعب الأدب والرواية؛ والعهد بالكوفة يختلف المنورون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء، ومسجدهم مجمع علمائهم، ومغنى قرائهم، والمنافسة بين المصرين -الكوفة والبصرة- في الفقه والحديث واللغة والنحو والتصريف مشهورة مذكورة، وبغداد تنعقد مجالسها، وتغص مساجدها بأرباب العقول وحفدة الشريعة، وقادة الفكر، وشعراء الحضارة، وأمراء البلاغة.

وهناك مجالس اللهو يعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم، ويتبارى أرباب النعيم والرفاهية في اقتناء المُسْمِعات والقيْنات، وعدت الجارية التي تجد من نفسها طبيعة مؤاتية في هذا الفن، توفر على إتقانه، وتلْقَف ما يستلزم فيها من أدب وشعر، فجاء منهن أديبات وشاعرات، وغدا لكل قريحة قيمة، ولكل أدب خُطّاب، والناس يتمززون طعم الحياة، وينعمون بمباهجها؛ وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم بعيدين عن حياة التزمت والتخافت بُعْدَهم عن الأمية، وراحوا

يحضرون مجالس الغناء على تصوّن وتعفف غالبًا، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن، وأنشأت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير.

وأثارت الرعية الأرض وعَمَروها، ففاضت الثروة، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال، وزاد العمران، وجدَّ كل عامل في ناحيته أن ينفق جانبًا من الجباية على ما يزيد في ريع بلده ونمائه، وغدا غرام معظم الخلفاء بتنظيم أمور الرعية، يوازي غرامهم في دفع كل معتد على سلطانهم.

وكانت البصرة ميناء العراق الأكبر من أعظم ما تكون عليه الفُرَض البحرية في الدول العظمى، تبادل تجارة بلاد العرب مع مواني المحيط الهندي حتى الصين، ويغشاها أصناف من شعوب الشرق في آسيا وإفريقية؛ والبصري كالحميري مشهور بأسفاره ومغامراته، وأصبح البحر الرومي بحرًا عربيًّا، وتراجع الروم إلى مواني بلادهم، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وإفريقية والأندلس، واعتزلت شعوب جنوبي أوربا في موانيها لا يبحر لها سفين، ولا تحمل لهم بضاعة؛ والعرب بما عرف من مرانهم على التجارة يتولون كبرها في البر والبحر، والزراعة والصناعة على الأعم الأغلب في أيدي أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم، وتعينت حدود الاختصاص بالصناعات اليدوية والعلمية، وقلَّ في الناس المتشائمون وكثر المترفون.

كُتب الرواج في هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة، واستوت شعوب المملكة العباسية أمة ذات حضارة مقررة، وربة شخصية ظاهرة؛ وكان حظ الجميع سواءً في الاستمتاع بالأَمَنَة والسلامة، وعلى قدر كفاية الكفء، وإخلاص المخلص للدولة، يَخْلُص الناس إلى المراتب والمناصب، وعلى نسبة عمل العاملين في صنوف الأعمال يغتنون ويسعدون، لا يخاف الناس إلا أنفسهم، ولا يُلْزَمون أن يقدموا

حسابهم لغير ديّانهم وسلطانهم،؛ فحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية، واشترك في خدمتها أهل كل نحلة وملة، ووقف كل امرئ عند حده، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان، وقلما تعدى حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة، وصفحات الأسفار والرسائل؛ فهذا العصر هو خير عصور بني العباس على الناس، وفيه سَعِدَ العلم، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ.

نشأته ونعمته:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، من بني كنانة بن خُزَيمة، والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم: كنانة طلحة، والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركة، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ، وقيل: إنه كان مولى أبي القَلَمَّس عمرو بن قِلَع الكناني ثم الفُقيمي. فهو كناني صليبة خالص النسب، وكان جده فزارة أسود اللون، وكان جمالًا لعمرو بن قلع، وأُطلق على عمرو اسم «الجاحظ» لنتوء عينيه، ويقال له: «الحَدَقي» لذلك، وكان مشوَّه الخلقة، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله.

ولد في البصرة حوالي سنة ستين ومائة، وتوفي والده وهو طفل، فلما ترعرع تعلم الخط والقراءة في أحد كتاتيب بلده، وأخذ مذ كان يافعًا يلقى الفصاحة شفاهًا عن العرب في المِرْبد، وكان المربد أشهر محالّ البصرة، وبه كانت في الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، على مثال سوق عُكاظ بين نَخْلة والطائف في الجاهلية. واتصل بعظماء في الدين والآداب، مثل: الأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى، والأخفش، والنظّام إبراهيم بن سيار البلخي، وصالح

بن جناح اللَّخْمي. أخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين، والنحو عن الأخفش، والكلام عن النظام، والحكمة عن ابن جناح.

وحدَّث عن ثُمامة بن أشرس النميري المتكلم، ويزيد بن هارون، والسري بن عبدويه، والقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة. وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلهاب، ودعامة بن الجهم، وأبو سعيد الحسن بن علي العدوي، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ويموت بن المزرَّع، وأبو العيناء محمد بن القاسم. وقال عن نفسه: إنه جلس إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن بجيم وأبي مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين.

أولئك الذين عرفوا ممن أخذ الجاحظ عنهم ومنهم نَجَم، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره، فكان له في كل حلقة من حلاق البصرة متنفس. وإذا نظرنا في اختصاص أساتيذ الجاحظ من غير المحدثين، نرى الأصمعي ممن جمع شتيت اللغة في الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش وغير ذلك، وقالوا: إنه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها. وصنف أبو عبيدة في البازي والحمام والعقارب والحيات والزرع (وكان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم)، وكان يرى رأي الخوارج، ووصفه تلميذه بأنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وألف أبو زيد الأنصاري في القوس والترس والقضيب والإبل والوحوش، وخلق الإنسان والمطر والنبات، وكان هؤلاء الثلاثة في عصرهم (أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم، عنهم أخذ جلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله). كان الأخفش الأوسط من أعلم الناس بالنحو والتصريف، وصالح بن جناح كان ممن

أدرك التابعين، وكلامه مستفاد في الحكمة كما قال ابن عساكر، أخذ عنه الجاحظ في نيسابور؛ أما النظّام، شيخ المعتزلة وإمام الأئمة، فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها، مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس في الفتيا، وقد وصفه الجاحظ بقوله: إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحًا فهو أبو إسحاق النظام. وقال: إنه ما رأى أحدًا أعلم بالكلام والفقه منه. وقال عن نفسه: إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب، وبهم عرف ماهية الشعر، وقام بحق الأدب والكتابة.

هذه أوجه الدراسة التي وجهت إليها مدارك الجاحظ، وهؤلاء أشهر أساتذته. أحكم فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة؛ أي تثقف بالثقافة الراقية لعهده، وزاد على هذه العلوم النظرية أنه أعمل فكره فيما تعلم، وحلل المسميات كما تعلم الأسماء، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين، فكان صاحب بمذهب وأتباع، والغالب أنه كان يعرف الفارسية، وكان مولعًا بالكتب، يكثر الاختلاف إلى الوراقين في البصرة وبغداد، يقضي في حوانيتهم ساعات (حدث أبو هفان قال: لم أرَ قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر) وله ورّاق خاص.

روى الخطيب البغدادي عن محمد بن سليمان الجوهري قال: كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يومًا لنزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئًا أردناه، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلًا، فتركناها وانصرفنا، وتخلف معها الجاحظ ونحن

ننتظره فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئًا، وأخذ الأوراق وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله؛ فلما عاد أخذنا نهزأ به، ويقول: فزت بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حمقى والله، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها، ولكنكم جُهَّال لا تعرفون النفيس من الخسيس.

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين، قيل: إنه رئي بسيحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك في صباه، وقيل: إن أمه كانت تمونه في حداثته، فجاءته يومًا بطبق عليه كراريس، فقال: ما هذا؟ قالت: هذا الذي تجيء به. فخرج مغتمًّا وجلس في الجامع، ويونس بن عمران[1] جالس، فلما رآه مغتمًّا، قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل، وقرَّب إليه الطعام، وأعطاه خمسين دينارًا، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، قالت: من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التي قدَّمتها إليَّ.

وظل رزق الجاحظ غيبيًّا في شبابه، واتسع في الكهولة عقبى تأليفه كتاب العباسية للمأمون، وعلى عهده تصدر في ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام، ثم استعفى فأُعفي؛ وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكُتَّاب. واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فأقطعه أربعمائة جرِيب، وكتب إليه مرة زمن المتوكل: «إن أمير المؤمنين يجِد[2] بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه» ثم حثه على الفراغ من كتاب الرد

(١) يقول ياقوت: إن زيادان ناحية ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بني الهجيم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن بشار بن زياد.

(٢) وجد وجدًا في الحب فقط وكذا في الحزن لكن يكسر ماضيه (القاموس).

على النصارى والتعجيل به إليه، وقال: «وتنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفته لك، لسنة كاملة مستقبلة».

والظاهر أن أداء الرواتب كان يتأخر في بعض الأيام، حتى قال الجاحظ في أبي الفرج نجاح بن سلمة الكاتب -وكان على الأموال زمن الواثق والمتوكل، وإليه أهدى رسالته في امتحان عقول الأولياء ورسالته في الكرم- هذه القصيدة:

أقام بدار الخفض راضٍ بخفضه ... وذو الحزم يسري حين لا أحد يسري
يظن الرضا شيئًا يسيرًا مُهوَّنًا ... ودون الرضا كأس أمرُّ من الصبر
سواءٌ على الأيام صاحب حنكة ... وآخر كابٍ لا يريش ولا يبري
خضعت لبعض القوم أرجو نواله ... وقد كنت لا أُعطي الدنية[1] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بِشره ... ويجعل حسن البشر واقية الوفر
ربَعْت على ظلعي[2] وراجعت منزلي ... فصرت حليفًا للدراسة والفكر
وشاورت إخواني فقال حليمهم ... عليك الفتى المريَّ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت ... (أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو)
ولو كان فيه راغبًا لرأيته ... كما كان دهرًا في الرخاء وفي اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسد ... وذو الود منخوب[3] الفؤاد من الذعر
فإن ترع ودي بالقبول فأهله ... ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التي تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة، فتبسم وقال: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها،

---

(١) في الحديث: علام نعطي الدنية في ديننا؛ أي الخصلة المذمومة.

(٢) من المجاز: «إرق على ظلعك» أي: ارفق بنفسك، واربع على نفسك: تمكث وانتظر.

(٣) المنخوب: الذاهب اللحم المهزول.

وخادم وحمار: أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد. كان هذا والجاحظ في شيخوخته، والخلفاء والعظماء يعشقون قربه، ويفاخرون بصداقته؛ ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[1]، ومحمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب. ولم ير الجاحظ التقيد بخدمة الخلفاء، واعترض عليه بعضهم في ذلك، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم، ومُتعوا به من جاه وسطوة: «إني لم أر أغبن من الجاحظ لنفسه، وإن كان أوحد البلاغة في عصره؛ فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما»، بيد أن الجاحظ كان يفضل أن يكون أميرًا وسط كتبه على الصورة التي رأى عليها إسحاق بن سليمان، وقد دخل عليه في إمرته، فرأى السماطين والرجال مثولًا، كأن على رءوسهم الطير، ورأى فرشته وبزته، ثم دخل عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر. قال الجاحظ: فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم، لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة.

ومنذ ابتعد الجاحظ عما يستهوى من المظاهر انتهت أيام ضائقته لما اشتهر بين العالمين قدره، وتحامى الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا، على ما لا يوازي

(١) يقول ابن خلكان: إنه كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها علي بن يحيى المنجم لم يرَ أعظم منها كثرة وحسنًا، وكان يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة. قال أبو هفان: ثلاثة لم أرَ قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم: الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضي.

أفضالهم إذا رضوا. ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في خلافل المتوكل، وكان الجاحظ في أسبابه وناحيته منحرفًا عن أحمد بن أبي داود، هرب الجاحظ فقيل له: لِمَ هربت؟ قال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور. يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنورًا فيه مسامير محماة. وذكروا أنه لما قُتل ابن الزيات حُمل الجاحظ مقيدًا من البصرة، وفي عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل؛ فلما دخل على ابن أبي داود عاتبه عتابًا فاحشًا. فقال الجاحظ: خفض عليك -أيدك الله- فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن، أحسن في الأحدوثة من أن أحسن وتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك، أجمل بك من الانتقام مني، فعفا عنه وصدّره في مجلسه.

مذهبه وأخلاقه:

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة، وفي هذا المذهب رُبي وعليه نشأ، وعنه ناضل وله ألّف؛ وقد خالف أصحابه في مسائل طفيفة، فسميت فرقته الجاحظية، وزعموا أنه قال: إن المعرفة طبائع؛ ونُقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنسًا من الأعراض، فقال: إذا انتهى السهو عن الفاعل، وكان عالمًا بما يفعله، فهو المريد على التحقيق، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه، وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وأثبت لها أفعالًا مخصوصة بها، وقال بعدم استحالة الجواهر، وأن الأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن تفنى، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة.

هذا مجمل ما يقال في مذهب أبي عثمان، أما أخلاقه ومزاجه، فما كان بالسوداوي ولا بالعصبي، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، يرى الدنيا بعين

المغتبط المحبور، لا بعين المَغيظ المُحنَق، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب، وتغمره الغبطة، وتعتاده الدعابة، وخفة الروح فيه جِبلّة، يتنادر إلى الطبقات المختلفة، يعبث بهذا، ويَوْلع[1] بذاك، لا تفزعه المظاهر، ولا يتوقف في إيراد النكتة؛ فطر على الوفاء لأصحابه، والثبات على ودهم وعهدهم، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف، لاعتقاده أن الوصاة شهادة، وصعب عليه أن يشهد الزور.

كان يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد، بعيدًا عن الفوضى بعض البعد، ويحب النظام في الجملة، إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة، وإذا أتاه ينفقه لا يحسب للغد حسابًا كبيرًا، ولذلك كان يعسر أحيانًا وتعوزه النفقة، ويلوب على الناضّ يرتفق به، وما كان ضنينًا على إخوانه، وود لو أخذ من الأغنياء فأفضل على الفقراء، ولئن نشأ من بيت وضيع، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس.

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك، قام بما فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين، دعاهم إلى الحياة الفاضلة، وحبب إليهم دينهم ودنياهم، ليستقيموا أمة عزيزة فاضلة في أخلاقها. وكان يرى سعادة أصحاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها، أو بما يعرض لها من أسباب الفناء، وأن العمل الصالح هو الأثر الذي يظل على الأيام، ولذلك كان يتقن عمله، لا يتوخى منه إلا ما يجدي في الحياة والمعاد. وسع علمه الناس والأمصار، ونظر أكثر من غيره إلى ما وراء حدود النظر، وما كان بالمقلد الخائف، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قضية مسلمة لا بحث ولا نظر: قصاراه التجديد، والبعد عن مزالق التقليد، والتعرف إلى كل شيء معرفة ثاقبة.

---

(١) ولع كوضع ولعًا وولعانًا محركة: استخف.

رأى من العبث تكليف الأيام ضد طباعها، فلابس دهره كما شاء في الجملة، لا كما أراد هو بالتفصيل، فضحك لشقاء الحياة الدنيا، وهزأ بما يراه غيره نعمة؛ عرف أن السعادة في الأرض مستحيلة، وأن العالم يحلو ويمر، فرضي بحلوه ومره، وفي الرضا والقناعة عزاء وشفاء. رأى فساد الناس بما كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسد والخبث، فاستعمل من دهائه ما اتقى به شرهم، وعَلِق يطمع في الحيلة لتعليمهم، ومداواة أمراض نفوسهم، وتفنن في دعوته، لا تفنن صاحب خيال، وطالب محال، بل تفنن الرجل الحكيم، يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه، بقدر ما يشهد فيه من استعداد، ويسمح له من رأس ماله الواسع ما يرجى له أن ينعم به، وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله، ولا يقرهم على كل ما هم فيه.

خُلق نقادًا كما يُخلق الشاعر شاعرًا، وقوة النقد فيه شديدة، ومع هذا يعمد إلى الرفق، وينصف خصمه من نفسه، ويستمع إلى ما يدلي به من حجة. تراه وهو العربي القح في جميع منازعه، لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس، وما امتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم، ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق، وعمن وافق وخالف؛ لا ينبو نظره عن شيء، ولا تُرذل نفسه حقيرًا. ولم تورثه شهرته العلمية زهوًا وغرورًا، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع، وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا، وبالجهلاء حتى يتعلموا؛ يحاسن الكبراء من دون إسفاف، ويجتنب مخاشنتهم تفاديًا من شرهم وعتوهم، ويحلم عن الأشرار طبعًا وتطبعًا، ويبتعد عن الحاسدين والموتورين؛ لا يضجر ولا يضطرب، مُتزّن إذا أزِم، معتدل إذا حاور؛ لا يحسد ذا نعمة على نعمته، ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته.

***

فلج الجاحظ وأصيب بالنقرس في شيخوخته، فدخل عليه المبرد في آخر أيامه وهو عليل، فسأله عن حاله فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج، لو نشر بالمنشار لما أحس به، ونصفه الآخر منقرس، ولو طار الذباب بقربه لآلمه، والأمر على ذلك أني قد جاوزت التسعين وأنشد:

أترجو أن تكن وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب؟
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس[1] كالجديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يومًا بسرّ من رأى يعودونه وقد فلج، فلما أخذوا مجالسهم أتاه رسول المتوكل فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل؟ ثم أقبل عليهم فقال: ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث[2] وأكثر ما أشكوه الثمانون؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلي نفسه بالتأليف على النحو الذي جرى عليه أيام الكهولة والشباب، فعوضته الطبيعة في شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله، وأعاضته في شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل. مات الجاحظ في سنة (٢٥٥). قيل: إنه وقعت عليه مجلدات العلم، فمات في الذي أحبه وبحر فيه طول حياته. قالوا: وكان من عادته أن يضعها قائمة، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها، فسقطت عليه. مات في البصرة لا في بغداد بدليل ما رواه ابن المهلبي عن أبيه قال: قال لي المعتز بالله: يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ. فقلت: لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز. قال المعتز: لقد كنت أحب أن أشخصه إليَّ وأن يقيم عندي. فقلت له: إنه كان قبل موته عطلًا بالفالج.

---

(١) درس الثوب: أخلقه فدرس، هو لازم متعد.

(٢) غوث الرجل تغويثًا: قال: واغوثاه.

أدبه:

يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع، ويعلمك في سهولة ويسر لا يشق عليك، يدخل من نفسك مدخل صدق، ويستهويك وأنت لا تدري كيف أُخذت. قد تقرأ لغيره كلامًا، وتُعجب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق، أو تحقيق وإحاطة، أو فكر طريف، أو رأي نادر، أما أن يضمَّ الكلام شتيت هذه الميزات، ويجمل كل ما يعن للخاطر من الصفات، فهذا مما لا يقع إلا على الندرة في كلام البلغاء، وهو من الأمور المعتادة في كلام أبي عثمان. أنت تتمثل فيما يملي الكاتبون شيئًا تستطيبه وتستملحه، وفي أدبه كل ما يطرب ويعجب. الكتَّاب في العادة يتطالون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم، والجاحظ يستمليه موضوعه فيمليه، لا يتكلف ولا يتعسف، يصوّر لك خلجات الروح وآهات النفس وأزمات العقل، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها، ويصف لكَ المعلوم والمجهول، ويعرض عليك المعقول والمنقول، ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد في علماءِ هذه الأمة الطويل تاريخها، الكثير نبغاؤها، كأن الجاحظ بوق عصره ومصره، والآلة المحكمة التي أحسنت نقل أصوات أهل جيله. سجَّل المفاخر والمعاير، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جمَّلها بروح الحق وسحر الجمال.

يقف القارئ بما ينقل إليه على صور رآها بعينه، فأحب إمتاع غيره برؤيتها، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه، هو ممن ربط ماضي الأمة بمستقبلها، ودينها بدنياها، وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح، فطبَّ بلطف عبقريته روحها وجسمها. وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك ما يقع بصره عليه، فأدب الجاحظ يصور لك في حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه. ولما كان من رقة الشعور إلى التي ليس بعدها، جاء كلامه شعورًا وعاطفة.

ينبعث الهاء في أدب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور في الروح. قالوا: إذا أورثك الكلام ما يعلو به فكرك، وما ينبه فيك حسًّا شريفًا، فلا تبحثن بعدها عن شيء آخر لتحكم على ما قرأت، وكن على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح، وأنه ما صدر إلا عن يد صناع، وقريحة وقادة. والجاحظ فوق هذا، لم يتقيد كثيرًا بذوق عصره، وفي ذلك إبداعه في أدبه.

كان كما قال لانسون في وصف أحد كتاب الإفرنج يعيش كالأديب في العالَم، ويكتب كما يكتب الأديب للعالم، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يُرضي الناس، وقد قَبِل البشر بكل ما فيهم من صفات، ليزحزحهم عما هم فيه؛ فخاطب الإنسان للتأثير في الإنسان، ونظر إليه لا على أنه روح محض، ولا على أنه عقل محض، نظر إليه على أن له جسمًا يضطهد الفكر ويحرّفه وينفيه، فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه، فخاطب فيه العقل والإرادة والذهن والإحساس، فبرزت فصوله تُزهى بما خلع عليها من الجمال، والفكر الذي لا يتمثله الكاتب ينفر القارئ منه، لأن له من عزة نفسه ما يجب معه أن يُخاطب بما أَلف، وبما تتأثر به نفسه. وهذا ما كان مستجمعًا في أبي عثمان.

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة، وما عانى من الأبحاث إلا ما اضطلع به؛ وما قولك بعظيم يحيط بأكثر ما في صحيفة الوجود من المعارف، ويعرف ما في الأرض من تعاجيب، وما في السماء من غرائب، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه، ويرافقه ويعاشره من قرائه. ومن لا يحتقر شيئًا يدخل في باب الآداب، ولا يستنكف من الأخذ عن صغير الناس وكبيرهم، ويكشف كل غامض، ويستقري ويستنبط، خليق أن يفعل أدبه في النفوس، وأن يكون كلامه راحًا للأرواح.

قيل: إن الكتابة الصحيحة صعبة المراس، وأصعب منها اختراع تركيب جديد، وإن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء؛ ومنها أن يسلي الكاتب السامع بالمناظر المختلفة، يجمع له منها أصنافًا، وينقله في الأحاسيس، ويبعد به عن المهجورات والمكررات، ويهيب به إلى الإشراف على ما تخترع قريحته، ويتكشف عنه بيانه. وهذا القول أيضًا يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه، وبصره بالأشياء، حتى لا يترك قولًا لغيره إذا بدا له أن يقوله.

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله: أحدهما في وصف الكتاب، والثاني في وصف الحسد. ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيرًا. ومن أعرفُ بنفع الكتب من سيّد من صنفها، ومن أقدر على وصف الحسد من العارف بمدبّ هذا الداء من نفوس الحساد، ومن كان طول حياته غرضًا لهم يحاولون أن يصيبوه فيتقيهم. انتقد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب، فذكر لهم فضلها على الناس؛ ومما قال: الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بد أن تكون كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من عشق القيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يُؤَمَل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه.

وقال بعد مقدّمة: «وأنا أحفظ وأقول: الكتاب نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة، ونعم النشوة، ونعم النزهة، ونعم المستغلّ والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مليء علمًا، وظرف حشي ظرفًا، وإناءٌ شحن مزاحًا، إن

شئت كان أعيي من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرَّتك نوادره، وشَجَتك مواعظه، ومن لك بواعظ مثله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس؛ ومن لك بطبيب أعرابي وروميٍ وهندي وفارسي ويوناني، ونديم مولّد، وحبيب ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؟

وبعدما رأيت بستانًا يحمل في رُدن، وروضة تنقل في حِجر، ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى؛ آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جارًا آمن، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالًا ولا إبرامًا، ولا أبعد عن مراء، ولا أترك لشغَب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال -من كتاب؛ ولا أعمَّ بيانًا، ولا أحسن مؤَاتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أطيب ثمرًا، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كل إبان -من كتاب؛ ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من السير العجيبة، والعلوم الغريبة، وآثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب.

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبًّا، وورده خمسًا[1]، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك كبعضك؛ والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق

(١) الغب بالكسر في الزيارة: أن تكون كل أسبوع، والخمس بالكسر من إظماء الإبل: وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع، وهي إبل خوامس.

الذي لا يَقليك، والرفيق الذي لا يَمَلّك، والمستمع الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يُساطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وبجح[١] نفسك، وعمَّر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك؛ يعطيك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقًا منه بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء.

وإن أمثل ما يقطع به الفُرَّاغ نهارهم، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة، وعقل ومروءة، وصون عرض، وإصلاح دين، وتثمير مال، وربّ[٢] صنيعة، وابتداء إنعام. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، واعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم، وأعظم المنة. وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس ما يملُّ، لأنه وإن كان كتابًا واحدًا، فإنه كتب كثيرة في خطابه، والعلم بالشريعة والأحكام، والمعرفة بالسياسة والتدبير.

---

(١) بجحته تبجيحًا فتبجح أي: أفرحته ففرح.

(٢) وربّ: جمع وزاد ولزم.

والكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين، مع خفة نقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه.

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب، والمتنازع في المسألة والجواب، ومناقلة اللسان وهدايته، لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخَلّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سبيلنا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا، لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا، لقلت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيمًا، والخاطر فاسدًا، ولكلَّ الحد وتبلّد.

ولولا جياد الكتب وحَسَنها، وبَيّنها ومختصرها، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولدخل على هؤلاء من الخلل، والمضرة من الجهل وسوء الحال، ما عسى أن لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا. وقد نجد الرجل يطلب الآثار، وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عامًا، وهو لا يعدُّ فقيهًا، ولا يجعل قاضيًا؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة

وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه، فتظن أنه من بعض العمال، وبالحريّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير، حتى يصير حاكمًا على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان. ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة، فيعلم بها أهل البصرة قبل المساء».

أملى الجاحظ هذه الفقرات في عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ، والأخذ عن الرواة، على مطالعة الأسفار، والمنافسة في دواوين العلم، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيرًا، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه، فوجَّه أفكار أُمته وجهة أخرى مستديمة مستقرة، أتاها يُرغِّبها في الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعة ما يستقي من مَعينه، نصح لقومه أن يتناغوا في اقتناء الأسفار، ويتباروا في الاعتماد على ما تدخره من الدرر الغوالي، وبذلك ينشط المؤلفون إلى وضع كتبهم ومصنفاتهم، وتبقى لمن يتلوها أصح مرجع على الأيام.

وبعد؛ فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المتعلمين، أو من يطمع في تثقيفهم من العالمين، عندما قال لهم: إن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك، وإن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل، إلا إذا درس كتب أبي حنيفة وغيره، فأصبح بما استظهر قاضيًا أو حاكمًا في أحد الأمصار. وبعد أن أفاض في ضروب من الأقوال التي تفعل في النفوس، ونقل ما قاله مَن تقدموه في هذا الباب، باغت القارئ فضربه في الوتر الحساس، وهو طلب المال والجاه بالكتاب، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب؛ وما دامت المسألة لا تحتمل أكثر

من النظر في صفحات معدودة، ويفتح الكنز المرصود لطالب السعادة، فجمهرة المقبلين على الأخذ من الأسفار، ستزيد يومًا بعد يوم.

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ في الإصلاح والتمدين، يحاول أن يصل منه إلى غاية معينة، وبضَرْبه على نغمة المادية يستهوي قلوب العالم، وما هو بالغافل عن ضعفهم، وأنهم عبيد الدنيا مهما تقلبوا زمانًا ومكانًا، فخاطبهم بما يقربهم إليه. ثم هو ليس ممن يرغب في الخطب التي يزول أثرها بزوال مؤثراتها، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها، ويتعشق الكتب لأنها موضع تبصر وتدبر، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف، وزيادة ونقص. وأثبت الجاحظ في هذا المنحى أيضًا أنه على جانب عظيم من الدهاء، أثبت أنه لو اعتمد في تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته في مجالسه ودروسه فقط، لضاع على الناس علم كثير، واستهلك ذلك وقتا ودَّ لو صرفه في التأليف الخالد، ثم لا يجد إليه المشاغبون طريقًا يلجونه لمناقشته ومراوغته، فيضطر إلى إجابتهم، وصرف الذهن عبثًا في حاورهم؛ ومن خُلقوا للجدال في الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان، وهل يرضى العدو من عدوه بغير إهلاكه أو زوال نعمته؟

من أجل هذا تملص الجاحظ من إجابة من تقدم إليه أن يحدثه قائلًا له: إنه ليس حشويًا، ذلك لأن الجاحظ الحذر اليقظ لا يُرضيه أن يستخدم أحد اسمه، مدعيًا أنه نقل عنه حديثًا قد يحرفه أو يعبث به على هواه؛ ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من الحشوية، والحشوية هم الذين لا يدرون ما يروون، ولا ما يصححون من أحاديث الرسول. وأخرى أنه كان ينوي بالدعوة إلى الاستكثار من اقتناء الكتب أن يظهر تدجيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا في أصح مظاهرهم، وتتبين

للقاضي والداني أقدارهم؛ فيسقط المموَّهون، ويبقى المجوِّدون، ممن تستحق مدوّناتهم أن تبقى وتتناقل جيلًا فجيلًا.

والآن ننتقل إلى الصفحة الجاحظية الأخرى، صفحة الحاسد والمحسود؛ فاستمعوا إليها من لسان أعرف الناس بطباع الناس، بل أعظم منشئ وأكبر عالم قام في القرن التاسع للميلاد، كما وصفه أحد علماء الإفرنج، وهو جواب من سأله عن الحسد: «لِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولِمَ كثُر في الأقرباء، وقلَّ في البعداء؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خصَّ به الجيران من جميع الأوطان؟». فقال: «الحسد -أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الأود، علاجه عَسِر، وصاحبه ضَجِر، وهو باب غامض، وأمر متعذر، فما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداريه في عناد؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم الحسدُ والبغضاء...» فمنه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرِّق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدور كمون النار في الحجر. ولو لم يدخل -رحمك الله- على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه، ووسواس ضميه، وتنغيص عمره، وكدر نفسه، ونكد لذاذة معاشه، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده، وسخطه على سيده، بما أفاده الله عبده، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه، وأن لا يرزق أحدًا سواه، لكان عند ذوي العقول مرحومًا، وكان عندهم في القياس مظلومًا».

وبعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال:

«فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا، توبيخه على المال وقوله: إنه جمعه حرامًا، ومنعه أثامًا، وألّب عليه محاويج أقاربه، وتركهم له خصماء، وأعانهم في

الباطن، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: كفروا معروفَك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإن وجد له خصمًا، أعانه عليه ظلمًا، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصره خذله، أو حضر مدحه ذمه، وإن سُئل عنه همزه، أو كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلة عظمها، وقال: إنه يجب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه القعود».

«إن كان المحسود عالمًا، قال: مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، ومتبع نَيْل، ما يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ مالوا إليه، فقبحه الله من عالم، ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته».

ووصفه للعالم المحسود وصفه لنفسه مع بعض حساد زمانه، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه في علمه وفنه، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم، فكان الإعراض عنهم في حياته، ومداراة الشياطين منهم من جملة ما يعد في باب عقل الجاحظ. وقال: «لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به، بإلزامه الهموم قلبه، وتسليطها عليه، فزاده الله حسدًا، وأقامه عليه أبدًا».

وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله: «فإذا أحسست -رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرك منه تسلم من شذى[1] شره، وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، فتمكن نفسك من سهام مشاررته».

(١) الشذى: كالأذى وزنًا ومعنى.

«ومتى رأيته حاسدًا يصوب لك رأيًا، وإن كنت مصيبًا، أو يرشدك إلى الصواب، وإن كنت مخطئًا، أو نصح لك في غيبته عنك، أو قصر من عيبه لك؟ هو الكلب الكلِب، وَالنمر الحرِب، والسم القشب، والفحل القَطِم[1]، والسيل العرِم. إن مَلَك قتل وسبى، وإن مُلك عصى وبغى؛ حياتك موته وثبوره، وموتك عرسه وسروره؛ يصدّق عليك كل شاهد زور، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضي؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك؛ عدوك بطانته، وصديقك علاوته... أحسن ما تكون عنده حالا، أقلّ ما يراك مالًا، وأكثر ما تكون عيالًا، وأعظم ما تكون ضلالًا؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدًا، وأبعد ما تكون من الناس حمدًا؛ فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الأموات، ومخالطة الزَّمْنى، الاكتنان بالجدران، ومصّ المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرة مثله، والاتصال بحبله... وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته...».

قال: «وما لقيت حاسدًا قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك»، «من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه، ومن خلق المحروم تقبيح ما حُرم وتصغيره والطعن على أهله»، «والذي يحسد فعلى ما لا حد له يكون حسده، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه»، «ما خالط الحسد قلبًا إلا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تشحينه[2] وكتمانه، حتى يتمرد عليه في ظهوره وإعلانه، فيصده ويستعمله، ويستعطفه لقهره عليه، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره».

---

(١) القطم ككتف: الكثير العض، والقشب: الخلط وسقي السم.

(٢) أشحن السيف: أغمده، وسله، ضد.

وقال في مكان آخر: «ومتى أحب السيد الجامع، والرئيس الكامل، قومه أشد الحب، وحاطهم على حسب حبه لهم، كان أبغض أعدائهم له على حسب حب قومه له؛ هذا إذا لم يتوثب إليه، ولم يعترض من بني عمه وإخوته من قد أطعمته الحال باللحاق به. وحسد الأقارب أشد، وعداوتهم على حسب حسدهم. وقد قال الأولون: رضا الناس شيء لا يُنال. وقد قيل لبعض العرب: من السيد فيكم؟ قال: الذي إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه. وقد قال الأُوَل: بغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك، وليس في الأرض عمل أكدُّ لأهله من سياسة العوام». والجملة الأخيرة من حكمه أو من الكلام الذي يختم به فصوله غالبًا ليبقى من القارئ على ذكر. وما أحلى قوله في الحاسد: «من العدل المحض أن تحط من الحاسد نصف عقابه، لأن ألم حسده لك قد كفاك شر مؤنة غيظه عليك». وما أصدق قوله: «ما لقيت حاسدًا قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخوص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك» إلخ.

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل أن نشير إلى أن الجاحظ كان صريحًا في أدبه، لا يبالي تشدد المتزمتين، يُسمِّي الأشياء بأسمائها، رغم أنف من رضي وكره، فأدبه - والحالة ما ذكرنا- الأدب الواقع Réalisme، على ما يدعوه المعاصرون، أي نقل الطبيعة كما هي، أو كما يظن أن تُرى، مع ما فيها من بشاعة وابتذال؛ ولهذا الأدب في دهرنا من أهل الغرب أدباء مشهورون عانوه في كتبهم، وما عبئوا بمصطلح مجتمعهم.

وكان كثير من المؤلفين في العرب، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل، يسيرون على نهج أبي عثمان في ذلك؛ ومنهم خصمه اللدود جاحظ أهل السنة ابن قتيبة، فقد قال في مقدمة عيون الأخبار: «وإذا مر بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج، أو

وصف فاحشة، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر[١] خدك، وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض، وقول الزور والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب. قال: ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك[٢] على كل حال، وديدنك في كل مقال، بل الترخص مني فيه حكاية تحكيها، أو رواية ترويها، تنقصّها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح، في إرسال النفس على السجية، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع».

وأبان الجاحظ عن منزعه في الأدب الواقع بقوله: «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحـ والايـ. والنيـ، ارتدع وأظهر التعزز، واستعمل باب التورع، وأكثر من تجده كذلك، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل، ونذالة متمكنة. وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة، وكان الرأي أن لا يلفظ بها»[٣].

---

(١) صعّر خده تصعيرًا وصاعره وأصعره: أماله عن النظر إلى الناس تهاونًا من كبر، وربما يكون خلقة.

(٢) الرفث -محركة-: الجماع، والفحش كالرفوث وكلام النساء في الجماع أو ما ووجهن به من الفحش. يقال هذا هجيراه (بكسر الأول وتشديد الثاني) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه؛ أي: دأبه وشأنه.

(٣) جرى كثير من العلماء والأدباء على هذه الطريقة في التصريح، بما يعد اليوم مخالفًا للعرف ومنافيًا للأدب، ومنهم ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة والراغب الأصفهاني صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة، في كتاب محاضرات الراغب، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة، وياقوت في طبقات الأدباء وغيرهم كثير. وروى الحصري بمناسبة مجون الحسن بن هانئ: «إن الشعر لم يؤسسه بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يغو بصبوة، ولم يرخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزور الباطل، ويكسبه معارض الحق، ولو سلك بالشعر هذا المسلك، لكان صاحب لوائه من المتقدمين، أمية بن أبي الصلت الثقفي، وعدي بن زيد العبادي، إذ كانا أكثر تذكيرًا

سار الجاحظ على العرف قبله في إيراد أسماء الأعضاء وعملها، لأنها ما وجدت في اللغة إلا لتُستعمل، ولطالما أرسل النفس على سجيتها، وأورد النكات والنوادر بالألفاظ التي رويت بها، وليس ذكر الأشياء بأسمائها بدعًا في أسلوب الجاحظ، ووصف الأشياء بما فيها من قبح وحسن بالأسلوب الواقعي طريقة للعرب قديمة؛ ومع هذا لم يفرط أبو عثمان في ذلك، يورد ما يورد منها في المناسبات، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين، أو يعبث بخلق أو يأتي على أدب، ولا سيما في حكاياته وما ينقله من أشعار. الجاحظ يملي أدبه من روحه وقلبه وعقله، ويقول ما يقول غير متزيد، فمن الأحجى أن يعرض الطبائع البشرية في صورتها الحقيقية، لا يداجي ولا يحابي، ويجابه الحقيقة مجابهة.

بقي أن نقول: إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظرة طريقته، ولو أنك ألقيت قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبية لغيره، لما صعب عليك أن تميز

وتحذيرًا ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة. قال: وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، إلا على ملأ من الناس، وفي حلق المساجد؛ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم، وما نهى النبي ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر». اهـ.

وقال الجرجاني: «وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله».

ونقول مثل هذا لمن يجوزون تغيير نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر، ونحن في صدد معرفة أدب ذاك العصر. قال القديس كليمان: أنا لا اخجل، لفائدة القراء، من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الإنسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها. وقال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين: ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره؛ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل، ويبتعدون عنه في أحاديثهم، الناس يجرءون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا.. إلخ، ولا يجرءون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق. يا للعفة المكذوبة، ويا للنفاق المخجل؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي يخلق الإنسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات؟

كلامه من كلام غيره، إن كنت ممن تأدب بكلامه، لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها؛ فشخصية الجاحظ تلمسها إذًا في كل موضوع جالت فيه يراعته؛ وهذا قلما تعرف مثله كثيرًا لغيره من العلماء والأدباء، وأسلوبه خاص به، لا ينازعه فيه منازع، وجماع عوامل الإحسان مستوفاة في كلامه.

بلاغته:

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته (حتى كان يقال: من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به). ومن الخير لطلاب البلاغة إذًا أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته، ويتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة، ويتعرفوا ميزانه الدقيق في فقه اللغة (أي: النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب)، و(تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال)، و(اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه).

قالوا: إن (مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة) وحظُّ الجاحظ من هذا كان جزيلًا. حسنت بلاغته في كل عين، لتجميلها ببراعته في تخير جيد الألفاظ، وتجافيه عن استخدام الثقيل في ميزانه، وقد ينبذ اللفظ الواحد ويستعمل معناه، ويؤدي المعنى بعدة ألفاظ، واللفظة الواحدة تُجزئه، وفي ألفاظ الأعيان يضع الشيء موضعه، ويطبق كل اسم على مسماه. قال مرة: «ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل، وهو الذي يقال له: سَبْكور، أكثر من أن يقولوا به: هُدْبِدٌ». وقال في وصف كتاب بالقدم: «كتاب متقادم الميلاد دهريُّ الصنعة»، وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يستعمل ما لا عهد باستعماله قبله، مثل قوله: «القرويون والبلديون»، «اللغويون والمعنويون» أطلق هذا على من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعاني، فمعرفة أبي

عثمان بوقع الكلمة في نفس القارئ وتمييزه الدقيق بين حيّ الألفاظ وميتها، وسهلها وصعبها، سبب أول في تفوقه في بلاغته.

وملاك الأمر عنده أبدًا أن يكون اللفظ سمحًا لا كزًّا[١]، والابتعاد عن المعاني التافهة، والقوالب المستكرهة؛ ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عاميًّا ساقطًا سوقيًّا، ولا وحشيًّا غريبًا، وقال: «الاستعانة بالغريب عجز»، «إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي»؛ والمعوَّل عليه في هذا الباب أن (لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة)؛ فهو إذًا ممن سعوا في تدميث اللغة، على نحو ما تدمثت طبائع الأمة العربية بالحضارة.

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال: «قد يستخفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالًا، وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار، ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر»، «وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني». ويقول: إن لكل قوم ألفاظًا حظيت عندهم «وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج[٢] وألّف ألفاظًا بأعيانها، ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ».

---

(١) يقال: رجل كز اليدين ذو كزز؛ أي بخل، والكزازة: اليبس والانقباض.

(٢) لهج به، كفرح: أغرى به فثابر عليه.

قال: «وأنا أقول في هذا قولًا، وأرجو أن يكون مرضيًّا، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللًا، ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب. وذلك أنه قيل لصُحَار[1] العَبْدي: ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه؟ قال: أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغًا مُرضيًّا، وهو يعلم أنه قد وفّاه حقه الواجب، وتفضل بما لا يجب. قال صُحَار: كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتنفَّسًا، وأن يتركوا فيه فضلًا، وأن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يُمنعوا منه، فلذلك قلت أرجو، فافهم، فَهَّمك الله تعالى».

«فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ، أن أكون ما دمت في المعاني، التي هي عبارتها والعادة فيها، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل، إلا بعد الرياضة الطويلة، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضًا في صناعة الكلام، مع خاص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم عندي وأخف لمؤنهم عليَّ. ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلات بينها وبين تلك المعاني. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أول رسالة، أو في مخاطبة العوام والجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمَته، أو في حديثه إذا حدّث، أو خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل».

ذلكم رأي الجاحظ في وضع الألفاظ مواضعها في التأليف، وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق، هو لا يدعوك في وضع القاعدة التي سنَّها لك، إلا أن تتدبر ما قال، وتعمل به في اختيار اللفظ الموافق، أما المعاني فقد قال: إن حكمها خلاف حكم

---

(١) صحار بن العباس العبدي وفد على النبي وكان من أخطب الناس وأبينهم.

الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة. وهنا روى عن غيره: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا. وهي التي تخلص الملتبس، وتحل المتعقد، وتجعل المهمل مقيدًا، والمقيد مطلقًا، والمجهول معروفًا، والوحشي مألوفًا، والغُفل موسومًا، والموسوم معلومًا. وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي، هو البيان الذي سمعت الله -تبارك وتعالى- يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت وأصناف العجم».

«وقال مَن علم: حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وَفْقًا، ويكون الاسم له لا فاضلًا ولا مفضولًا، ولا مقصرًا ولا مشتركًا ولا مضمنًا، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقًا، ولهول تلك المقامات معاودًا، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم».

قال: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صاحبه صحيح الطبع، بعيدًا من الاستكراه، منزهًا عن الاختلال، مصونًا عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة، ومتى كانت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة».

قال: «ومتى شاكل -أبقاك الله- اللفظ معناه، وكان لذلك الحال َوفقًا، ولذلك القدر لفقًا[١]، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قَمِنًا بحسن الموقع، وحقيقًا بانتفاع المستمع، وجديرًا أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين، ويحمي عِرضه من اعتراض العائبين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة. ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، متخيرًا من جنسه، وكان سليمًا من الفضول، بريئًا من التعقيد، حُبّب إلى النفوس، واتّصل بالأذهان والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الريِّض[٢]، ومن أعاره من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذنوبًا[٣] حبب إلى المعاني، وأسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم».

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان: هما لفقان. والوفق والوفاق والفيقة والفوقة والسية والعدل واحد.

(٢) يقال ناقة ريض: كسيد، أول ما ريضت وهي صعبة بعد.

(٣) الحظ والنصيب، والدلو فيها ماء، أو الملأى، أو دون الملأى.

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القضية الواحدة في عدة أماكن من كتبه ورسائله، يريد إثباتها في الأذهان، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعاني الصورة اللائقة مما يُعنى به، فقد قال في رسالة «مدح التجار وذم عمل السلطان» ما لم يخرج عن قوله في هذا المعنى في البيان والتبيين وفي الحيوان وغيرهما. قال: «ثم خذه بتعريف حجج الكتَّاب، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار، وراحة الكفاية، وحذره التكلف، واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاما للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب[1]، ويكون مقصورًا على معناه، لا مقصرًا عنه، ولا فاضلًا عليه، فاختر من المعاني ما لم يكن مستورًا باللفظ المتعقد، مغرقًا في الإكثار والتكلف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ، وغموضه على السامع، بعد أن يتسق له القول، وما زال المعنى محجوبًا لم تكشف عنه العبارة، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه، وصارت العبارة لغوًا وظرفًا خاليًا، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقًا لذلك اللفظ، وشغفًا بذلك الاسم، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جرًّا، ويلزقه به إلزاقًا، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره، ومنعه الإفصاح عنه إلا به، والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع، بطيء اللفظ، كليل الحد، شديد العجب، ويكون مع ذلك حريصًا على أن يعدَّ في البلغاء، شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء؛ فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ، واستكراهه لها.

وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع، هزل أو جد، أو حرفة أو صناعة، ضربًا من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه، الذي لا ينبغي أن يجاوزه، أو يقصر دونه، ومن قرأ كتب البلغاء، وتصفح دواوين الحكماء، ليستفيد المعاني، فهو على سبيل صواب؛ ومن نظر ليستفيد الألفاظ، فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن

(١) التعقيب: المكث والالتفات.

الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها في غير مكانها؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال صاحبه: ولِمَ ذاك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسباحة، والرفيق مصلح، والآخر مفسد، ولا بد من هذين، وطبيعة مناسبة؛ وسماع الألفاظ ضار ونافع؛ فالوجه النافع أن يدور في مسامعه، ويغيب في قلبه، ويختم في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاحقت، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة؛ لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة، ولا مختلسة ولا مُغتصبة، ولا دالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره، وبين الشيء إذا عشش في الصدر، ثم باض ثم فرخ ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختارًا، واللفظ اعتسافًا واغتصابًا، فرقٌ بيّن».

وقال: (إن كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والقبيح، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا».

وقد أعجب بما يستخدمه رواة الأخبار من السهولة فقال: «ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم- لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتّاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر». يعني: أن الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من الألفاظ إلا ما يفهمه العامة؛ والكاتب يكتب ليُفهم

لا ليُعجم، ويتوخى المعاني الجديدة التي تصلح فساد القلوب، وتعمر بها الأفئدة والعقول.

قال الجرجاني في دلائل الإعجاز: واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآلٍ فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق، وكمن نَضَد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين، وذلك إذا كان معناك لا يحتاج أن تصنع فيه شيئًا غير أن تعطف لفظًا على مثله كقول الجاحظ: «جنَّبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحبب إليك التثبيت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة».

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام، قال في كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن: «حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه، وشهاب لا يطفأ نوره، وبحر لا يُدرك غوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار، وزاجر يصد عن المحارم، ويجير يوم التحاكم».

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم، لم ير طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعاني السخيفة، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات

الأعراب بألفاظها، وقد حشا كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات في عصره، فعُدَّ ذلك في جملة إفضاله على اللغة أيضًا، قال: «ومتى سمعت -حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غَيَّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطّغام[1]، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، وأن تتخير لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها من فيك مخرجًا سريًّا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدت له، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم له». وهو يرى «أن النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح؛ لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح، ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده في نفسه».

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له: «وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الإسجاع، ويؤلف المزدوج، ويتقدم في تحبير المنثور، وقد تعمل في المعاني، وتكلف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهوًا رهوًا[2]، مع قلة لفظه وعدد هجائه -أحمد أمرًا، وأحسن موقعًا من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج، ولأن التقدم فيه، وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه، لا يكون إلا ممن يحب السمعة، ويهوي الفَلْج[3] والاستطالة».

تخوّف الجاحظ من فساد كبير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة عندما شرعت العرب بنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية، وقد شاهد النقلة ضعافًا في البيان،

---

(١) الطغام، كسحاب: أوغاد الناس، والحشوة (بكسر الحاء وضمها): العوام.

(٢) الرهو: السير السهل، والسهو: السهل.

(٣) الفلج: الظفر والفوز كالإفلاج، والاسم بالضم كالفلجة.

واقرب إلى الركاكة في الألفاظ وسبكها، حتى أفسدوا المعاني وأبهموها فعميت على الناس، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها في الحقيقة إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها في نقلها. قال: «إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب، لما فهموا أكثره، وكذلك كتاب أقليدس، وهو عربي وقد صُفّي، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلمه، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام». وقال: «ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء، ولا تصير صَناعًا[1]، ما لم تكن المعرفة ثقافًا لها، واللسان لا يكون أبدًا ذاهبًا في طريق البيان، متصرفًا في الألفاظ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به، منقلة له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه».

وهاك الآن منزعه في الترجمة والنقل، وما ينبغي لهما من البلاغة، وما السبيل إليها: «وقال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: إن الترجمان لا يؤدي أبدًا ما قال الحكيم على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريّ[2]، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها، على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه؛ فمتى كان -رحمه الله تعالى- ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس، ومتى كان خالد مثل أفلاطون. ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة؛ وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول

---

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما: حاذق في الصنعة من قوم صنعى الأيدي بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة وأصناع الأيدي.

(٢) الجري: الوكيل، للواحد والجمع والمؤنث، والرسول والأجير والضامن.

إليها، حتى يكون فيها سواءً وغاية؛ ومتى وجدناه أيضًا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها؛ وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد مترجمًا يفي بواحد من هؤلاء العلماء. هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل؟».

وما عجب أبو عثمان من رجل عرف لغتين، فكان إمامًا في البلاغة، غير موسى بن سيار الأسواري، قال: إنه كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته العربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها.

وقال في معنى الترجمة ومسخها بلاغة الشعر المنقول، وكيف يُحيل النقل المباني والمعاني: «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب. والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حُوّل تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب منه، وصار كالكلام المنثور؛ والكلام المنثور المبتدأُ على ذلك أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر. وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حِكم اليونان، وحوّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنًا، وبعضها

ما انتقص شيئًا، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئًا لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم. وقد نقلت هذه الكتب من أُمة إلى أُمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها».

إنا إذا تأملنا قول الجاحظ في النقل، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة، لينقل فيجيد من لغة إلى لغة ثانية، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أحدث الآراء في عصرنا، وكأنك إذا تدبرت ما قاله في هذا المعنى، تقرأُ رأيًا لرجل أنفق عمره في الترجمة والنقل، ولا تبعد كثيرًا عن محجة الصواب إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أخرى في الأحايين. والأرجح أن هذه اللغة هي الفارسية، وفي ذلك إشارات في البيان والتبيين، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار ببلاغته في اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس، وصعب أن يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين، ومن لم يكن جهبذًا في البلاغة وما يقتضي لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين.

جدله ونقده:

لا يرى الجاحظ، صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح، طريق النجاة للناس، إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو، وكان أبدًا حربًا على من خالفوا الدين، وحربًا على الملحدين والكافرين. أنحى على الشيع التي انفصلت من الإسلام، وعبثت بشيء من فروعه، فردَّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم، وجادل اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالتي هي أحسن. وأهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين، والطعن على من

حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا في ملتهم من امتلوا ملة الإسلام[1]؛ مثل رده على من ألحد في كتاب الله، ورده الذي عنن له [2] «بصيرة غنام المرتد» وغير ذلك.

كتب الجاحظ كل هذا، وبعض المتنطسين من الحشوية، أو المتنطعين في الدين والمتنمسين[3] فيه، يعدونه مقصرًا ويطلقون ألسنتهم فيما كتب، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة، وقاموا في عصره وبعده يكذبون عليه، ومنهم من بلغت به القحة أن يخرجه من الدين، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية، ومن الغريب أن أولئك الغُيَّر على الإسلام لم تحدثهم أنفسهم أن يكتبوا فصلًا واحدًا في دفع أعدائه؛ وراحوا، ورأس مالهم الباطل، يعترضون من دون حياء على من كان في مثل قوة الجاحظ في تصديه لرد شبه المخالفين. أما أرباب العقول المستنيرة، المنزهون عن الأغراض في الحكم على الجاحظ، فقد كان يعيدون ظهوره في ذاك العصر، عصر تسرب الشبهات والمجاذبات الدينية، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين.

وأغرب من هذا دعوي بعض أصحاب الجرح والتعديل أن الجاحظ كان إذا روي حجج من يجادلهم من النصاري أوردها برمتها، وقصر عمد في أقوالهم، تاركًا بعض النواحي الضعيفة في جوابه، وهو يرمي بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن ينصف الخصم فيضع أمام الأنظار حججه، ثم ينقدها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب، وقد يسخر ممن ينقده ويتهكم به، وبمن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب. ورسالته في الرد على النصارى تنادي بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه،

(١) الملة بالكسر: الشريعة أو الدين. وتملل وامتل: دخل فيها.

(٢) عنّ الكتاب وعننه وعنونه وعناه: كتب عنوانه.

(٣) تنطس في الكلام: تأنق فيه، وتنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق. التنميس: التلبيس والاحتيال.

وما كان لمؤلف أن يضع تأليفه ليرضي به حتى المتعنتين، ومراض العقول وأصحاب الأهواء. ولولا أن الجاحظ كان الحجة الثبت في هذا الموضوع بين علماء عصره، ما حثه الفتح بن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى. «وهَمُّكَ من رجل، وناهيك من عالم، وشرعك[1] من صدوق» إن جادل أفحم، وإن ألف كان الأعلم والأحكم.

أجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله: «وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية، كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمت عليَّ بالنَّصْب لحكايتي، فهلا حكمت عليَّ بالتشيع لحكايتي، وهلا كنت عندكَ من الغالية لحكايتي حجج الغاية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة. وقد حكينا في كتابنا قول الأباضية والصُّفرية، كما حكينا قول الأزارقة والزيدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بنت الخارجية وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة، واشتقاق منها ومحمول عليها، وإلا كنا عندك من الخارجية، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة، فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة إلى أعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع، وأتم وأجود، وعبتني بكتاب العباسية، فهلا عبتني بحكاية مقالة من أبى وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدًى بلا قيم أردّ عليهم، وهملًا بلا راع أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل».

---

(١) يقال مررت برجل شرعك من رجل: أي حسبك، يستوي فيه الواحد والجميع، ومثله: وهـذا رجل همك من رجل وهمتك من رجل: حسبك.

وفي كتابه حجج النبوة: «والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار، وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار، وبالأخبار يعرف الناس النبي من المتنبي، والصادق من الكاذب، وبها يعرفون الشريعة من السنة، والفريضة من النافلة، والحظر من الإباحة، والاجتماع من الفرقة، والشذوذ من الاستفاضة، والرد من المعارضة، والنار من الجنة، وعامة المفسدة والمصلحة».

وقال: «إن كل منطيق محجوج، والحجة حجتان: عيان ظاهر، وخبر قاهر. فإذا تكلمنا في العيان وما يفرغ منه، فلا بد من التعارف في أصله والتعارف في فرعه، فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل، والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر. والعقل نوع واحد، والدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، والآخر مجيء خبر يدل على صدق».

كان الجاحظ محيطا بما يجول في قلوب أولئك الناقدين الناقمين، يعرف أنهم يبغون له العثرة، ويقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم، لوقوفه على نياتهم، ومثل هاته الطبقة كان على الأغلب يهزأ بها ويرحمها. وليس بعد الجهل ذنب، كما قيل: ليس بعد الكفر ذنب. وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله ويحسدونه حسد لؤم وغباوة، بقوله: «إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام، وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاحته[1]، وأكثر ما يكون هذا منهم، إذا كان الكتاب مؤلفًا لملك

(١) نصح: خلص.



معه القدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترهيب والترغيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة[١]؛ فإن أمكنتهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له، فهو الذي قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريرًا نقابًا ونقريسًا[٢] بليغًا، وحاذقًا فطنًا، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابًا وأهدوه إلى ملك آخر، ومَتوا[٣] إليه به، وهم قد ذموه وثلبوه، لما رأوه منسوبًا إليَّ وموسومًا بي. وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله على من تقدمني عصره، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيرونه إمامًا يقتدون به ويتدارسونه بينهم، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس، فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه؛ لأنه لم يترجم باسمي، ولم ينسب إلى تأليفي».

هكذا سبر الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه، وضحك وأضحك من لؤمهم وغبائهم، وأبت نفسه أن يجاورهم، وهو جدّ عارف بقدر ما يكتب، وبما يرمي إليه من المقاصد في وضع أسفاره. ولطالما وطَّن نفسه على استماع سخف السخفاء في أحكامهم المتجانفة[٤] عن الحق، قال: «لأن كل من التقط كتابًا جامعًا،

---

(١) المغتلمة من الإبل: التي غلبت عليها شهوة الضراب.

(٢) النقاب بكسر النون: الرجل العلامة، أو النافذ في الأمور كما في الأساس، والنقريس بكسر النون أيضًا: الطبيب الماهر النظار المدقق كالنقرس.

(٣) مت إليه بحرمة متًّا: توسل بقرابة أو دالة.

(٤) تجانف: مال.

وبابًا من أمهات العلم مجموعًا، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غُرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة». وبديهي أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه إلا أن ينقطع عن التأليف ليساويهم في قصورهم، ولذلك من الطبيعي أن لا يناقشهم لأنهم طلقوا المنطق في حواره، وأبهموا وما أبانوا في وجوه اعتراضهم على أفكاره، والكلام المجمل يحتاج إلى تفصيل، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق، وهو في غنية عن أن يعرض لكلام من قتلهم الحسد.

على أنه عرض في الحيوان لأولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله: «ولولا سوءُ ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان، ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم، وتوفيق نفوسهم، وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد هذا الكتاب، إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأن الذي أُفيدهم إياه أستفيده منهم، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم، رغبة من رغب في دنياهم».

وقال في غرض كتاب آخر: «وقد جمعنا في هذا الكتاب جملًا التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار، ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيد والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره. كلّا والذي حرَّم التزيد[1] على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء،

(١) التزيد في الحديث: الكذب.

وبهرج[١] الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضلَّ سعيه». وما أحلى هذا القسم وما أجمل مغزاه.

ولما كان المعتزلة يتشددون في الحديث وتأويله وروايته، ويردون كثيرًا مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية، أبت نفس الجاحظ بالضرورة أن يكون في الحديث حاطب[٢] ليل، فما كان من الأحاديث مرضي الإسناد الصحيح المخرج قَبِله، وما كان مسخوط[٣] الإسناد فاسد المخرج نبذه. وكان الشهاب الزهري يقول عن الحديث وروايته: يخرج الحديث من عندنا شبرًا، ويعود في العراق ذراعًا. وكان مالك بن أنس يقول: إذا جاوز الحديث الحرَّتين ضعفت شجاعته. وكان يسمي الكوفة دار الضرب؛ لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود. وكان أحمد بن حنبل يشك في التفسير ويقول: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي.

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه، وفهم (تأويل الأحاديث، وأي ضرب يكون مردودًا، وأي ضرب منها يكون متأوّلًا، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل). وقال: «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون».

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على أحد من أهل الملل والنحل، وما جوّز التقول على من يخالفه أيًا كان وكانت نحلته، (ولم يذكر محاسن

(١) البهرجة: أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها.

(٢) حاطب ليل: مخلّط في كلامه.

(٣) المسخوط: المكروه.

الخوارج، ولم يخبر عن مآثرهم لأنه يتولاهم[1]، ولا لأنه يميل إليهم، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به، أحسن اقتصادًا من الرافضة، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم، وجرأة الرافضة على الكذب على أعدائهم، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم، ووصف أصحابهم بالنسك والفضل، ثم خبر عن شعر عمران بن حِطان وحبيب بن خُدرة وأشباههما من شعراء الخوارج). قال الخياط: «وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ، وأنه لم يتزيد على الرافضة حرفًا واحدًا، وقال: إن الجاحظ بيَّن في كتاب فضيلة المعتزلة أن الرافضة يقتطعون آل أبي طالب عن العلم والعمل جميعًا، ويوهمونهم أن المعاصي لا تضرهم، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع، وأنه لم يسلم جلة أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من شتمهم وعداوتهم، ولم يسلم من تولوه من آل علي من تثبيطهم عن العلم، وتزهيدهم في العمل الصالح المقرّب لهم إلى الله، فلم ينج منهم ولي ولا عدو». ومن أجل هذا قال المسعودي في كتب الجاحظ: إنها حسنة (إن لم تدع إلى نَصْب)؛ وأهل النصب هم المتدينون ببغضة علي بن أبي طالب فإنهم نصبوا له؛ أي عادوه ومنهم الخوارج. والمعتزلة يختلفون في أمير المؤمنين عثمان بعد الأحداث التي أحدثها، وأكثرهم تولاه وتأول له؛ ومعظمهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما، ولا نعرف السر في انحرافهم عن بني أمية، مع أن المعتزلة كانوا معتدلين في الحكم على عليٍّ بن أبي طالب، يعطونه حقه من دون زيادة، ومعاوية وآله وأنصاره جمعوا شمل الإسلام. ولا نعتقد مع هذا أن رسالة النابتة التي نسبت إليه وفيها إقذاع بالأمويين هي من تأليفه، كما لا نعتقد أن كتاب التاج وكتاب الأخلاق هما له أيضًا.

---

(١) تولاه: اتخذه وليًا.

يقول شيخنا طاهر الجزائري: إن الجاحظ قد يسلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصرييه من أبناء نحلته كأبي جعفر الإسكافي. وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه، وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان. ونقل ابن أبي الحديد أن الجاحظ أَلَّف كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر ما يشعر بالنصب، لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم، فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافي فنقض كتابه، وأطلق لسانه في الجاحظ؛ ومن ذلك قوله: القول ممكن، والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ... قوله لغو ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو؛ يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده. قال قاضي القضاة عبد الجبار في طبقات المعتزلة: نقض الإسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته، فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال: من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقد كتابي؟ وأبو جعفر جالس، فاختفى منه حتى لم يره. وكان أبو جعفر علويَّ الرأي محققًا منصفًا، قليل العصبية، ألف سبعين كتابًا في علم الكلام. اهـ.

وقول أستاذنا: إن الجاحظ قد يعمد إلى التمويه، وتمويهه تمويه العاقل، كلام يحتاج إلى شرح قليل. فإن الجاحظ قد ينقل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من أميري المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان، فنسب إلى معاوية في رسالته القيان ما يقدح في عدالته، وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمتهتك، ولم يجرؤ خصومه أن يتهموه بشيء من ذلك. وغريب من أبي عثمان إطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتى في مقارعة أعدائه. ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما أعجبه نسكهم وامتناعهم عن الكذب على من خالفهم، وإن لم يقل بقولهم في إكفار من رضي بالتحكيم، وحط من الرافضة لما رآهم يضعون ما لا يحل

من الكذب على الرسول وعلى مخالفيهم، وأصلاهم نارًا من نقده لما وضعوا آل علي في منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته، فقالوا بعصمتهم وأن المعاصي لا تضرهم.

ومن هذا الضرب إشارته إلى ما وقع بين أحمد بن حنبل والمعتصم في مسألة خلق القرآن. قال الجاحظ: وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس كشف المتهم من التجسس، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار، ولو كان كل كشف هتكًا، وكل امتحان تجسسًا، لكان القاضي أهتك الناس لستر، وأشد الناس كشفًا لعورة، والذين خالفوا في العرش، إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجسامًا وأجرامًا غلاظًا، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كانوا قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق، فبين المذهبين أبين الفرق. وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين إعذارًا وإنذارًا: امتحنتني وأنت تعرف ما في المحنة وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة. قال المعتصم: أخطأت بل كذبت. وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك، ولو لم يَخَفْك على الإسلام ما عرض لك، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف، ولا من طريق كشف العورة، إذ كانت حالك هذه الحال، وسبيلك هذه السبيل. وقيل للمعتصم في ذلك المجلس: ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه، فينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم؟ فأبى أن يقبل ذلك وأنكره، إلى آخر ما ذكر.

مذهب الجاحظ في الدين كمذهبه في العلم، مذهب العقل وصدق الحس لا يُحكّمُ غيرهما، ولا يحْكُمُ بسواهما. لا جرم أن اختلاف أهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيرًا، والمسائل المختلف فيها لا تعبث بأصل من أصول الدين، فمن قال مثلًا بأن الله يُرى في الآخرة له أدلته من الكتاب، ومن قال بأن الله لا يُرى تأول بعض الآيات لإثبات قضيته، ومن قال: إن الفاسق يخلد في النار أو لا يخلد، فلا يتعلق على كلامه كبير أمر في الدين. يقول ابن حزم: «إن أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسي، ثم أصحاب ضرار بن عمرو، وأبعدهم أصحاب أبي هذيل».

ومن ثبتت له كالجاحظ كل هذه الحسنات في الدفاع عن الدين، لا يضيره إذا رأى رأي غيره في مسائل طفيفة. والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون في كل الأمور. فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف أحد أساتذته في بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم، ولا عُدّ عمله من سوء الأدب. وإذا أدركنا أن معظم ما كتبه في الدين قد فُقد نتخيل مبلغ سعة الدعاية التي دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة. يقول ابن أبي الحديد: إن المرتضى لما راى الجاحظ وافق غرضه مرة استجاد قوله فكناه، مع أنه ما كناه أصلًا قال: «فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم».

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فينفي عن النصارى لما جاء يحاجهم معرفة الفلسفة، ويقول: ليس لهم «إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون[1]. وكُتب المنطق والكون والفساد، وكتاب العُلوي والمجسطي والهدسة والطب ليست للنصارى، بل هي لأرسطاطاليس وبطليموس وأقليدس وجالينوس وديمقراط وابقراط وغيرهم». «هؤلاء الناس من أُمة قد بادوا وبقيت

(١) البزيون: السندس.

عقولهم، وهم اليونان؛ ودينهم غير دينهم، وادبهم غير أدبهم: أولئك علماء وهؤلاء صناع؛ أخذوا كتبهم لقرب الجوار، وتداني الدار، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم؛ ومنها ما حولوه إلى ملتهم». وقال: «إن أكثر من قتل من الزنادقة -ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره- هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك». قال: «ومما عظَّم النصارى في قلوب العوام، وحبّبهم إلى الطّغام، أن منهم كُتَّاب السلاطين، وفراش الملوك، وأطباء الأشراف، والعطارين والصيارفة. ولا تجد اليهودي إلا صباغًا أو دباغًا أو حجامًا أو قصابًا أو شعابًا[1]».

وذكر أن المسلمين يبجلون النصارى أكثر من اليهود؛ لأن النصرانية كانت فاشية في العرب وعليها غالبة، إلا مُضَر، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفشُ فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم، نزلوا الحيرة يسمون العبَّاد، فإنهم كانوا نصارى وهم مغمورون[2] مع نبذ[3] يسير في بعض القبائل، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام، وغلبت النصارى على ملوك العرب وقبائلها: على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعة وطيء في قبائل كثيرة وأحياء معروفة، ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على ثعلب وعبد القيس وأفناء[4] بكر ثم في آل ذي جَدَن[5] خاصة. وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة، إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب وحِمْيَر وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب، فعطف قلوب دهماء العرب على

(١) الشعاب: الملئم وحرفته الشعابة.

(٢) المغمور: الخامل.

(٣) النبذ: الشيء القليل اليسير.

(٤) الفنأ محركة: الكثرة، وبالسكون: الجماعة.

(٥) قيل من أقبال حمير.

النصاري، المُلْكُ الذي كان فيهم، والقرابة التي كانت لهم، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكًا قائمًا، وأن فيهم عربًا كثيرة، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الإسلام، وأن في النصاري متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء، ولم يروا ذلك في اليهود.

وقال في وصف حال الفلسفة عند اليهود: «إنهم يرون أن النظر في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وأنه مجلبة لكل شبهة، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة، والخروج إلى الدهرية، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة، حتى إنهم ليهرجون المشهور بذلك، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك».

وقال في علاقة المسلمين بالنصارى: «على أن هذه الأمة لم تبتلِ باليهود ولا المجوس ولا الصابئين، كما ابتليت بالنصارى، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف الإسناد من رواياتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما تبرءوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشْغَبون على القوى، ويُلَبّسون على الضعيف، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد».

وتفسير هذا أن الجاحظ عُني بالرد على من نال من الإسلام، فلم يتخل حتى عن الكتابيين، وأحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين، واعترف بأن من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول العوام من المسلمين، وقال: إن النصارى ليسوا أهل حكمة، وإن الحكمة خاصة باليونان، وإنما النصارى أهل صناعات وقع إلى بلادهم شيء من علوم اليونانيين، واليونان مخالفون للنصارى في

دينهم وتاريخهم وأدبهم، واليهود لا يعرفون شيئًا غير التوراة، وينبذون ما عداها من العلوم، وصناعاتهم حقيرة، وصناعات النصارى شريفة، وإنه ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية إلا الصلات الكثيرة التي تأصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولأن فيهم ملكًا قائمًا.

كثر الزنادقة في عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلًا: «أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع، وأن إصلاح الناس في إقامة جزاء الحسنة والسيئة، ولكم في القصاص حياة، والقَوَد حياة؛ وهذا شيء تعمل به الأمم كلها غير الزنادقة، والزنادقة لم تكن قط أُمة، ولا كان لها مُلك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق».

وأجاب من قال له: إن الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق النقي الأبيض، والحبر الأسود واستجادة الخط: «إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم، وكتب فلسفة، وكتب مقاييس، وسنن نبيين وتبيين، أو لو كانت كتبهم كتبًا تعرف الناس أبواب الصناعات، أو سبل الكسب والتجارات، أو كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب؛ وإن كان ذلك لا يقرب من غنًى ولا يبعد من مأثم؛ لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان، والرغبة في التبيين، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة، فإنما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب، وكإنفاق الهند على سَدَنة البددة[1]... والذي يدل على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر

(١) البد: الصنم معرب بت (ج) بددة وأبداد بيت الصنم، والسدنة واحدها سادن وهو خادم الصنم، وأطلق في الإسلام على خادم الكعبة.

طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا منازعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة، وجلُّ ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت... لا ترى فيها موعظة حسنة، ولا حديثًا مونقًا، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة، فأي كتاب أجهل، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطالة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون إلا دينًا أو دنيا... وكل دين يكون أظهر فسادًا احتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له، والتغليظ فيه، إلى أكثر، وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشارًا من اليهودية تعبدًا، فعلى حسب ذلك يكون تريدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعليمه».

وقال فيهم وفيمن يحب مشاكلتهم: «وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء، وأنهم عقلاء وأدباء، وأنهم عباد، وأصحاب اجتهاد، وأن لهم البصائر في دينهم، والبذل لمهجهم، وأن هناك علمًا وتمييزًا، وإنصافًا وتحصيلًا، فينزو نحوهم نزو المُهر الأرن[1]، ويحن إليهم حنين الواله العجول، ويتصبى فيهم صبابة العاشق المتيم، ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق».

وقال في نعت الدهريين: «فإن الذي ينفي الرب، ويحيل الأمر والنهي، وينكر جواز الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويجحد الثواب والعقاب، ولا يعرف الحلال والحرام، ولا يقرُّ بأن في جميع العالم برهانًا يدل على صانع ومصنوع، وخالق ومخلوق، ويجعل الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين

(١) الأرن: الهائج، وينزو: يثب.

المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادة في حركته ولا النقصان من دورانه، ولا معاقبة للسكون بالحركة، ولا الوقوف طرفة عين، ولا الانحراف عن الجهة، هو الذي يكون به جميع الإبرام والنقض، ودقيق الأمور وجليها، وهذه الحكم العجيبة والتدابير المتقنة، والتآليف البديعة، والتركيب الحكيم، على حساب معلوم، ونسق معروف على غاية من حقائق الحكمة، وإحكام الصنعة. لأن الدهري ليس يرى أن في الأرض دينًا أو نحلة أو شريعة أو ملة، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه، ولا يتوقع العقاب على الإساءة، ولا يتوخى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده والحق في حكمه، أنه والبهيمة سيان، وأنه والسبع سيان، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه، وإن مدار الأمر على الإخفاق والدَّرْك، وعلى اللذة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإن قَتَل ألف إنسان صالح لمنالة[1] الدرهم الرديء...».

وقال في المنانية أصحاب ماني: «إن أناسًا حين جهلوا الأسباب والمعاني، وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن فرش، وأُعدَّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعدَّ فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع في موضعه وأعد لشأنه، وهو جاهل بالمعنى فيه، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها.

(١) النال والمنال والمنالة: مصدر نلت أنال.

فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة، وأنهم لما غبيت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته، وصواب هيئته، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه، فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والإحالة، كالذي أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة، وأشباههم من أهل الضلال، فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته، ووفقه لتأمل هذه الخليقة، والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير، وصواب التقدير، بالدلائل القائمة فيها، أن لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك، بل يجهد في نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان، لتقوى دواعي الإيمان، وتخيب مكيدة الشيطان».

هذه نموذجات من أساليب الرد على من خالفوا الإسلام ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد، فيتأذى الإسلام بدعوتهم، وتسري في أذهان العوام. وقال في المجوسية: ولم تر قط ذا دين تحول إلى المجوسية عن دينه، ولم يكن ذلك المذهب إلا في ضعفة من أهل فارس والجبال، وخراسان كلها فارسية فإن عجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآبائه وأحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته، فإني أقول في ذلك قولًا لا يعرف به أنني ليس إلى العصبية ذهبت.

رأى أبو عثمان إنزال العقوبات في العابثين بالأديان فقال: «من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء، وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه؛ وقد قالوا: بعض القتل إحياء للجميع، وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، ولا خير فيمن كان خيره

محضًا، وشرٌّ منه من كان شره صرفًا، ولكن أخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يهابون ويصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه؛ فخير الخير ما كان ممزوجًا، وشر الشر ما كان صرفًا. ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده، لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار، وفي جميع الأعصار، على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره؛ وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد لك الشر خيرًا، وذلك المنع إعطاء، وذلك المكروه محبوبًا».

وراعني سمعك في تلاوة الجملة الآتية يرد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله، وكيف حاجه فأحسن حجاجه، ودله على قصور علمه وضعف منطقه، قال: «وكان شيخ من البصريين يقول: إن الله إنما جعل نبيه أُميًّا لا يكتب، ولا يحسب ولا ينسب، ولا يقرض الشعر، ولا يتكلف الخطابة، ولا يتعمد البلاغة، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر، وعيافة الطير، ومن العلم بالأنواء وبالخيل، وبالأنساب والأخبار، وتكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء القرآن الكريم، وتكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على أنه من الله، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم، ليكون أنقص حظًّا من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب الناسب ولكن ليجعله نبيًّا، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى؛ فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير».

قال الجاحظ: «وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة، وأداة قرض الشعر وجميع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، ولو كان في ظاهره، والمعروف من شأنه، أنه كاتب حاسب، وشاعر ناسب، ومتفرس قائف، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة، لما كان ذلك مانعًا من وجوب تصديقه، ولزوم طاعته، والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم، ومكروههم ومحبوبهم، ولكنه أراد أن لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا إليه، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف في المؤنة، وأسهل في المحنة؛ فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته، صار لسانه لا ينطق به، والعادة توأم الطبيعة، فأما في غير ذلك، فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، وكانت آلته أوفر، وأداته أكمل، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد، وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فَرْقٌ».

قال: «ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط، بل لم يره إلا وهو وإن طال الكلام قصر عنه كل مطيل، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر، فكيف ذهب ذلك المذهب، والظاهر من أمره عليه السلام غير ما توهم».

ويخيل إلى من يتدبر هذا الكلام أنه لم يفهم من أُمية الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما أدركه الجاحظ من هذه الصفة الشريفة في النبي خاصة، وإذا فهمه فيستحيل عليه أن يكتب فكره بهذا البيان.

انظر إليه ينتقد على السلف في تقصيرهم في سيرة الرسول، يقول: «إن السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقًا في الصدور، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقًا غير محظور، والذين حِصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان، لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه وسم وبرهانه ودلائله وآياته، وصنوف بدائعه، وأنواع عجائبه، في مقامه وظعنه، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير، الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل، لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد، ولا دهري معاند، ولا متظرف ماجن، ولا ضعيف مخدوع، ولا حدث مغرور، ولكان مشهورًا في عوامنا كشهرته في خواصنا، ولكان استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم، ولما وجد الملحد موضع طمع في غبي يستميله وفي حدث يموه له، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج الواضح». اهـ.

كان الجاحظ على سعة صدره، وطول أَناته، لا يغتفر التخليط لأي كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه، يناقشهم ويحاسبهم، خصوصًا إذا قصروا في الكلام وادعوا ما ليس فيهم، وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه؛ فقد رأيناه آنفًا ينحي إنحاء شديدًا على الخليل بن أحمد وعلى عبد الله بن المقفع، لأنهما كتبا في الكلام أمورًا عدها جرأة على العلم، ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم

يجب أن لا يدعي غيرهما، ويحجم عن مقامات العلوم الأخرى، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم، فالخليل بن أحمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى في فنه لا يتعداه، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه، وهو ما هو في البلاغة والحكمة واختراع المعاني، أن لا يتعدى ذلك إلى البحث في الكلام ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعديا اختصاصهما في العلم، ونقدهما بشدة لم يشفع فيهما ذكاؤهما النادر، وجهة إخصائهما في الفنون الأخرى. قال في كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر أن الخليل بن أحمد واضع علم العروض: فلما أحكمه وبلغ منه ما بلغ أخذ في تفسير اللحون فاستدرك منه شيئًا ورسم له رسمًا احتذى عليه من خلفه، واستعمله من عنى به، وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي أول من حذا حذوه وامتثل هديه، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله. وقال في الموصلي: إنه ألف في الغناء كتبًا معجبة (وسهل له فيها ما كان مستصعبًا على غيره، فصنع الغناء بعلم فاضل، وحذق راجح، ووزن صحيح).

مقاتل المرء تبدو متى عالج عملًا ليس منه بسبيل؛ فقد كتب المسعودي في سنان بن ثابت الحراني لما وضع كتابًا في الأخلاق يقول: «إنه انتحل ما ليس من صناعته، واستنتج ما ليس من طريقته، وهو وإن أحسن فيه، ولم يخرجه عن معانيه، فإنه عيب لأنه خرج عن صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته، ولو أقبل على علمه الذي انفرد به من أنواع الفلسفة، لكان قد سلم مما تكلفه، وأتى بما هو أليق بصنعته، ولكن العارف بقدره معوز، والعالم بمواضع الخلة مفقود».

كل هذا يعالجه الجاحظ في نطاق الإنصاف والأدب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم. ومن أقواله: وإن امرًا اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان، على اختلاف أهوائهم وبغيتهم لكل ما ورد عليهم؛

فإن قال قائل: هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره، وتطعن فيه وترى تغييره؛ قلنا: إن الروافض ليست منا بسبيل، لأن من كان أذانه غير أذاننا، وصلاته غير صلاتنا، وطلاقه غير طلاقنا، وعتقه غير عتقنا، وحجه غير حجنا، وفقهاؤه غير فقهائنا، وإمامه غير إمامنا، وقراءته غير قراءتنا، وحلاله غير حلالنا، وحرامه غير حرامنا، فلا نحن منه ولا هو منا.

فنه:

سئل الجاحظ مرة: ما تأويل هذه الآية {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}؟ فقال: تأويلها تلاوتها. ونحن إذا سألنا ما هي الصنعة أو التثقيف أو الفن في كلام الجاحظ؟ نقول: تدبروا كلامه تدركوا مبلغه من الصنعة. وإذا كان لا بد من تحليل صنعته نقول: كان اتساع أبي عثمان في اللغة لا يشبه اتساع اللغويين، استبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح في الأدب، وطوائف تصلح في الزراعة وأخرى للصناعات وأعمال الحياة، وغيرها للدينيات ومطالب العقبى، عدا ما خص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لكل شأن. كان جدّ عارف بما يختار ويطرح، يقدر اللفظة بجرسها ورنتها، وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها، ويميز الثقيلة والخفيفة، والمأنوسة من الوحشية، فيختار ما يؤدي جملته حق الأداء؛ فإبداعه في فنه يرجع أولًا إلى ما يختار من الألفاظ. كان نحاتًا وبناءً في آن واحد: يجوّد نحت أحجاره، ويحسن رصفها في البناء، والمهارة كل المهارة في إبراز المتماثل من المواد إلى جانب ما يوائمها، وقد يتسجيد الباني أجمل الأحجار لبنائه، فإذا لم يحسن الهندسة فقد البناء روعته المشعرة بأن الباني عليم بالجمال. يقول العسكري: «إن المعاني مشتركة بين العقلاء، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي، وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها».

أعظم ما تدور حوله صنعة الجاحظ إذًا لباقة في تصديه من بحر اللغة المتلاطمة أمواجه في صدره. هو لم يستعمل إلا ما عذب في المذاق، وحلي في السمع، وما تحذلق قط فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعاني، وما عمد إلى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعاني، وهواه أبدًا أن يتخير الفاظا لمعانيه، لا معاني لألفاظه. يسير مع الطبع، ولا يتكلف السجع، ويكتفي منه بما جاء عفوًا في الأحايين، متجافيًا عن خشونة التعمل، ووعوثة[1] التعقيد، وآية صنعته ولوعه بتصوير المعاني، وتقريبها من الأذهان ليخرج التالي بشيء يبقى في نفسه. إذا عرفنا كل هذا كشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه في إبداعه وفنه.

وقد أفصح عن صنعته بقوله: «ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال[2]، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلًا[3]، وشق عليه النزوع[4]، واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظًا بعينها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يود أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلًا فقيرًا وحائفًا سروقًا، ولا يكون إلا مستكرهًا لألفاظه، متكلفًا لمعانيه، مضطرب التأليف، متقطع النظام، فإذا مر كلامه بنُقاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله، وبهرجوا علمه. ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو في الظرف أسمج، وفي البلاغة أقبح، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه، مسرودة في نفسه، ولم تكن مخلدة في كتبه، وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه». ومعنى قوله هذا أن خير

(١) وعث الطريق، كسمع وكرم: تعسر سلوكه، والوعث: المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام، والطريق العسر.

(٢) الوكال: هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالًا: إذا اتكل بعضهم على بعض.

(٣) الطول والطائل والطائلة: الفضل والقدرة والغنى والسعة.

(٤) النزوع: التشبه.

الكتَّاب، من لم يستظهر ألفاظًا بعينها، ليكرهها على الاندماج في تراكيبه، ومن لا يستعمل من الألفاظ إلا السهل، حتى يحوز رضا النقاد، وأن يجعل تصفحه لدواوين المعاني لا لدواوين الألفاظ (وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى) عشقًا للفظ الذي يريد إقحامه. ولعل السبب في أنه لم يأت من اللغويين كُتَّاب عظماء كونهم حصروا أذهانهم في الألفاظ، وما عبئوا بمواطن الاستعمال، ملئوا حافظتهم بالجيد والرديء، وعدوه كله من الجيد، لأنه كان من محفوظهم، فإذا جاءوا ينشئون استعملوا كل ما وجدوا أمامهم أو ذكروه، فقصروا في البيان، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغاء.

وفي نظره «ليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة[1] والحشوة، ويحوطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام، وليس له أن يهذبه جدًّا، وينقحه ويصفيه ويروّقه، حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذَفَ فضوله، وتعرَّفه وأسقط زوائده، حتى عاد خالصًا لا شَوْب فيه، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه، إلا بأن يُجِدَّ لهم إفهامًا، مرارًا وتكرارًا، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم، إلا أن يعكس عليها ويؤخذ بها».

فالطريقة عنده إذًا ألا يكثر المنشئ من التصفية والترويق في الألفاظ، ولا يرسل كلامه في الناس مفتونًا بما جادت به قريحته بادئ الرأي. هو يريد التنقيح، ولكنه لا يوصي بالإكثار منه؛ لأن في التعمق الزلل. ولما كان على علم بأن (فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته) أوصى من يكتب كتابًا (أنْ لا يكتبه

---

(١) سفلة الناس (بكسر السين) وكفرِحة: أسافلهم وغوغاؤهم.

إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له)، قال أبو زيد البلخي ما أحسن ما قال الجاحظ: «عقل المنشئ مشغول، وعقل المتصفح فارغ». قال أبو عثمان: «ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلًا ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتب فتنة وعجبًا؛ فإذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فتوقف عند فصوله، توقف من يكون وزن طبعه في السلامة، أنقص من وزن خوفه من العيب». دل الكاتبَ بهذا على الوقت المناسب لإعادة النظر فيما كتب. أما هو فكان يحسن اختيار الزمن ليبرز كلامه في قوالبه المعهودة إحسانه اختيار موضوعه.

وقد حكى تلميذه المبرد عنه قال: رأيت الجاحظ يكتب شيئًا فتبسم؛ فقلت: ما يضحكك؟ قال: إذا لم يكن القرطاس صافيًا، والمداد ناميًا، والعلم مواتيًا، والقلب خاليًا، فلا عليك أن تكون غائبًا. وهذا الكلام لايصدر عن غير متفنن، ومن عيار الجاحظ؛ ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية؛ تبسم وتغازل وترقص وتغني.

قال الجاحظ: «وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده، إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط: فمنهم المغرق المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستورًا لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف، ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي، ومن إعادة النظر والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك».

وانظر إليه بعد هذا يصور لك كاتبًا (خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المنزلة من صناعته). ويقول: إن «صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة، لأنه ابتدأ الضرب وهو

ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة، فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب، وهو يريد مقدار سطرين ويكتب عشرة».

بهذا تمت مزية الجاحظ من الصنعة مقرونة إلى موهبة الفطرة المفطور عليها: لا يطيل كلامه ولا يختزله، ولا يرسله حالًا، يسيل سيلًا، بل ينظر فيه إذا خلا بنفسه، فيحذف فضوله، وإذا أضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعاني الصريحة، كان في ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة. انظره مثلًا في كلامه على الخصاء في الإنسان كيف يعبر في جملة قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة، ويقول في سهولة وتهكم: «وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجيب أنهم نصارى، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف»؛ فبهذا الإيجاز واللفظ المنتقى، صوَّر المعنى الذي يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة، وقال: إنهم المنفردون بين الأمم في ارتكاب هذه الكبيرة.

وشرح هذه العادة في الرد على الروم بقوله: «ومما يدل على قلة رحمتهم، وفساد قلوبهم، أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم؛ والخصاء أشد المُثلة، وأعظم ما ركبه الإنسان، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم، ولا نعرف قومًا يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرهما قليل وأقل قليل، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم، ولا كان سبب في ذلك غيرهم...».

لا جرم أن فن الجاحظ بحسن تصويره، لا يترك مجالًا لأن يدعي عليه القارئ أقل قصور، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة، وقد يبسطها أو يقبضها، ويصوّر الإشارة، وبالشاهد والواقع، حتى لا تخرج من كلامه إلا وقد وعيت أمورًا تخيل

إليك أنك سُحرت، لما عُمر به صدرك وقلبك بها أملى عليك. ومن أهم ما في الجاحظ من صنعة أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات، لا يأخذ منها إلا بقدر معلوم عند الحاجة، لأن صفاء ديباجته، ونصاعة معانيه، لا يحوجانه إلى الاستعانة بها يبرقش به جمله. والقوي في امتلاك ناصية الكلام في غُنية عن هذه التهاويل والزخرف[1]. والطلاء يَنْصُل، وإن حسُن في العين للنظرة الأولى، والعبرة بها تحته من التقاطيع والقسامة. وليس معنى هذا أنه أسقط الكناية والاستعارة والمجاز والتمثيل جملة، فإنها الأقطاب التي تدور البلاغة عليها كما قال عبد القاهر، وهي التي نوه بذكرها البلغاء، ورفع من أقدارها العلماء، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعًا من العلم مفردًا خصوصًا الاستعارة والمجاز. وخَصلة أخرى وهي أن الجاحظ ليس من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق، هو خليق أن يعد في جماعة المحسوسات أرباب الفلسفة الحسية، ولذلك كان تبريزه في النثر. أما شعره فلا يتعدى حد الحكاية، وتصوير حال وحَدَث، ولطالما تناشده وتذوقه.

للجاحظ فصول كثيرة تحله المحل الأرفع من الإبداع في تصويره، ومقامه في وصفه لا يقلُّ عن مقامه في الحكاية والرواية. انظر إلى حكاياته ورواياته في كتاب البخلاء، وأمعن النظر فقط في أقوال الكندي، وحيل من يستأجرون الدور وأخلاقهم وتلاعبهم، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة في شئون الحياة. وانظره في رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه، يدلي إليك بحججه في المدح، وحججه في الذم، ثم يحكي لك ولا يبالي أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من مَتْنهم بالشراب الذي إذا وقع في

---

(١) الزخرف بالضم: الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول حسنه بترقيش الكذب، ومن الأرض ألوان نباتها، والتهاويل: الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش والحلي.

الجوف حرَّك الدم، وإذا حرَّك الدم حرك طباع السرور، ثم لا يزال زائدًا في مكيال الدم، زائدًا في الحركة المولّدة للسرور. قال: «هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه». تأمل قوله: «جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه» فإن فيه صنعة، وينطوي على معانٍ كثيرة.

كتب رسالة النبيذ إلى صديقفه الحسن بن وهب، ومما قال في مدح النبيذ: إنه «إذا تمشى في عظامك، والتبس بأجزائك، ودب في جنانك، مَنَحك صدق الحس، وفراغ النفس، وجعلك رخي البال، خليَّ الذرع، قليل الشواغل قرير العين، واسع الصدر، فسيح الهم، حسن الظن، ثم سد عليك أبواب التهم، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم، وكفاك مؤونة الحراسة، وألم الشفقة، وخوف الحدثان، وذل الطمع، وكد الطلب، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة، وقاسم الشهوة، وأخل بالنعمة، وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان، ويرد الشبان في نشاط الصبيان، وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشر، ومجاوزة الأشر إلى البطر، ولو لم يكن من أياديه ومننه، ومن جميل آلائه ونعمه، إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك، وتزاوج بينه وبين دمك، فقد أعفاك من الجد ونصبه، وحبَّب إليك المزاح والفكاهة، وبغَّض إليك الاستقصاء والمحاولة، وأزال عنك تعقد الحشمة، وكد المروءة، وصار يومه جَمامًا لأيام الفكرة، وتسهيلًا لمعاودة الروية، لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر». وبالفن الذي حواه هذا الكلام حبب تعاطي النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه!

وأنت إذا نظرت إلى رسالته في القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن تكاد تبصره بعينك، وإذا عرض للقبيح ينفرك منه أي نفور. ألا تعجب منه إذا تنوت فيه أسطرًا قليلة في وصف حال المغنية في عصره، إذ يقول: «وكيف تسلم القَيْنة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق

بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها، بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخابيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يُسمع منه كلمة جِدّ، ولا يَرجع إلى فقه ولا دين، ولا صيانة مروءة، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدًا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر، إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق والغلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[1]، وإنشادهم مراودة، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكل واقف فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات، وبين من لا يحسنها التزيد فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه، ولو بغت العفة لم تقدر عليها. وإن ثبتت حجة أبي الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها».

ألست تتلمس في مفردات هذا الكلام ومركباته فن الجاحظ، تأمل قوله: «إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت»، وقوله: «تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة»، وقوله: «وكل واقف فإلى نقصان أقرب». ونحن إذا أكثرنا من إيراد الشواهد من أقوال أبي عثمان، فذلك لنخرج منها بدليل حسي نسقط به حجة خصومه في دعواهم أنه كان يقول الشيء ونقيضه، على أن هذا أيضًا ضرب

(١) التجميش كالجمش: المغازلة والملاعبة، والمطارحون: من يعلمون الغناء، يقال: طرحت عليه المسألة، وطارحته العلم والغناء وتطارحناه.

من البلاغة، وأسلوب من أساليب الصنعة، ولا يتيسر مثله لغير أفراد في البلغاء، فقد يوفّق الكاتب موضوعه عند نفسه، ويلوّنه للوصول إلى تعريفه ألوانا مُغْرية، ولكنه قد لا يُرضي غيره ولا يبلغ حاجته لأمور تنقصه.

استمع للجاحظ قطعة أخرى ينفض إليك فيها جملة حال النساك ويصنف لك طبقاتهم، ويصف لك الدواعي التي أهابت بهم إلى التنسك المصنع، فتركوا الكدح في الحياة، ورضوا أن يكونوا حَلمة طفيلية تمتص رزق غيرها، قال: «وجدنا لجميع أهل النقص، ولأهل كل صنف منهم نسكًا يعتمدون عليه في الأعمال، ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة، ويفزعون إليه على قدر فساد الطباع، وضعف الأصل، واضطراب الفرع، مع خبث المنشأ، وقلة التثبت والتوقف، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر، فنسكُ المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالريبة، ويتزين بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه، خوفًا من أن يكون قد فطن له، فهو يستر ذلك الداء برمي الناس به، ونسكُ الخارجي الذي يتحلى به ويتزيًّا بجماله، إظهار استعظام المعاصي، ثم لا يتلفت إلى مجاوزة المقدار، وإلى ظلم العباد، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين، وأن في الحق ما وسع الجميع، ونسكُ الخراساني أن يحج وينام على قفاه، ويفقد الرياسة، ويتهيأ للشهادة، ويبسط لسانه بالحسبة. وقد قالوا: إذا نَسَك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر، وتفسيره قريب واضح؛ ونسك الكوفي والجندي طرح الديوان وزيارة السلطان، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ، ونسك الخصي لزوم طرسوس وإظهار مجاهدة الروم، ونسك الرافضي ترك النبيذ، ونسك البستاني ترك سرقة الثمر، ونسك المغني الصلاة في الجماعة، وكثرة التسبيح والصلاة على النبي، ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته، والصوفي إظهار النسك بين المسلمين إذا كان فَسْلًا[1]

(١) الفسل: الرذل الذي لا مروءة له كالمفسول، (ج) أفسل وفسول.

ببعض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلًا، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له؛ وإذا كان النصراني فسلًا نذلًا مبغضًا للعمل ترهب ولبس الصوف، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيًّا بذلك الزي وتحلى بذلك اللباس، وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه، ثم لا يرضى بأن ربحَ الكفاية باطلًا حتى استطال بالمرتبة. فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حول ريبته إلى خصمه، وحول براءة خصمه إليه؛ وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد بلغ الأمنية ووقف على النهاية، فاحذر أن تكون منهم».

وزاد في مكان آخر ذاكرًا الدواعي التي دعت الخصيان إلى التنسك، فقال: «إن نسك الخصي غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه؛ وقال: إن نسك المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصي، وأن يرمي الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة، يريد أن يوهم أمورًا منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نَطِفًا[1] أو مرتابًا أو مجتنحًا[2] على بلية لما رمى الناس ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميهم إلا للعز الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم، أو التنبيه على ما عسى أن حركهم له أن يتحركوا، ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوبًا ممن يرمي خصومه بالكفر».

أرأيتم أبا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله: «فاحذر أن تكون منهم»؛ يأتي بها بعد أن وصف النساك ووصف سخفهم ومضرتهم، وبعد أن ثلبهم وأسقطهم حذَّر منهم. أسمعتموه يقول: «ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوبًا ممن يرمي

---

(١) النطف: المتهم بريبة والفاسد.

(٢) يجتنح عليه: يعتمد.

خصومه بالكفر». والمتكلمون هنا رجال الدين؛ ولِمَ لا يكره النساك ويدعو الناس إلى كراهتهم وهو الذي لا يقول بغير العمل في المجتمع البشري؟ ومن مذهبه أن البارئ تعالى منح عبده عقلًا وعرّفه طرق الخير والشر وهو مسئول عن عمله؛ ولعلك أدركت أيضًا أن خطاب الجاحظ في النسك كان موجهًا لكل من يقرأ كلامه عربيًّا كان أم أعجميًّا، مسلمًا كان أم كتابيًّا، موافقًا كان أم مخالفًا؛ لأن الكاتب كاره للنساك على هذاا لوجه مهما كانت صورتهم ونحلتهم، يعتقد المضارَّ التي يجلبونها على المجتمع الإنساني عامة؛ وكلام الجاحظ فيهم يُبقي في نفسك أثرًا إذا تدبرته، وهذا من صنعته وفنه، ويد صَناع كيده لا تجري في غير إبداع، فقد عقد فصلًا في الشعر يكثر ويقل في القبيل الواحد لدواعٍ وبواعث، لا لمكان الخصب من أرضهم، ولا لأنهم أهل مدر وأكالو تمر، وقد يكون غذاء بعضهم رديئًا ويأتي فيهم الشاعر (وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق مكانها)؛ وقد ختم كلامه بقوله: «وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحًا».

وكذلك تأمل صنعته في إبانته عن رأيه في عدم تغليظ حجاب النساء: «ثم لم يزل للملوك والأشراف إماءٌ يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن للناس.. ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنَّ وأشد ما يتزيَّن به، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب... والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك، فلو كان حرامًا وهي شابة لم يحل إذا غنت، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حدّ الغَيْرة، إلى سوء الخلق وضيق العطَن[1]، فصار عندهم كالحق الواجب»؛ تدبر قوله: ولكنه أفرط فيه... إلخ، فإن فيه صنعة، وكذلك قوله في كتاب النساء: ولسنا نقول، ولا يقول أحد ممن يعقل، أن النساء فوق الرجال، أو

(١) يقال: فلان واسع العطن: إذا كان رحب الذراع.

دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر، ولكننا رأينا أُناسًا يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن؛ وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام، إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن، ولولا أن ناسًا يفخرون بالجَلَد وقوة المُنَّة، وانصراف النفس عن حب النساء، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمَتِه وزوجته وولده دليلًا على الضعف، وبابًا من الخَوَر، لما تكلفنا كثيرًا مما شرطناه في هذا الكتاب؛ قال: ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر، فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم. انظر أيضًا هذه الجملة بل مجموع العبارة، ألا ترى فيه جنسًا من الكلام لا يحسنه كل إنسان؟

دع هذا واستمع إلى أبي عثمان يكتب في رسالته التبصر بالتجارة: «كل ثوب من اللباس والفرش، إذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع، وكل عِلق من الجواهر والأحجار، إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس، وكل حيوان من الوحشية والأهلية، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر، وكل إنسان من الشريف والوضيع، إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل، وكل امرأة حرة أو أَمة، إذا كانت أكثر سكونًا، وأجمل حالًا وأنزر طمعًا، وأشكر للناس فهي أصون، وكل طير من السهلية والجبلية، إذا كان آلف كان آثر، وكل طارف وتالد، إذا كان أزكى وأجلّ فهو أهنأُ، وكل عدو صغير أو كبير، إذا كان حميمًا فهو أعدى وأشد حسدًا، ومن لم يُعرف مأواه فمحذور قربه». تأمل هذه القوانين التي لا تتخلف، وأنعم النظر في قوله: «من لم يعرف مأواه فمحذور قربه». أمَا هو من شريف القول الذي يستسيغه كل أحد ويذهب في تأويله مذاهب؟ ثم تراه في هذا الفصل يعود فيقول: والدول تنتقل، والأرزاق مقسومة،

فأجملوا في الطلب، وارحموا المسكين، واعطفوا على الضعيف، تجازوا به وتثابوا، والقضاء جالب يجلب الأمور، وخير النوم ما يذهب الإعياء والكسل. ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس، جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنًا رائقًا، وبالخيشوم إذ كان طيبًا أرجًا، وبالمذاق إذ كان حلوًا عذبًا، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت، وباللمس أن يكون لينًا ناعمًا. وكانت العجم تقول: القلب والبصر شريكان، والطعم والحس متفقان، والفطنة والحفظ رفيقان، والسمع والمنطق مجتمعان.. وزعم سابور الملك أنه ليس ينبغي للعاقل أن يعتد بقول سبعة من الناس: بقول السكران والدَّلال والمضحك والعليل والعرَّاف والنمام والنساء.

الجاحظ متعة النفس في صنعته، كيف قلَّب براعته فكتب، وريحانة الأنس إذا وجد وهزل، تتجلى صنعته في وصفه وروايته وحكايته، وفي جداله وتقريره، وفي تحقيقه ونقله، وتطلُّ الأنفس على روحه من كل باب، وحيث تقلبتَ في رياض كلامه تشرف على ألوان الإحسان، ويأسر عقلك إذا طالت عشرتك له فتستسلم إليه مؤمنًا، وإن كنت من ضعاف الإيمان فيما يحاول سوقك إليه، واستتباعك فيه.

ونختم هذا بفصل صغير رسم فيه الجاحظ صورة أخرى من صور صنعته، في موضوع جد ألبسه صورة الهزل وهو في وصف الذباب ينال من قاضي البصرة، ووصفه في الحق «نهاية الفصاحة والاتساع». قال: «كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له: عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكمًا زميتًا[1] ركينًا ولا وقورًا حليمًا، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك. كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له

---

(١) الزميت: الوقور، وكالسكيت أوقر منه.

عضو، ولا يتلفت ولا يحلُّ حبوته، ولا يُحلُّ[١] رِجْلًا على أخرى، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني، أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى مجلسه، بل كثيرًا ما كان يكون ذلك، إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط[٢] والوثائق، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف. فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها. وكان مع ذلك لا يحرك يدًا ولا عضوًا، ولا يشير برأسه، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكثيرة.

فبينا هو كذلك ذات يوم (في مجلسه) وأصحابه حواليه، وفي السماطين بين[٣] يديه، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحول إلى موق عينه، فرام الصبر في سقوطه على الموق، وصبر على عضته، ونفاذ خرطومه، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرك أرنبته، أو يغضّن وجهه، أو يذب بإصبعه، فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان، كان قد آذاه فيه قبل ذلك، فكان احتماله أقل، وعجزه عن الصبر

---

(١) في رواية: ولا يحوِّل رِجْلًا عن رجل، والحبوة بالفتح والضم اسم من احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٢) في رواية: من قراءة السجلات.

(٣) في رواية: والسماط بين يديه، وسماط القوم بالكسر: صفهم.

عليه في الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد في شدة الحركة، وألحَّ في فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلحُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده، فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينه بيده ففعل، وعيون القوم ترمقه، وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بقدر ما رد يده، وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أُمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب، قال: وأستغفر الله، فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورًا، وقد علمتم أني -عند نفسي وعند الناس- من أرزن الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: {وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}؛ وكان بيِّن اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيبًا في أصحابه، وكان أَحد من لم يطعن عليه في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمنالة».

ولا ينقص هذه الصورة البديعة إلا أن يمسك الجاحظ بريشة المصوّر، ويعمد إلى أصباغه وليقته، ليصوّر القاضي بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه ولحيته وسبلاته ويديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أو دنيته وجبَّته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه؛ ليضيف إلى صورته صورة أخرى. صوَّر قاضي البصرة صورة لا يصل إليها المصور المبدع؛ صوَّر لنا معنوياته ساعة سطا عليه الذباب، وصور ما بدر منه، وما انطوى عليه من وقار في جميع حالاته، ثم أثنى على حسن سيرته وقلة فضوله، في جد كان الهزل في معانيه وإشاراته، لا في ألفاظه ورصفها.

تقرينا جمال فن الجاحظ واستجليناه يتناول كل موضوع من عامة أطرافه، لا يبقي حاجة في نفس سامع وتالٍ، شهدناه مهما تعنت متعنت من جهابذة النقد يستحيل عليه أن يقول: إنه قال كذا، وكان الأولى أن يقول كذا، وهذا من بُعد مرماه في الصنعة.

علمه وبحثه:

تقدم أن الجاحظ لم تقف معارفه عند حد المنقول، وأنه تعداها إلى الأخذ من كل معقول، وأن العلوم التي اتجهت إليها همته، أحذقته فأخرجت منه عالمًا فوق العلماء، ولم يكن صَحَفِيًّا يأخذ من الكتب ما اتفق، بل كان نظّارًا محققًا يدرس الأشياء، ويقتلها بحثًا وتنقيبًا. كان منهاجه في العلم مطولًا واسعًا، وهو في كل ما خاض عبابه إخصائي وأعظم من كل إخصائي، يتناول كل ما يقع عليه الحس، وتنظره العين، وتتشوف إليه النفس. وليس نظره في كل ما عانى النظر المجرد، بل نظر (الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان). لا تراه وهو يفكر فيجيد التفكير، ويبحث فيكشف عن الحقائق، إلا داعيًا إلى استعمال العقل، وتجويد التفكير، لأن (مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة)، وفي التفكير (مشحذة للأذهان، ومنبهة لذوي الغفلة، وتحليل لعقدة البلادة، وسبب لاعتياد الروية، وانفساح في الصدور، وعزاء في النفوس، وحلاوة تقتاتها الروح، وثمرة تغذو العقل). قال: «إن كثرة السماع للأخبار العجيبة، والمعاني الغريبة، مشحذة للأذهان، ومادة للقلوب، وسبب للتفكير، وعلة للتنقير عن الأمور، وأكثر الناس سماعًا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرًا، وأكثرهم تفكرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أرجحهم عملًا، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم».

قال: «والذي صير الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا} ليس هو الصورة، وأنه خلقه من نطفة، وأن أباه خُلق من تراب، وأنه يمشي على رجليه، ويتناول حوائجه بيديه، لأن هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين، والأطفال والمنقوصين. والفرق الذي هو الفرق، إنما هو الاستطاعة، والتمكن من وجوه الاستطاعة، وجودة العقل والمعرفة، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه؟ فلِمَ أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر؟ ولِمَ أعطاه المعرفة إلا ليؤثر الحق على هواه؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة؟».

وحذر المرء من الاغترار بما أَلِّف وبما يعرض لقلبه بادئ الرأي. ورأى (أن الناس يحتاجون إلى طبيعة، ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأول ما يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره، أن لا يعطي نفسه فوق حقها، وأن لا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما، أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابق إلى القلب). وقال: «فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك اعقل، وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة». «ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل، إذ كان زمامًا على الأعضاء، وعيارًا على الحواس».

دعا إلى التفكير ودعا إلى الملاحظة، قائلًا: «لا تشفيني إلا الملاحظة» ودعا إلى الشك؛ ومن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة كما قال الغزالي. أما هو فيقول: «اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلَّم الشك في المشكوك فيه تعلمًا،

فلو لم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف». وقبله قال شيخه النظام: «الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك».

ومع اعتقاده بما يكشفه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه، قال: «ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر، وتأملته تأمل متفكر، بعد أن تكون ثاقب النظر، سليم الآلة، غواصًا على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك». وقال: «والإنسان وإن أُضيف إلى الكمال، وعرف بالبلاغة، وناتش العلماء، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا، ولو استمد بكل نظار عظيم، واستعان بكل بحاث واعٍ، وكل نقّاب في البلاد ودراسة للكتب، وما أشك أن عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء، وما عند الله عز وجل أكثر، والخلق في بلوغه أعجز». قال: «لو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير[1]، والجاهل بعواقب الأمور، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها».

أهاب بالنفوس أن لا تغتر بما ألفت وسمعت، وأن لا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها، وحبب التكشيف والتنقيب، ودعا إلى العقل في النطاق الذي يتأتى الخوض فيه قائلًا: «وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه،

(١) الغرير: المخدوع أو الشاب لا تجربة له.

وتقفوا عنده، وهو ما يضع الخبر السابق إلى السمع، ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولًا سهلًا، وصادف موضعًا وطيئًا، وطبيعة قابلة، ونفسًا ساكنة، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخًا لا حيلة في إزالته». وقال: «إن الناس قد استغنوا عن التدبر، وكفوا مؤونة البحث و التنقير، لقلة اعتبارهم، ومن قلَّ اعتباره قلَّ علمه، ومن قلَّ علمه قلَّ فضله، ومن قلَّ فضله كثر نقصه، ومن قلَّ علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه، ولم يذم على شر جناه، ولم يجد طعم العز، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء، ولا برد اليقين، ولا راحة الأمن».

كان إذا رأى أن (ليس إلى رد الخبر سبيل لمواوترته ومرادفته، ولأن العيان قد حققه، والتجربة قد ضمت إليه) زاد اعتقادًا فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره. ويريد الناس أبدًا أن يجربوا بأنفسهم فقد ذكر عند كلامه على أقوال العلماء أن عرق الخال أنزع من عرق العم، وأن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها على الشبه أغلب - أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال: فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأخص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك، وعشر من خلفك وعشر من أمامك، فانظر أيها أكثر: رجالهم أو نساؤهم.

ونبَّه أرباب العقول إلى من يعبث بها، فقال: «وقد ابتلينا بضربين من الناس، ودعواهما كبيرة؛ أحدهما أن يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفًا لتوليد الكذابين، وقلبه قرارًا لغرائب الزور، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف، لا يقف على التصحيح والتمييز، فهو يدخل الغث في السمين، والممكن في الممتنع، ويتعلق بأدنى سبب، ثم يدفع عنه كل الدفع، والصنف الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا

يكون منه عند من يسمعه يتكلم، إلا من خاف التقذر[1] من الكذب». وقال في التحذير من صنف من هذه الأصناف المضرة: «وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتضرهم كثرة أتباعهم، ممن لا تجده مُستهترًا بسماع الغريب، ومغرمًا بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا بدلًا من هذا الاستهتار نصيبًا من التثبت، وحظًّا من التوقي؛ لسلمت الكتب من كثير من الفساد».

ويحذركَ جهرة من تخويف المخرفين من العوام، والمضللين ممن كان بسبيلهم من الخواص، لأن في الخواص دجالين أيضًا، وإن كانوا مؤلفين ومشهورين، قال: إنهم «لا يدينون بالحقيقة، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة، ومن الدليل على نذالة طبعهم، والعلم بسفالة رأيهم، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه» وهو يرى بعض الخواص أضرَّ على سير العقل من العوام، ولطالما حزّت بلاهة الخواص في قلبه، وهو لا يبرح يهزأ بهم، ويبين مناشئ المضعوف من رواياتهم ويعلم (أن الناس موكلون بحكاية كل غريب، وميسرون للإخبار عن كل عظيم، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم إليه)، (وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة، والتثبت عند الحكومة[2] جانبًا، وأعرضوا عنه صفحًا، فليس إلا لا أو نعم؛ إلا أن قولهم لا، موصول منهم بالغضب، وقولهم نعم، موصول منهم بالرضا، وقد عزل الحق جانبًا، ومات ذكر الحلال والحرام، ورفض ذكر القبيح والحسن).

(١) التقذر: الاجتناب، من قذر الشيء كرهه واجتنبه.

(٢) الحكومة: القضاء.

وعلل التخريف في الناس، وفشو الجهل فيهم بقوله: «الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر، ولكن للناس تأس وعادات، وتقليد للآباء والكبراء، ويعملون على الهوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب، ويستثقلون التحصيل، ويهملون النظر، حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصار كليلة وأذهان مدخولة(١)، مع سوء عادة، والنفس لا تجيب إذا كانت مستكرهة، وكان يقال: الطبع إذا كره عمي، ومتى عمي الطبع جسا(٢) وغلظ وأُهمل، حتى يألف الجهل، ولم يكن يفهم ما عليه وله». فهو من هذا النظر يربأُ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم، ويريده أبدًا، على أن ينظر بعقله، ويستثبت الأخبار، ولا يستمع لنقلة الغرائب منها، وأن يستند أبدًا على التجربة والملاحظة، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها، يريده على أن يلاحظ ويتدبر ويحس، ويكون في حسه صادقًا حازمًا، لا يمتهن شيئًا في عالم الكون والفساد، يهتم للذرة كما يهتم للدُّرة ويقول: أوصيك أيها القارئ المتفهم، وأيها المستمع المنصت المتصفح، أن لا تحقر شيئًا أبدًا لصغر جثته، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله».

فكأن الفيلسوف ديكارت في القرن السابع عشر -وكان يقول بعدم التسليم بشيء إلا بعد فحصه بنور العقل وتحقق وجوده، ويرفض كل ما قام على الظن والتخمين، وما ألفته العادة وأتى من العُرف- كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته في هذا الشأن، ونغمتهما في هذا المعنى متشابهة، كأن الواحدة متممة للأخرى، أو الأخرى أُخذت عن الأولى.

---

(١) المدخول: المهزول ومن في عقله دخل، ونخلة مدخولة: عفنة.

(٢) جسا كدعا جسوًا: صلب، وجاساه: عاداه.

وكأن الجاحظ وهو يدعوك إلى الاستنباط لا إلى الحفظ والاستظهار يقول برأي أحدث علماء التربية من أهل الحضارة اليوم؛ وعبارته: «وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدًا، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة، والقضية الصحيحة، والحكم المحمود، أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاسنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ».

الجاحظ يردم المنافذ التي تتسرب منها الجهالات، وينحى على من يضلل الناس، ويبيع منهم سلعًا فاسدة؛ وقد بلغ من حريته في البحث، وغيرته على العلم، وبُعد نظره في المسائل، أن ردَّ على شيخه النظام وقال: إن عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه، وجودة قياسه على العارض، والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه، وينسى أن بدءَ أمره كان ظنًّا، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه. وقال مرة في شيخه الآخر أبي عبيدة: «ولولا أن أكون عيابًا ثم للعلماء خاصة، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة». ويلوم من ينقلون الأخبار بدون نقد، وممن لامهم على ذلك: أبو زيد الأنصاري، وثقه من جهة وأنكر عليه من أخرى تساهله في التعليق على الروايات المدخولة. فهو يرى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار، ولا كبير عنده أمام النقد، وفي ميدان الجدال وإحقاق الحق، قال في رجل نظر بعض النظر تصويب العلماء لبعض الشكاك حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب: إنه «مات ولم يخلف عقبًا، ولا واحدًا يدين بدينه، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت، ولكني على حال أكره التنويه بذكر من

تحرم بحرمة الكلام، وشارك المتكلمين في أسماء الصناعة، ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة».

وقال مرة: «ورأينا أقوامًا يدعون في كتبهم الغرائب الكثيرة والأمور البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم، ويعرضون بأقدارهم، ويسلطون السفهاء على أعراضهم، ويجرون سوء الظن إلى أخبارهم، ويحكمون حساد النعم في كتبهم، ويمكنون لهم من مقاليدهم، وبعضهم ينظر على حسن الظن بهم، أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم، وأحسنهم حالًا من يحب أن يتفضل عليه ببسط العذر له، ويتكلف بالاحتجاج عنه، ولا ينافي أن يمنَّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه».

وناقش غير مرة أرسطو في كتاب الحيوان ورد عليه في بعض استقراءاته وقال فيه: «وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثورًا سفد وألقح من ساعته بعد أن خُصى» قال: «فإذا أفرط المادح في المدح، وخرج من المقدار، وأفرط المتعجب في التعجب، وخرج من المقدار، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان، أو بالخبر الذي لم يكذب مثله، وإلا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا بدل حركتهم خبرًا وحكاية، وتبرءوا عن عينه ما ضرَّهم ذلك، ولكان أصون لأقدارهم وأتم لمروآت كتبهم». وردّ عليه دعواه في أن إناث العصافير أطول أعمارًا، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة. وردَّ عليه زعمه أن في بلدة طبقون[1] حية صغيرة شديدة اللذع، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك، فقال: لم أفهم هذا ولِمَ كان؟ ورد عليه زعمه أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية اعيتوليس يجلب الدارصيني[2] من

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التي فيها الإيوان على ثلاثة فراسخ من بغداد، وطيسفون أيضًا قرية بمرو، أما طيفون أو طيقون فلم تجد لها ذكرًا.

(٢) الدارصيني: شجر هندي يكون بتخوم الصين كالرمان تعريب دارجيني؛ أي: شجرة الصين.

موضعه فيفرش به عشه فقال: «لست أدفع خبر صاحب المنطق من خبر الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائرًا ينهض من وكره في الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الأوابد، وإن كان من القواطع[1]، فكيف يقطع الصحصحان[2] الأملس وبطون الأودية وهضاب[3] الجبال بالتدويم في الجواء والمضي على السمت، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشًا له ومهادًا إلا بالاختلاف الطويل، وليس بالوطيء الوثير، ولا هو له بطعام. فأنا وإن كنت لا أعرف العلة، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة فأنكر هذا».

والجاحظ ينظر إلى الحيوان في تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها وإطعامها من لبن أو لعاب أو نبات أو غير ذلك، ويعرف تأثره بالحر والبرد وبالشمس والظل، وحَذَره من الآدميين إلى غير ذلك، فكيف يجوز له عقله أن يقطع ذاك الطير ألوفًا من الأميال ليبني عشه بمادة ليست له طعامًا ولا هي ما يستلينه، ما دام عقله رائده الذي لا يكذب، وخليله بحثه ونظره.

وقال في رأي أرسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه في بطنها: «وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن، ولهم أسنان نابتة كالذي رووا في شأن

(١) قال أبو زيد الأنصاري: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الطير والغربان (أي جاءت) من بلادها، فهي قواطع، وإذا كان الصيف رجعت فيه، فهي رواجع، والطير التي تقيم بأرضنا صيفًا وشتاء: أوابد.

(٢) الصحصح والصحصاح والصحصحان: ما استوى من الأرض.

(٣) الهضبة: الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة (ج) هضب وهضاب وأهاضيب.

مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله الأهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهرًا، وقد مُدح بذلك وهُجي، وليس ذلك بالمستنكر، وإن كنت لم أرَ قط قابلة تقرُّ بشيء من هذا الباب، وكذلك الأطباء، وقد رووه كما علمت، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه، ولست أراه محالًا ولا ممتنعًا في القدرة ولا في الطبيعة، وأرى جوازه موهوبًا غير مستحيل، إلا أن قلبي ليس يقبله. وليس من كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ، ولا يقصر في شيء من الصفات المحمودة، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدفعه، والله هو القادر دون خلقه، ولست أبت بإنكاره، وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر، والخبر المتظاهر»؛ أي أنه في هذه المسألة سأل القابلات والأطباء فما صححوا له هذا الخبر، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه، والطبيعة لا تنكره، والشريعة لا ترده، وإن كان من الأمور التي لا تعرف بالقياس بل بالعيان.

مثال آخر من نقده العلمي: هزأ ببعض المفسرين في دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خُلق من عطسة الفيل عندما زعموا (أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا، سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفاهم مؤونة الجرذان، ولما تأذوا برائحة نجوهم[1] شكوا ذلك إلى نوح، فشكا إلى الله -تبارك وتعالى- فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو) قال: «وهذا الحديث نافق عند العوام، وعند بعض القصاص».

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط، والسلاح كغراب، وسلح: كمنع وأسلح.

مثال غيره: وقد قال الناس في قوله تعالى: {إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين}، فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير. وقالوا ما عنى إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم، فقال: أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل لشيء لم نره فنتوهمه؟ ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون إنسان كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوّره لهم واصف، صادق اللسان، بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينه ولا صورها لنا صادق... (وكل قول يكذبه العيان، فهو أفحش خطأ، وأسخف مذهبًا، وأدل على معاندة شديدة، أو غفلة مفرطة).

وبعد فإنك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه في كتاب الحيوان، يزيف الخرافات والترهات في عصره وقبل عصره، ويورد عليك نقداته ومباحثاته، فيقع في نفسك أنه لو جاء كثير مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من الإسرائيليات والسخافات، مما تخيله من دخلوا في الإسلام حقائق أو رقائق، وأنه لا يضر الدين إذا جعل على هامشه، فوسعوا بها وضعوا دائرة الخيالات، وبهرجوا دينًا ساذجًا، وما كان ما أدخلوه فيه من أصله ولا من متنه.

ثم تأمل قوله: «رووا عن واثلة إياس بن معاوية، أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل، أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بَيْضًا قط، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل، المنعوت بثقوب الفراسة، ودقة الفطنة صحيحًا، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون

صحيحًا...» ومثله قوله في رد قول العوام في الكركدن وضربهم المثل به في الشدة والقوة. قال: «وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته، فلا يشعر بمكانه ولا يحس حتى ينقطع على الأيام، وهذا القول بالخرافة أشبه. وأعجب من القول في ولد الكركدن، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبدًا إلا وهو متطوق بأفعى، وأنها تعيش وتنهش، إلا أنها لا تقتل». قال: «ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر».

ومما قال: «وفي السمندل لآية غريبة، وصفة عجيبة، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشة». وقال في مكان آخر: «خبرت عن فأرة البيش[1] واغتذائها السموم، وعن الطائر الذي يدعي السمندل وطيرانه في جاحم الأتون، فلا السم المجهز يضر بتلك الفأرة، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبة». وقال: «هذا الطائر في طباعه وفي طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين، وأظن هذا الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغْرَة. وقد كنت رأيت عودًا يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق، وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه، وكان يقول لضعفاء الناس: هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صُلب عليها، والنار لا تعمل فيه، فكان يكتسب بذلك، حتى فطن له وعورض بهذا العود. وزعم ثمامة أن الإنسان إن أخذ من هذا الطحلب الذي يكون على وجه الماء في مناقع المياه فجففه في الظل وأحرقه فإنه لا يحترق».

(١) البيش بالكسر: نبات كالزنجبيل رطبًا ويابسًا، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فأرة البيش، وهي فأرة تتغذى به والسماني تتغذى به أيضًا ولا تموت، ودواء المسك يقاومه (القاموس).

ومما قال: «ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وَقاح أخبار بعض العلماء، وبعض من يؤلف الكتب ليقرأها الناس، ويدارس أهل البصرة ويحفظها، زعموا أن الضبع يكون عامًا ذكرًا وعامًا أنثى، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته...».

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس، أَلَّف في المعادن والأصباغ كما أَلَّف في التجارة، ونقل عن حُنين بن إسحاق وبختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره. وكان يعرف النقص في كتب الأطباء والعلوم حتى قال: «وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين، وإلى أن يكون المتكلمون علماء، فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد». وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات توفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات، ليصدر إذا كتب عن خبرة. وقد أَلَّف في الأشجار كتابًا قالوا: إنه بإمتاعه ككتاب الحيوان. وكان شعاره: «إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئًا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح»، وقال: «وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس، وله مضرة شديدة وثمرة مرة، فمن أضرّ ذلك قولهم: لم يدع الأول للآخر شيئًا، قال: فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم، تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلًّا».

من أجل هذا توسع الجاحظ في بحثه، وكان على علمه الفياض يسأل جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد أن يتفهمه، فيصف الماديات والمحسوسات، ويسترشد حتى بآراء الحراس، ويتحدث حتى إلى الحُواة والجزارين وأرباب الصناعات، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قَبِلها



عقله، أو يردها ولا يقرها إذ كانت حديث خرافة. ويتحدث إلى كل من عنده (ظرائف من الكلام، وعجائب من الأقسام)، وقد روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها.

قال في رسالة «الحنين إلى الأوطان»: رأيت عبدًا أسود حبشيًّا لبني أسد قدِم من شق اليمامة فصار ناطورًا، وكان وحشًا مجنونًا لطول الغربة مع الإبل، وكان لا يلقى إلا أكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إليَّ وسمعته يقول: لعن الله أرضًا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حر الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان إن هذا العريب في جميع الناس كمقدار القرهة في جلد الفرس، فلولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم. اهـ.

فالجاحظ لم يحتقر هذا الحديث الذي بدر عن لسان عبد مستوحش وأورده مثالًا على موضوعه في الوحشة التي تعتري النازح عن وطنه. ونحن بذا الحديث القصير أيضًا أدركنا أن العراق لم يكن تعَرّب كله في طرفي المائة الثانية والثالثة، وأن أكرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم، وأن العرب كانوا إلى قلة على كل حال.

ولم نرى أبا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الأبحاث مس الموضوعات التاريخية بالمعنى الذي بدأ المؤرخون في عصره يخوضون فيه، على طريقة الرواية وتصحيح السند. وربما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك في عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم، ولا حديث أعدائهم وفتن بلادهم ومشاغبهم ومتاعبهم ومؤامراتهم ودسائسهم، ولا طبقات الرجال في موالدهم ووفياتهم، وما صرفوا فيه عقولهم وأعمارهم وخلفوه من مآثرهم، بل كان التاريخ الذي شغل قلمه

وقلبه وصف الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف، فهو المؤرخ الاجتماعي في عصره، يورد لك من مشاهداته ومروياته ما يوسع أُفق نظرك، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات، ولعلَّ هذا ما دعا السخاوي المؤرخ إلى أن عدّ الجاحظ من المؤرخين.

رأى الجاحظ التاريخ السياسي وتاريخ الرجال ضيق المضطرب، وقد تسربت إليه أخطاء لا يقرها، فأرّخ للأمة، والكلام فيها واسع المجال، وكما كان في التاريخ هو في الفلسفة، قرأ ما كُتب وتُرجم في عصره، فما نقل آراء أرسطو مستحسنًا لها كلها، ولا شغف بأفلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان، بل طبق العلوم المادية وعلوم الحياة والأحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفي، فأهمه من الفلسفة روحها، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال، وبعبارة ثانية أنه كان من أصحاب النظر العملي، وما تعدى في الإلهيات حيز المنطق الصحيح، والمصادر السليمة التي تدعمها الحجة ولا ينكرها إلا مكابر.

يقول لك حينًا: إن «غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كلِفًا بتعرافها وكان له في العلم أصل، وكان بينه وبين التبيين نصيب، وأكثر الناس لا تجدهم إلا في حالتين: إعراض عن التبيين، وإهمال النفس، وإما في حالة تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار، وتتبع الغرائب، والرغبة في الفوائد. ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فوائد، وأن ذلك من باب التوقي، وجنس من استعظام الكذب، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاز الرغبة في الصدق، أو تبين الشيء معاندة للإقرار وقهرًا بالحق».

ومن استقرائه العلمي في الذباب قوله: «وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة، لو كانت بالشامات[1] أو بمصر لأدخلوها في باب الطلسم؛ وذلك أن التمر يكون مصبوبًا في بيادر التمر في شق البساتين، فلا ترى على شيء منها ذبابة، لا في الليل ولا في النهار، ولا في البرد ولا في أنصاف النهار. نعم وقد تكون المعاصر، ولأصحاب المعاصر ظلال، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، وإنما تلك المعاصر بين ثمرة رطبة ودبس، ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار، وفي وقت طلب الذبان الكنَّ، إلا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذبان. وهذا شيء يكون موجودًا في جميع الشق الذي فيه البساتين، فإن تحول شيء من تلك البادية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذبان ما عسى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه. وليس بين جزيرة دُبيس وبين موضع الذبان إلا فيض البصرة، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئًا أو أنقص شيئًا.

وأعجوبة أخرى، وهي عندي أعجب من كل شيء صدَّرنا به جملة القول في الذبان. فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ويضم عليه رجليه وينكس رأسه، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور، والآخر لا يزال ينتقل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار خوفًا على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار ما يشبه بالليف، فنفشه ثم فتل منه حبلًا، ثم عمل منه كهيئة القفة، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة، ثم يتخذ عشه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه».

(١) الشامات: بلاد الشام.

كأن الجاحظ كان كالطائر يتنقل من شجرة إلى شجرة، ومن حديقة إلى حديقة، يلتقط الزهرة والحبة، ومن كان يظن أن الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين، وهو في أصله إمام ديني وصاحب مذهب وعلم من أعلام الشريعة.

من كان يظن أنه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل، وفي كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية.

من كان يظن أن للجاحظ كتابًا في الأمصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه رآه المسعودي ووصفه بأنه في نهاية الحسن، قال: «وإن كان الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار ولا تقرى[1] الممالك والأمصار» نعم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودي، واقتصر على التنقل في أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم وبلاد العرب فقط، وليس من الميسور لكل إنسان في دهره أن يطوف الأرض، فإن هذا ما كان يتيسر إلا للفرد بعد الفرد، وفي العصر بعد العصر.

وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيرها في الطباع والأجسام، ووصف تأثير الهواء في الإنسان والحيوان في حرّة بني سُليم في عالية نجد، فقال بتأثير البيئة في الكائنات الحية. فإن كان وصفه الأمصار في جغرافيته كوصفه أهل الأهواز، وهو ما نعتقده، فإنه من أحسن ما كتب في الجغرافيه الإنسانية والطبيعية والوصفية. قال في الأهواز: «إنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم، ولا بد للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسنًا، أو دميمًا كان أو بارعًا رائعًا، من أن يكون

(١) يقال قرا الأمر واقتراه: تتبعه، وقروت البلاد قروًا: تتبعتها أرضًا أرضا وسرت فيها كاقتريتها واستقريتها.

لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب. فلقد كانت البلدة تنقل ذلك فتبدله، ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه، وتبين أثرها فيه، فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس، ولفساد عقولهم، ولؤم طبع بلادهم، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة، والضياع الفاشية، يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار، على الثروة واليسار، والمال مَنْبَهة كما تعلمون؛ وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين، ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك. وليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا أدب شريف، ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وإن حَسُن، ولم أرَ بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية، ولا دمًا ظاهرًا ولا قريبًا من ذلك، وهي قتالة للغرباء، على أن حُمَّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب، ووباها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان، وكل محموم في الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه، وفي بدنه منها بقية. فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط، وأن يجمع في جوفه الفساد، وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث، كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يؤتون من قِبَل النهم، ومن قبل الخلط والإكثار، وإنما يؤتون من عين البلدة». وقال أيضًا: «رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحة كقصبة الأهواز».

وقال في حرَّة بني سليم: «إنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تقلبهم الحرة إلى ألوان بني سُليم. ولقد بلغ من أمر هذه الحرة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها كلها سود، قال: والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة، وما طبع الله عليه الماء والتربة، ومن قبل قرب الشمس وبعدها، وشدة حرها ولينها، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة، ولا تشويه ولا تقبيح، على أن حرة

بني سُليم تجري مجرى بلاد الترك، فإنك إذا رأيت الترك، ورأيت إبلهم ودوابهم، وكل شيء لهم حسبته شيئًا واحدًا، وكل شيءٍ لهم تركي المنظر».

وبهذا رأيناه يقول بتطور الأحياء بحسب البيئة وتعاقب الأيام، ويعلل ذلك تعليلًا مقبولًا كما يعلل أشياء أخر مثل عذوبة المطر والثلج، وملوحة مياه البحر. ومعظم ما وصفه من أنواع الحيوان وصفه وصفًا دقيقًا، كأنه رآه المرة بعد المرة وأجرى تجاربه عليه ودقق فيه، ونظر ما قاله فيه من قبله، فما وافق الحس والعقل من أقوالهم قَبِله، وما لم يوافق عليه ردّه مع إيراد الأسباب الداعية له إلى رده.

ومما قال: «بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست في غيرها من البلدان، منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد، فيقبل عند حاجتهم إليه، ويرتد عند استغنائهم عنه. ثم لا يبطئُ عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها، لا يَقتلها عطشًا ولا غرقًا، ولا يُغبها ظمًا ولا عطشًا، يجيءُ على حساب العلوم، وتدبير منظوم، وحدود ثابتة وعادة قديمة، يزيدها القمر في امتلائه، كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون، ومتى يذهبون ويرجعون، بعد أن يعرفوا مواضع القمر، وكم مضى من الشهر، فهي آية وأعجوبة، ومفخرة وأُحدوثة، لا يخافون المحل، ولا يخشون الحَطْمة[1]».

وقال أيضًا: «من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غُمدان، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان».

(١) الحطمة ويضم والحاطوم: السنة الشديدة.

يكلمك الجاحظ تارة في رغبات الناس في العلوم، ويذكّرك بأنه لم تظهر له العلة فيها، إلا أنه يعجب من الوسط في صناعته، ومن كانت فطرته غير مؤاتية، فيقول: «صار طلب الحساب أخفّ على بعضهم، وطلب الطب أحبَّ إلى بعضهم، وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم، فتجد واحدًا يلهج بطلب الغناء واللحون وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يكتب مع الجند، وآخر يختار ورّاقًا، وآخر يختار طلب الملك، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم، ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر، إلا بجملة من القول، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض، يعلم لما اختار ذلك في جملة ولا تفصيل، إذا كان لم يجرِ منه على عِرق[1]، ولا اختاره على إرث، وليس العجيب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور، ويحركه في بعض الجهات، ولكن العجب ممن يموت مغنيًا، وهو لا طبع له في معرفة الوزن، وليس له جرم حسن، فيكون إن فاته أن يكون معلمًا ومغني خاصة، أن يكون مطربًا ومغني عامة...».

احتج للإماء، «قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات[2]، أن الرجل قبل أن يملك الأَمَةَ قد تأمل كل شيء منها وعرفه، ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها الموافقة، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلًا ولا كثيرا؛ والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك؛ وقد تحسن المرأة تقول: كأن أنفها السيف، وكأن عينها عين غزال، وكأن عنقها إبريق

(١) العرق: أصل كل شيء.
(٢) المهيرة: الحرة الغالية المهر.

فضة، وكأن ساقها جُمَّارة، وكأن شعرها العناقيد، كأن أطرافها المداري، وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض».

وقال في رسالته في النساء: «ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة، ولا بد من جودة القد، وحسن الخرط، واعتدال المنكبين، واستواء الظهر، ولا بد من أن تكون كاسية العظام، بين الممتلئة والقضيفة[1]، وإنما يريدون بقولهم: مجدولة[2]، جودة العصب وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول، ولذلك قالوا: خمصانة وسفيانة[3]، وكأنها جان، وكأنها جَدْل عنان، وكأنها قضيب خيزران، والتثني في مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة، وذات الفضول والزوائد، على أن النحافة في المجدولة أعم، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام، وعلى الممشوقات والقضاف، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور، فقالوا: أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب». ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا أن ندعي أن الجاحظ كان يعرف كل شيء.

ومما قاله: «قلَّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدنا قريبًا منه في أشعار العرب، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا».

---

(١) القضافة والقضف محركة وكعنب: النحافة وهو قضيف (ج) قضفان.

(٢) المجدول: اللطيف القصب المحكم الفتل.

(٣) رجل خمصان بالضم وبالتحريك، وخميص الحشي: ضامر البطن، وهي خمصانة وخميص من خمائص. ورجل سيفان: ممشوق ضامر، والأنثى سيفانة وهي الشطبة كأنها نصل سيف، قالوا: ولا يوصف به الرجل.

ولذلك رأيناه يقرِّب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفائها؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل في دائرة الحس والعقل، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله في إنكار أحاديث الجن وما روي من الشعر في رؤيتهم، فقال: إن للناس في هذا ضروبًا من الدعاوى، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها؛ ومن استقراءاته قوله: «إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة، دون نخل المدينة، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان، ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها، والأهواز وما بها، أيام المعتصم، وإذا ثلثمائة وستون ضربًا من مُغل معروف، وخارجي موصوف، وبديع غريب، مع طيب هجيب».

وقال في كتابه الأمصار: أكثر الدور غلة ثلاث: دار البطيخ بسرّ من رأى، ودار الزبير بالبصرة، ودار القطن ببغداد. ومما قاله في رصف البصرة: إنه لا يعرف مصر جاهلي ولا إسلامي أفضل من البصرة، وإنها قلب الدنيا وواسطة الأرض وفرضة البحر.

ومن ملاحظاته: واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة، وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة، وفي هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة، والبوار والتواء، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه، ومسهل ذلك عليهم، فالحائك إذا رأى تقصيرًا من صاحبه، أو سوء حذق أو خرقًا قال له: يا حجام، والحجام إذا رأى تقصيرًا من صاحبه قال له: يا حائك، ولذلك لم

يُجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة؛ ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سببًا للاتفاق والائتلاف، لما جعل واحدًا قصيرًا وآخر طويلًا، وواحدًا حسنًا وآخر قبيحًا، وواحدًا غنيًّا وآخر فقيرًا، وواحدا عاقلًا وآخر مجنونًا، وواحدا ذكيًّا وآخر غبيًّا، ولكن خالف بينهم ليختبرهم، وبالاختبار يطيعون، وبالطاعة يسعدون، ففرق بينهم ليجمعهم، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى، وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر، لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات، ولبطل أصل المعاش، فسخرهم على غير إكراه، ورغبهم من غير دعاء، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أعدلها، ومن الأمصار إلا أوسطها، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط، وتشاجروا على البلاد العليا، ولما وسعهم بلد، ولما تم بينهم صلح، فلقد صار بهم التسخير إلى غاية، وكيف لا يكون كذلك، وأنت لو حوّلت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهول إلى الجبال، وساكني الجبال إلى البحار، وساكني الوبر إلى المدر، لأذاب قلوبهم الهمُّ، ولأتى عليهم فرط النزاع.

ومما استقراه قوله لما تولى خالد بن الوليد كسر الأصنام التي كانت قريش تعبدها، ورمى عُزّى بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه: «وما أشك في أنه قد كانت للسدنة[1] حيل وكمين؛ ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منَّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشأوا فيهم»؛ قال: «وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها، حتى أن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير

(١) سدن سدنًا وسدانة: خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة، فهو سادن (ج) سدنة.

نار في بعض ليالي أعيادهم، وبمثل ذلك احتال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال: يا عُزّى كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك»؛ قال: «وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إلى العُزّى تصيح: يا عُزّى خَبِّليه، يا عزّى عزّريه، وليس ينثني من تهاويلهم، وعلاها بالسيف حتى كسرها».

وقال في الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبي قبله: «المتكلمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أن خالدًا كان أعرابيًّا وبريًّا، ولم يبعث الله قط نبيًّا من الأعراب ولا من أهل الوبر، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الجزر، والله أعلم حيث يجعل رسالته».

وذكر الشياطين في بعض كتبه، ومما قال: «إنا وإن كنا لم نر شيطانًا قط، ولا صوَّره لنا صادق، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل ما لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان، وهو دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا في طبائعهم غاية الثبات»؛ وقال: «ليس من الناس من رأى شيطانًا قط على صورته، لكن لما كان الله جعل في طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته، وأجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتفريع إلى ما جعله في طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء....».

وأنكر انشقاق القمر كما هو رأي كثير من أهل الذكر، فقال: إنه لم يتواتر الخبر به، وإنه لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره في كل يوم وليلة، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير، فأما قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} فإن معناه سينشق.

ومن ملاحظاته: «لا تليق ثلاثة أسماء بأعيانها إلا في الملوك والسادة، ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام في ملوك العجم، والحارث بن الحارث بن الحارث في ملوك غسان، والحسن بن الحسن بن الحسن في سادة الإسلام». وقال: «ثلاثة بنو أعمام في زمان واحد، يسمى كل واحد منهم عليًّا، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة: علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وعلي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ثم بنوهم ثلاثة بنو أعمام ويسمى كل واحد منهم محمدًا، وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة: محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ومحمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب بن عبد المطلب، ومحمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو من أغرب ما يتهيأ في العالم، ويتفق في الأزمنة، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها أحد». نقول: وهذا من معرفته بالأنساب أيضًا فاهتدى من الغرائب فيها إلى ما لم يهتد إليه غيره ولا وقع في خاطره.

ومن استدلالاته أيضًا: «قد علمنا أن داعي استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم، ونجد السجستاني وهو عجمي، واليمامي والنجراني والجزري وهم عرب، ونجدُ تاهرت وهي بلاد عجم، كلهم في القتال والنجدة سواء وفي ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين، فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم، أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم هو التدين بالقتال؟» وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نعرفه لأحد ممن كتب في عصره في فلسفة الديانيين والأديان.

وقال في نار المجوس: «ما زال الناس كافة، والأمم قاطبة، حتى جاء الله بالحق، مولعين بتعظيم النار، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها. ويزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال: لا تطفئوا النار في بيوتي، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبدًا ليلًا ونهارًا. فأما المجوس فإنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران، وأقامت عليها السدنة، ووقفت عليها الغلات الكثيرة، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة، وإيجاب الشكر على النعمة، وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قومًا فلم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته إياهم فقال:

عمـــري لقـــد جـــربتكم فوجـــدتكم نـــار المجـــوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها، وبين من يزق فيها ويبول عليها، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها».

وقال: «الأمم كلها تضرب مثلًا بالعنقاء في الشيء الذي يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس:

ومـــا خبـــزه إلا كَعَنْقـــاء مُغْـــرب يُـصَوَّر في بـــسط الملـــوك لهـــا مثـــلُ
يحـدث عنهـا النـاس مـن غـير رؤيـة سـوى صـورة مـا إن تمـر ولا تحلـو

وما أكثر من ينكر أن يكون في الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقاء مغرب، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصورة في بسط الملوك وحيطان قصورهم، واسمها عندهم مسموع». ومن غريب تحقيقه في النمل قوله: «والنمل ربما أجلى أمة من الأمم عن بلادهم»، ومن تحقيقاته: «ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيبًا وأعضاء وجوارح، ولم يروا أقرب منه خلقة وصورة وأدنى إليه شبها ومشاكلة من القرد، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا

قط إنسيًّا، ولم يشرّحوا آدميًّا، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر الكامنة بما فصلوا من أجسام القرود، وبعض مَن وُجد من القتلى على ندرة في بعض معارك الملوك».

وقال في عجائب البحر: «وليس ذلك بأعجب من شيء عاينه جميع من يركب البحر وذلك أن الطائر من طَيْره يطير في الهواء، فيبعث به طائر صغير، فإذا أحرجه ذلك ذرق، فتلقاه الطائر فابتلعه، فلا هو يخطئ بذلك الذرق حلق الطائر الصغير، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه، وما يعيِّشه من ذلك الطائر الكبير، والدُّخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به، والغريق يذهب معه، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به، حتى ينجيه، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه».

وقال في علة فشو الفاحشة في بعض الناس: «ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الأعراب لتعشقوا الغلمان، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم، ولجاءهم فيه باب من النسيب، ولتهاجوا به وتفاخروا، ولتنافسوا في الغلمان، ولجرى في ذلك ما لا يخفى، ولحدثت فيه أشعار وأخبار، والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلا الجوهرية، فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسية فهم على خلاف ذلك كله...».

هذا ما تيسر الاستدلال به من كلام أبي عثمان على مبلغ علمه وطول درسه، وبذلك يسهل علينا وضعه في الصف الأول من الباحثين من العلماء الذين خاضوا في العلوم التي كانت معهدهم وضربوا فيها كلها بسهم صائب.

كتبه ورسائله:

ليس في وسع الباحث تعيين حد لعلم الجاحظ، ينتهي منه إلى معرفة ما غلب عليه؛ وما أشبه تآليفه بمعلمة من معلمات العلم في عصره تبحث في جميع المطالب بحثًا ممتعًا، فلا ترى في مقالاتها خللًا، ولا في وضعها وتصنيفها غثاثة؛ ولقد رأينا معلمات زماننا بلغات لعلم الحديث يؤازر فيها عشرات وربما مئات من العلماء والباحثين، حتى تكتب لها الإجادة، وتقع من نفوس أرباب المدارك موقع الاستحسان، ومعلمة الجاحظ كتبها بنفسه، لم يشاركه مشارك في إعداد موادها، ولا في وضع أبوابها، وابتكار فصولها، وكلها ابنة درسه وبحثه، يصدرها في اتساق متقن، وتحقيق بالغ؛ وربما كان من أبحاثها ما اقترح عليه الخوض فيه، فكتب ما أراد وما أُريد منه؛ وكأنه المفتي الحجة يُستفتى في علوم الدنيا والآخرة، فلا يلحق غباره أحد، وهو أبدًا الفارس المجلّي في كل حلبة، لم يلحقه أحد في طريقته، وحاول تقليده غير واحد في العصور التالية.

الإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة في الجاحظ، ألَّف خمسين وثلاثمائة مؤلف، بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات، رآها كلها سبط ابن الجوزي في أول القرن السابع في مشهد أبي حنيفة ببغداد. ألَّف كل هذا وجوَّده، وطريقته كما قال عن نفسه أن لا يصل الصدق بالكذب، ولا يتكثر بقول الزور، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها، ويستدعي إلى تفضيلها والإشادة بذكرها، بالأشعار المولدة، والأحاديث الموضوعة، والأسانيد المدخولة، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله، ولا مصدق له من لا يوثق بمعرفته. وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب

ومدارسة العلم، أن لا يقفوا على الكلمة الضعيفة، واللفظة السخيفة، وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له شيء من استكراه، ويقول لمن هذا حاله: «لو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم، تنقله بكثير ما يرى من المحمود، كان ذلك أشبه بالأدب المرضي، والخيم[1] الصالح، وأشد مشاكلة للحكمة، وأبعد من سلطان الطيش، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه، والدفاع عن حجته، يوم مناضلة خصومه، ومقارعة أعدائه».

وتعوذ بالله في كل وطن (من فتنة القول وخطله، ومن الإسهاب وتقحم خطته) وأكد (أن فتنة اللسان والقلم أشج من فتنه النساء، والحرص على المال) واستعاذ من التكلف لما لا يحسن، كما استعاذ بالله من العُجب بما يحسن، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده، ورجا أن يكون من المحسنين، وتعوذ من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال: «إن ساقط الكلام وأوغده، وأبعده من السعادة وأنكده، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص، وتجلى للعيون بعين القناعة واستشنع ذلة الافتقار، وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفي وهو ظاهر، وتأويله بعيد الغور، وهو قريب القعر».

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية إلى طور جمع فيه إلى الرواية الدراية، ودعا إلى جميل الصدق، وبرد اليقين، مستمدًّا من العقل، داعيًا إلى التفكير الصحيح، قائلًا: «إن من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم، ومضارّهم ومناقعهم، ألا يحتمل ثقل مؤنتهم في تقويمهم، وأن يتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم، فلن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره»؛ «ويعرف أن الحق مرّ والجد صعب، ولا يصبر على مطالعة الكتبُ الطويلة إلا

---

(١) الخيم (بكسر الخاء): الطبيعة.

من تجرد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ والكثرة من السآمة، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير[1]، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة».

شاهدنا أبا عثمان في كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وأدناها، ومن العلماء من نقل عنهم فستر أسماءهم، وأشار إلى أنهم كانوا ثقات فقط ليعرف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة، قال مرة: «حدثني بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه في أرض الجزيرة، وكان صاحب أخبار وتجربة، وكان كلفًا بحب التبيين، معترضًا للأمور يحب أن يُفضي إلى حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز أجناسها، وتعرّف مقادير قواها، وتصرف أعمالها، وتنقل حالاتها، كان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله».

وروى عن إبراهيم بن السندي كثيرًا، ونوّه به، وقال فيه: «إنه كان مولى أمير المؤمنين، وكان عالمًا بالدولة، شديد الحب لأبناء الدعوة، وكان يحوط مواليه، ويحفظ أيامهم، ويدعو الناس إلى طاعتهم، ويدرّسهم مناقبهم، وكان فخم المعاني، فخم الألفاظ، لو قلت: إن لسانه كان أرد[2] على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير[3] لكان ذلك قولًا ومذهبًا»، ووصفه في البيان والتبيين بقوله: «كان رجلًا لا نظير له، وكان خطيبًا، وكان ناسبًا، وكان فقيهًا، وكان عروضيًّا وحافظًا للحديث، راوية للشعر شاعرًا، وكان فخم الألفاظ، شريف المعاني، وكان كاتب القلم، كاتب العمل، وكان يتكلم بكلام رؤبة، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور، وكان منجمًا طبيبًا، وكان من رؤساء المتكلمين، وعالمًا بالدولة وبرجال

---

(1) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب، وسجره: شده به كسوجره.

(2) يقال: هذا أرد: أنفع، ولا رادة فيه: لا فائدة فيه كلا مردة.

(3) السنان الطرير: هو الرمح المحدد، والسيف الشهير المنتضي: المرفوع على الناس.

الدعوة، وكان أحفظ الناس لما سمع، وأقلهم نومًا، وأصبرهم على السهر». انظر إليه كيف يكرر فعل (كان) مرات في بضعة أسطر! يا ما أُحَيْلاه في مكرراته وفي موجزاته.

وروى عن ثمامة بن أشرس أحد شيوخه في الحديث فقال: «إن الصفات التي وصف بها ثمامة بن أشرس جعفرَ بن يحيى كأن ثمامة قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه».

والظاهرة المتجلية في كتب أبي عثمان أنه بينا يقنل إليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء، يروي لك: (نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة م الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النَّوْكى[1]، وأصحاب التكلف من الحمقى) يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة، ويقول: «ولكل جنس من هذا موضع يصلح له، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل»، و«إن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد، وإن البطالة وقار ورزانة، إذا تكلفت لتلك العاقبة». فهو يكره النغمة الواحدة يرددها، فيختار من الأصوات ما يفعل في النفوس، فيسليها ويطربها وهو يعلمها، ويلعب بالألباب في كل رسالة له وكتاب. تتجلى في أقواله ورواياته واستنباطاته وفرة المادة، وإمتاع البحث، وكثرة ما تعلّم، وهضم ما تعلم، فكتبه أعيان متحركة غير جامدة جمود حروفها، تأخذ من وجوه الإجادة بأوفر نصيب، وتدور على (حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف).

([1]) الأنوك والمستنوك: الأحمق، والجمع نوكى ونُوك كسكرى وهوج، وامرأة نوكاء.

ما كتب الجاحظ وألّف إلا عن باعث دعاه أو ارتآه، وكان في الأكثر يتقدم فيعرض ما حمله على التأليف؛ قال في وصف كتاب الحيوان: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيًّا أعرابيًّا، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم، ويتشهيه الغفل كما يشتهيه الأزيب، ويشتهيه الغبيّ كما يتشهيه الفطن»؛ ثم ذكر مزاعم الناس في تزييف الكتب، والسبب الذي يدعوهم إلى إسقاطها، فقال: «وليس هذا الكتاب -يرحمك الله- في إيجاب الوعد والوعيد، فيعترض عليه المرجئ، ولا في تفضيل عليّ فينتصب له العثماني، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام، ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشام على الجزيرة، ولا في تفضيل العجم على العرب، وعدنان على قحطان، وعمرو على واصل، فيرد بذلك الهُذلي على النَّظَّامي، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة، ولا هو في تفضيل امرئ القيس على النابغة، وعامر بن الطفيل على عمرو بن معدي كرب، وعباد بن الحصين على عبيد الله بن الحُرّ، ولا في تفضيل ابن سُرَيْج على الغَريض، ولا في تفضيل سيبويه على الكسائي، ولا في تفضيل الجعفري على العقيلي، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية، وتفضيل قَتادة على الزُّهري، فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة، ولكل رجل من هؤلاء جندًا وعددًا من مخاصميهم وسفهائهم، والمتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وإنصاف علمائهم أقل».

قال: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة؛ الثانية قلة الأعوان؛ الثالثة طول الكتاب؛ والرابعة أنى لو تكلفت كتابًا في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر، والصفرة والتوليد، والمداخلة والغرائز والنحاس[1]، لكان أسهل وأقصر أيامًا، وأسرع فراغًا، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال. فإن وجدت فيه خللًا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، ومن تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء فى غير موضعه، فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي. ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله، وتصاريف تدبيره، والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته، لما تعرضت لهذا المكروه، فإن نظرت فى هذا الكتاب، فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج، ولا يذهب مذهب المتعنت[2]، ومذهب من إذا رأى خيرًا كتمه، وإذا رأى شرًّا أذاعه».

ومما قال فيه : «وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لك فى أحسن صورة، وأقلبك منه فى الفنون المختلفة»؛ «فإن وجدت الكتاب الذى كتبته لك يخالف ما وصفت، فأنقصني من نشاطكَ له على قدر ما نقصتكَ مما ينشطكَ إليه لقراءته؛ وإن وجدتني إن صح عقلكَ وإنصافكَ قد وفيتكَ ما ضنمت لك، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولًا، وحدَّك مفلولًا، فاعلم أنّا لم نؤْث إلا من فسولتك وفساد طبعك، ومن إيثاركَ لما أضرَّ بكَ».

---

(١) النحاس (مثلثة): الطبيعة.

(٢) المتعنت: طالب الزلة.

وقال فى مقصده الذى يرمي إليه بطريقته فى تأليفه هذا: «فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يملُّ ويعتدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتابًا واحدًا فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أُم على حدة، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدًا مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جَمامًا[1] لبعض؛ ولا يزال نشاطه زائدًا، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سدَاد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يُفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفًا، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء، وآداب العلماء، ورأينا الله -تبارك وتعالى- إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي[2] والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا، وزاد في الكلام، فأصوب العمل اتباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة». وقوله هذا في مخاطبة القرآن للعرب واليهود من أبدع ما اهتدت إليه قوة مفكرة.

قال أبو علي الحسن بن داود: فخر البصرة بأربعة كتب: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الحيوان له، وكتاب سيبويه، وكتاب العين للخليل، وزعم بعض علماء الإفرنج أن كتاب الحيوان أقرب إلى أن يوسم بكتاب أدب منه إلى أن يعد كتابًا في طبائع الحيوان، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى أن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره من العرب والعجم كافٍ بأن يعد السابق المبرز في هذا الفن، والشعر الكثير الذي نقله لا يزري بها كتب، وهو يملي على الناس روح عصره. كتب

(١) الجمام (بفتح أوله): الراحة.

(٢) الوحي: الإشارة، والكتابة، والمكتوب، والرسالة والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك.

الجاحظ كتابه أوائل القرن الثالث من الهجرة، وضمنه خلاصة من الشعر الجيد، وأجمل الحكايات والنوادر، ومنها ما كان من نوع الأدب الواقع، وهناك أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية، وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان. وما كتب ما كتب فيه إلا عن تجربة وعيان غالبًا، وفيه كلام على الناس وبلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم إلى غير ذلك مما لا يظفر به باحث في كتاب واحد. فإتيان الغرائب والطرائف (ومعها شاهد من كتاب منزل، أو حديث مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعر معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب، أو من أكثر من قراءة الكتب، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار، وسكن الصحاري، واستذرى الهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأدوية» -الإتيان بالغرائب باعث على عموم فائدته.

وأما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأسًا وبدأه بقوله: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديمًا تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما».

يقول صاحب الصناعتين: «إن البيان والتبيين كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء البلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفة، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير...»

الجاحظ في البيان والتبيين يُكثر من الشواهد، ويُقلّل من القواعد، ويضمنه هزلًا وجدًّا، ويشحنه بغرر الأحاديث وعيون الخطب ويضمنه (من الفقر المستحسنة، والنتف المتخيَّرة، والمقطعات المستخرجة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة).

وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق، وكان الأمثل به أن يضع كل شيء في مكانه فاعتذر مرة بقوله: «وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير». ومما قال في مناسبة أخرى: «وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان من كتاب الحيوان، وفي فضل ما بين الذكر والأنثى تامًّا، وليس في هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطًا لقارئ الكتاب، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه، وأزيد في نشاطه». وقال: «كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسم أمورهم بابًا بابًا على حدته، ونُقدِّم مَن قدَّمه الله عز وجل ورسوله في النسب وفضله في الحسب، ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده، تكلفت ذكرهم في الجملة».

أراد الجاحظ في البيان والتبيين أن يُعلِّم طالب البلاغة بالعمل كما تعلَّم هو البلاغة، وكان البيان في عهده يُعَلّم على هذه الصورة، وبعده قام العلماء بوضع قواعد قلما أفادت الكاتب والشاعر، اللهم إلا الوقوف على ما عللوا له، واستشهدوا به، وسنوا له من القوانين: وكان معظم من كتبت لهم الإجادة في كل زمن في فني المنثور والمنظوم ممن لا يعبئون كثيرًا بما قاله علماء البيان، فالبيان يُعَلّم بالذوق والعمل لا بالقواعد والقوانين. والجاحظ كان في كتابه هذا عمليًّا شأنه في كل ما

كتب، وكذلك هو في النحو، فقد قال في فصل رياضة الصبي: «وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه، وشعرٍ إن أنشده، وشيءٍ إن وضعه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أردُّ عليه منه، من رواية المثل والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع».

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم ينظر فيه مصنفه نظرة أخيرة، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن خُرْشب في قتال عبس وذبيان مرتين، ونسبها في المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادي. وهي القصيدة التي أنشدها الجاحظ لسهل بن هارون فقال: والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم.

وقال في السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه «الدلائل والاعتبار» وفيه مباحث من شواهد آثار الصانع في صنعته، وتنبيه على أسرار قد أودعها ما يشاهده المرءُ من فطرته، تضطره إلى معرفته وتشهد بوحدانيته، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته، قال: إنه ألَّف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما وضحوا معانيه، ولا بينوا المشكل منه، فمنهم جبرائيل بن نوح الأنباري، وقبله ألّف في معناه تودرقوس أسقف طرسوس وسمى كتابه المتدبر، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية، فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة، ومنها كتاب نظمه ثاوريطوس أسقف قورس كتبه باليونانية، ونُقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات، ومنها كتاب أُلف في أيام بني أمية، نظمه يسوعنجت مطران فارس، وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقًا اهـ. وجمع الجاحظ محاسن ما وجد في هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقة، وشرح ما نقل من غيره، وبيَّن القول فيما زاده،

ورتبه ترتيبًا يونق السمع، ويسر القلب، ويبسط السامع، ويوجب الحجة على المخالف.

وقال في مقدمة كتابه «حجج النبوة»: والذي دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها، وجمع وجوهها وتدوينها، أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها وعلى اللفظ المؤثر عنها، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها، ولعل بعضهم، وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها، فلم يعرفها من أسهل طرقها، وأقرب وجوهها، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسي، أو تهاون بها فعمي، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة متخيرة مستقصاة مفصلة أنها ستزيد في بصيرة العالم، ويجمع الكل كمن كان لا يعرف إلا البعض، ويذكّر الناسي ويكون عدة على الطاعن، ولعل بعض من ألحد في دينه، وعمي عن رشده، وأخطأ موضع حظه، أن يدعوه العُجب بنفسه، والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها، ليتقدم في نقضها وإفسادها، فإذا قرأها فهمها، وإذا انتبه من رقدته، وأفاق عن سكرته، لعز الحق وذل الباطل، ولإشراف الحجة على الشبهة، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه، لأن الإنسان لا يباهي نفسه، والحق بعد قاهر له، ومع التلاقي يحدث التباهي، وفي المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع. اهـ.

وقال في مقدمة رسالته «التبصر بالتجارة»: «سألت -أكرمك الله- عن أوصاف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب، وعونًا لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب».

وقال في مقدمة رسالة «الحنين إلى الأوطان»: «إن لكل شيء من العلم، ونوع من الحكمة، وصنف من الأدب، سببًا يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتًا، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقًا، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار، واستنباط الآثار، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله؛ بطلت الحكمة وضاع العلم، وأُميت الأدب، ودَرَس مشهور كل نادرة، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر، لبطل أول العلم وضاع آخره. ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم من الآخر».

وهكذا تراه يتفنن في مقدمات كتبه ورسائله تفننه في تأليفها ووضعها، فقد قال في مقدمة كتابه «البخلاء»: «ذكرت -حفظك الله- أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سُرَّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصنت به كل عورة، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع، ونبهك عليه من غرائب الحيل، فيما عسى أن لا يبلغه كيد، ولا يحوزه مكر، وذلك أن موقع نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب، وقلت: اذكر لي نوادر في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحًا، والراحة جَمامًا، فإن للجد كدًّا يمنع من معاودته، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته». قال: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيين حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهوٍ إذ مللت الجد».

وبدأ كتابه «المحاسن والأضداد» بقوله: «كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون، مثل بناء أردشير وبناء إصطخر، وبناء المدائن والسدِير، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان، وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار، فلها

من البنيان غمدان، وكعبة نجران، وقصر مآرب وقصر مارد، وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان. وتصنيف الكتب أشد تقييدًا للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان؛ لأن البناء لا محالة يدرس، وتعفى رسومه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن، ومن أمة إلى أمة. فهو أبدًا جديد، والناظر فيه مستفيد، وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير.

«وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور، ونقشًا في الحجارة، وخِلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان هو المحفور، إذا كان ذلك تاريخًا لأمر جسيم، أو عهدًا لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأْرب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرُّها - يعمدون إلى المواضع المشهورة، والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراه من مر به ولا يُنسى على وجه الدهور.

«ولولا الحكم المحفوظة، والكتب المدونة، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم يدركه إلا بهم، لقد بُخس حظنا منه. وأهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء، وكتب الملاهي، وكتب أعوان الخلفاء، وكتب أصحاب المراء والخصومات، وكتب السخفاء

وحمية الجاهلية. ومنهم من يفرّط في العلم أيام خموله، وترك ذكره وحداثة سنة».
انظر إلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال في هذا المجال.

وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ، أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره.

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلى بها «إلف تفكير وتنقير، ودَرَّاسة كتب، وحلف تبيين» لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يخلق بالتدوين، ويرد بها على من شهدهم «أملياءَ بالخرافات، أقوياء على رد الصحيح، وتصحيح السقيم». قال في سبب تأليفه «مناقب الترك وعامة جند الخلافة»: «إن ذهبنا، حفظك الله، بعقب هذه الاحتجاجات، وعند منقطع هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك، والموازنة بين خصالهم، وخصال كل صنف من هذه الأصناف، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم، إن كانت مختلفة، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا يغير بضعهم مغير، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة، وشبهات مزورة، فإن المنافق العليم، والعدو ذا الكيد العظيم، قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم»؛ «وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد، فترك ذكر الجميع أصوب، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجميل، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح؛ لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة، وباب من التطوع، وذكر الأقل بالقبيح معصية، وباب من ترك

الواجب، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب، وإنما نتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوي. فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوي دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيها، فهذا لا يُعرف».

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدي نجواه، ما حفزه إلى التأليف، خصوصًا وبعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما تستغرب الكتابة فيه، مثل رسالته في مفاخر السودان. ومثل رسالته في أخلاق الكتاب، جوابًا على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعيانهم، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مشفوعة بالحجة «إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم، ومن القول ما يسكتهم»؛ وقال في غرض تأليف رسالته في القيان: «فوضعنا في كتابنا هذا حججًا على من عابنا بملك القيان، وسبنا بمناداة الإخوان، ونقم علينا إظهار النعم والحديث بها، ورجونا النصر إذا قد بُدينا، والبادي أظلم، ولسان الحق فصيح ونفس المجروح لا يقام لها، وصولة الحليم المتأني لا بقاء بعدها. فبينا الحجة في اطراح الغيرة في غير محرم ولا ريبة».

وذكر في رسالته تفضيل النطق على الصمت أنه وجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام «كلام امرئ قد أعجب برأيه، وارتطم في هواه، وظن أنه قد نسج فيها كلامًا، وألف ألفاظًا، ونسج له معاني على نحو مأخذه ومقصده، أنه كان مَثَله في ذلك مثل من تخلص إلى الحاكم وحده ففلج بحجته، وإني سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحق ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد رده، ولا يمكنه إنكاره وجحده». وفي رسالته في «مدح التجار وذم عمل السلطان»: وهذا الكلام لا

يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان، فأما علْيَتهم ومصاصهم(١) وذوو البصائر التمييز منهم... فيعلمون أنهم (أي التجار) أروح الناس أبدانًا وأهنؤهم عيشًا، وآمنهم سِربًا لأنهم في أفنيتهم، كالملوك على أسرتهم، يرغب إليهم أهل الحاجات، وينزع إليهم ملتمسو البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه، وقاربه بخدمته؛ فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خَوَل مملوءة، قد لبسها الرعب، وألفها الذل، وصحبها ترقب الاحتياج، فهم مع هذا في تكدير وتنغيص، خوفًا من سطوة الرئيس، وتنكيل الصاحب، وتغير الدول، وافتراض حلول المحن، فإن هي حلت بهم، وكثيرًا ما تحل، فناهيك بهم مرحومين، يرق لهم الأعداء فضلًا عن الأولياء».

وقال في رسالته فصل ما بين العداوة والحسد: هذا كتاب -أطال الله بقاءك- نبيل بارع فُصل فيه بين الحسد والعداوة لم يسبقني إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا الكتاب ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب فضل الوعد، وإنما نبلت هذه الكتب وحسنت وبرعت وبذت غيرها لمشاكلتها شرف الأشراف بما فيها من الأخبار الأَنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة مع ما تضمنته من سير الملوك والخلفاء، ووزرائهم وأتباعهم وما جرت عليه أحوالهم.

ومما قال في رسالته في الوكلاء: «وأَخلق بمن كان في صفتك، وأحر بمن جرى عن دربتك، ألا يكون سبب تسرعه، وعلة تشحنه، إلا من ضيق الصدر، وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر، فقد صحّ الآن أن سعة الصدر أصل، وما سوى ذلك

---

(١) المصاص بضم الميم: خالص كل شيء.

من أصناف الخير فرع. وقد رأيتك -حفظك الله تعالى- خوَّنت جميع الوكلاء وفجرتهم، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم، وجمعت جميع العاملين وهجوتهم، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة».

وكانت رسالته في «الرد على النصارى» جواب كتاب جاءه من أحدهم، يذكر فيه من مسائل النصارى قِبَله، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم من اللبس، وما خاف على جواباتهم من العجز، وسأله إقرارهم بالمسائل، وحسن معونتهم بالجواب، قال: «وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم، بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية، والأدلة الاضطرارية، ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم، وانتشار مذهبهم، وتهافت دينهم، ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن، ونسأله القصد في القول والعمل، وأن يكون ذلك لوجهه ولنصرة دينه».

وكتب في كتابه «طبقات المغنين» ما دعاه إلى تأليفه فقال: «إن زمانه خُصَّ بفتية أشراف انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوبًا عن غيرهم، معدومًا من سواهم، فحملني الكلف بهم، والمودة لهم، والسرور بتخليد فخرهم، وتشييد ذكرهم، والحرص على تقويم أود ذوي الأود منهم، حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته، والفضل في معرفته، وعلى تمييز طبقة طبقة منهم، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم، وآلاتهم وأدواتهم، والمذاهب التي نسبوا إليها أنفسهم، واحتملهم إخوانهم عليها، وخلطنا جدًّا بهزل، ومزجنا تعريفًا بتعريض، ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءًا، ولا تعمدنا نقدًا، ولا تجاوزنا حدًّا، ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قومًا، وحابينا آخرين، ولم نفعل لك تحببًا للحيف، بل قصدًا للإنصاف... ولم نقصد في وصف من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم إلا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن

حصل بمدينة السلام... وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين... وقد تركنا في كل باب من الأبواب التي صنفناها في كتابنا فرجًا لزيادة إن زادت، أو لاحقة إن لحقت، أو نابتة إن نبتت، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته إلى ما هو أعلى منها، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها إلى مكانه الذي إليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها، ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزُب عنا ذكره، وأُنسينا اسمه، ولم يحط علمنا به، فنصيره في موضعه ونلحقه بأصحابه، وليس لأحد أن يثبت شيئًا من هذه الأصناف إلا بعلتها، ولا يستبد بأمر فيه دوننا. ويورد ذلك علينا فيمتحنه، ويعرفه بما عنده ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقها، والطبقة التي يحتملها.

فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجُهَّال برب العالمين، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله، وتحريفه عن مواضعه، وإزالته عن أماكنه، التي عليها رسمنا، وأن يقول كل امرئ منهم في ذلك على حاله، وبقدر هواه ورأيه، وموافقته ومخالفته، والميل في ذلك إلى بعض، والذم لطبقة والحمد لأخرى، فيهجنوا كتابنا، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا. وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا، ونبادر إلى تفريق نسخ منها وتصييرها في أيدي الثقات والمستبصرين الذين كانوا في هذا الشأن، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبي صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة في أعناقهم، ونسخة باقية في أيديهم، ووثقنا بهم أمناء ومستودعين، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين، وعلمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا، وحفظ ما عليه ائتمنوا، إذا شيب به شوب يخالفه، وأُضيف إليه ما لا يلائمه». اهـ.

وبدأ كتابه «التربيع والتدوير» بقوله: «كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعًا وتحسبه لسعة جفرته[١] واستفاضة خاصرته مدورًا، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم، وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ وهو مع قصر ساقه يدعي أنه طويل الباد[٢]، رفيع العماد، عاديّ القامة، عظيم الهامة، قد أُعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم، وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد، وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للإنابة عنها على قدر غباوته عنها، وكان كثير الاعتراض، لهجًا بالمراء، شديد الخلاف، كلفًا بالمجاذبة، متتابعًا[٣] في العنود، مؤثرًا للمغالبة مع إضلال الحجة، والجهل بمواضع الشبهة، والخطرفة[٤] عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحاكمة عند الجهل بثمرة المراد، ومغبة فساد القلوب، ونكد الخلاف، وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو، وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار، وما في المجادلة من النكد، وما في التغالب من فقدان الصواب، وكان قليل السماع غمرًا، وصحفيًّا[٥] غُفلًا، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر، ولا يفصل بين اعتزام الغمر، واستبصار المحق، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب، فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا، وكدنا نعتاد

---

(١) الجفرة (بالضم): جوف الصدر أو ما يجمع الصدر والجنبين.

(٢) الباد: باطن الفخذ.

(٣) التتابع: ركوب الأمر على خلاف الناس والتهافت والإسراع في الشر واللجاجة كالتتيع.

(٤) خطرف: أسرع في مشيته.

(٥) الصحفي: الذي يروي الخطأ عن قراءة الصحف أو لا يأخذ عن العلماء، وهي مولدة، والغمر (مثلثة الغين): من لم يجرب الأمور.

مذهبه، ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والبادي، وسكان كل ثغر وكل مصر، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها، وأُعرّف الناس مقدار جهله، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غَربه[1]، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به». وهذا الكتاب من أجمل الكتب التي تجلى فيها فن الجاحظ ومعرفته بالسخرية والتهكم.

وبدأ كتابه «صناعة القواد» بقوله: «أرشدك الله للصواب، وعرفك فضل أولي الألباب، ووهب لك جميل الآداب، وجعلك ممن يعرف عز الأدب، كما يعرف زوائد الغنى، قال أبو عثمان: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله، فقلت له: يا أمير المؤمنين، في اللسان عشر خصال: أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تُدرك به الحاجة، وواصف تُعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومغرّد ترد به الأحزان، وخاصة تُزْهى بالصنيعة، وملهى يونق الأسماع».

وقال في مقدمة كتابه «الحجاب»: «اطال الله بقاك، وجعلني من كل سوء فداك، وأسعدكَ بطاعته، وتولاك بكرامته، ووالى إليك مزيده؛ اعلم أنه يقال -أكرمك الله- : إن السعيد من وعظ بغيره، وأن الحكيم من أحكمته تجاربه، وقد قيل: كفاك أدبًا لنفسك ما كرهت من غيرك، وقيل: كفاك من سوءِ الفعل سماعه، وقيل: إن من يقظة الفهم للمواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ، والعقل إلى تصفيته من القذى، وكانت الملوك إذا أتت ما يجلُّ عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرّض لها بالحديث».

(١) الغرب: التمادي.

ومما كتب في صدر رسالة النساء رادًّا على من حاول الطعن على كتابه، وسخف الرأي الذي دعا إلى تأليفه، والإشادة بذكره: «إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغٍ، ومن قائل مُتكلِّف، ومن سامع طاعن، ومن منافس مقصر، كما أنها لا تنفك من ذي سلامة مستسلم، ومن عالم متعلم، ومن عظيم الخطر، حسن المحضر، شديد المحاماة على حقوق الأدباء، قليل التسرع إلى أعراض العلماء».

وقد طلب إليه أحد أصدقائه الحسن بن وهب أن يكتب له صفات الشارب المشروب، وما فيهما من المدح والعيوب، وأن يُميز له بين الأنبذة والخمر، وأن يقفه على حد السكر، وأن يعرفه السبب الذي يرغب في شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الأوعية - طلب منه هذا فكتبه، فكأنه عاش حياته بين البواطي والجرار والقدور والخمارين والسكيرين والمخمورين؛ وهذا آية إبداعه وعنوان تناهيه في أدبه يحسُّ كل شيء ويحسن وصف كل شيء. قال في مقدمة ما كتب: «أنا -أبقاك الله- الطالب المشغول، والقائل المعذور، فإن رأيت خطأ فلا تنكر، فإني بصدده وبعرض منه، بل في الحال التي توجبه، والسبب الذي يؤدي إليه، وإن سمعت تسديدًا فهو الغريب الذي لا تجده اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك، ويُمن مطالبتك، ولأن ذكرك يشحذ الذهن، ويصورك في الوهم، ويجلو العقل...».

وقال في صدر كتابه في المعلمين: «أعانكَ الله على سَوْرة الغضب، وعصمك من ثورة الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد استعملت في المعلمين نَوْك السفهاء، وخطل الجهلاء، ومفاحشة الأدنياء، ومجانبة سبل الحكماء، وتهكم المقتدرين، وأمن المفترين، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفيت».

وقال في رسالة «المعاد والمعاش»: «فرأيت أن أجمع لك كتابًا من الأدب جامعًا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها، وما اتفقت عليه محاسن الأمم... ورأيت كثيرًا من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهودًا قاربوا فيها الحق، وأحسنوا فيها الدلالة إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعًا لم يبينوا عللها، وصفات حسنةً لم يكشفوا أسبابها، وأمورًا محمودة لم يدلوا على أصولها، فإن كان ما فعلوا من ذلك روايات رووها عن أسلافهم، ووراثات ورثوها عن أكابرهم، فقد قاموا بأداء الأمانة، ولم يبلغوا فضيلة من يستنبط، وإن كانوا تركوا الدلالة على أعيان الأمور التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها، فلم يعدوا في ذلك منزلة الضد بها، ولن تجد وصايا أنبياء الله أبدًا إلا مبينة الأسباب مكشوفة العلل، مضروبة معها الأمثال فألفت لك كتابي هذا وأنا أصف لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق، وفطرت عليها البرايا كلهم، فهم متساوون فيها، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون، وفي المعرفة بها يتولد عنها متفقون...» إلخ.

كتب أبو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه، ومنهم من ذكرت فيها أسماؤهم، ومنهم من لم تعرف كما وقع له في كتاب «حجج النبوة» أن قال: «قد أعجبني -حفظك الله- استهداؤك العلم وفهمك له، وشغفك بالإنصاف وميلك إليه، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه، ورغبتك عن التقليد، وزرايتك عليه، ومواترة كتبك على بعد دارك، وتقطع أسبابك، وصبرت إلى أوان الإمكان، واتساعك عند تضايق العذر، وفهمت -حفظك الله- كتابك الأول وما حثثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين، وقلت: اكتب إليَّ كتابًا تقصد فيه إلى حاجات النفوس، وإلى إصلاح القلوب، وإلى معتلجات الشكوك، وخواطر الشبهات، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من التطويل ومن

التعمق والتعقيد، ومن تكلف ما لا يجب، وإضاعة ما يجب، وقلت: كن كالمعلم الرفيق، والمعالج الشفيق، الذي يعرف الداء وسببه، والدواء وموقعه، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد....» إلخ.

***

أظننا الآن جلينا بعض ما خاض الجاحظ غماره، وجَلَّى في مضاميره من الأبحاث، وما أشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن، وحزب الدولة، وحزب الدين، ويدل الناس على مراشدهم، ويكشف عن عورات الفاسدين، ويعلم قومه الفضائل، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم، يعرفهم الإسلام الحق، ويأتيهم بما يقنعهم، ويزيد إيمانهم وثوقًا، ككتبه في إثبات النبوة ونظم القرآن وفصل ما بين النبي المتنبي.

قال ابن الخياط: «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن –علم أن له في الإسلام غناءً عظيمًا، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له. ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ؛ وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة».

الجاحظ المعلم الأول يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء إلا إذا صح في نظام العقل، ويريدهم على أن تدق ملاحظتهم، ويرهف حسهم، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله أن الدين لا يصلح بغير الدنيا، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى، فتراه يكتب دفاتر مشبعة في ذم الزنى وفي الشارب والمشروب وإثم المسكر، وفي شرائع المروءة، وفي العشق والنساء وفضل ما بين الرجال والنساء، وفي الجواري والمعلمين والطفيليين والمغنين، وفي العرجان والبرصان والقرعان، وفي

الأسماء والكنى والألقاب والأنباز، وفي الأُنس والسلوة، وفي حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار، ويكتب في المعادن والتجارة، وقلما ترى له تخليطًا يذكر إلى جانب تخليط غيره من قدماء المؤلفين.

ذكر الجاحظ بني مروان وبني أمية في رسالة ما لهم وما عليهم، مع أنه لا يتولاهم؛ يقول المسعودي -وقوله يؤخذ أبدًا بتحفظ-: إن الجاحظ ألف كتابًا بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية، وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده لكن فعل ذلك تماجنًا وتطربًا، وقد صنف كتاب استقصى فيه الحجج ترجمه بكتاب العثمانية، يُحيل فيه عند نفسه فضائل علي ومناقبه، ويحتج فيه لغيره، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانية وأقوال شيعتهم. قال: رأيته مترجمًا بكتاب إمارة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان في الانتصار له من علي بن أبي طالب وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية، ويؤيد فيه إمامة بني أمية وغيرهم، ثم صنف كتابًا آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيها ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين عليٍّ ومن تبعه. اهـ.

وهاك ما قاله فيما عيب عليه من كتبه، وكأنه جواب لمخالفيه، والمسعودي داخل في زمرتهم: «وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء، ومفاخر السودان والحمران، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة. وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أي موضع يغلبن ويفضلن، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيهما في الولد أوفر، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب، وأي عمل هو بهن أليق، وأي صناعة هن فيها أبلغ.

وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية، وفي الرد على القحطانية، وزعمت أني جاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية، وأني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية. وعبتني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم. وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم، هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب. ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثر والجهل بما في المُعاد من الخطل، وحمل الناس المؤن. وعبتني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلة، مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البَدَدة، والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة أشد الديانيين إلفًا لما دانوا به، وشغفًا لما تعبدوا له، وأظهرهم جدًّا، وأشدهم على من خالفهم ضغنًا.

وعبتني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض وفي اختلاف أجناس الفلز، والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف. وعبتني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجن، وكيف القول في استيلاء العفريت على سليمان وفي الهدهد، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب، وما الذي هو ذلك العلم، وما تأويل قولهم كان.

وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول في الأرزاق والإنفاقات، وكيف تجرد التجار الحرفاء، وكيف الاحتيال للودائع؛ وبكل ما كتبت إلى إخواني

وخلطائي من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقيًا، ومديح لا يزال أثره ناميًا، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي. وعبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهاري لها في أتم حلية، وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد السرف والإفراط فيه؛ وزعمت أن مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضة، وأن مقالة الرافضة خطيئة مقالة الغالية. وزعمت أن في أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل.

وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة، وعبت القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وعبت معارضتي للزيدية، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصراني واليهودي، ثم عبت جملة كتبي في المعرفة، والتمست تهجينها بكل حيلة، وصغرت من شأنها، وحططت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبت كتاب الجوابات، وكتاب الرسائل، وكتاب أصحاب الإلهام، وكتاب الحجة في تثبيت النبوة، وكتاب الأخبار، ثم عبت إنكاري بصيرة غنام المرتد، وبصيرة كل جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغمر، وبين استبصار الملحد، وعبت كتاب الرد على الجهمية في الإدراك، وفي قولهم في الجهات، وكتاب فرق ما بين النبي والمتنبي، والفرق ما بين الحيل والمخارق، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة، ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير».

(١) الميسم: المكواة.

وبعد فقد رأينا كيف عاب ذلك العائب كتب الجاحظ حتى لم يكد يبقى له كتابًا، وإن بلغ في إحكامه شوطًا بعيدًا، لقد لقي هذا الإمام الألاقي[1] من خصومه المشاغبين والمعارضين، ولكن ذهبت أقوالهم في الريح، وذهب هو بالإحسان، ثبتت مصنفاته وانتشرت وانقرض الثرثارون وما ثرثروا به، وأي عصر، وأي مذهب، وأي جنس خلا من أمثالهم.

كان يقال: أربعة لم يحلقوا ولم يسبقوا: أبو حنيفة في فقهه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره؛ وحقيق على من تصفح تآليف الجاحظ واتساعه فيها، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه أن يعذر الناس في كل عصر لإعجابهم بما كتب، ولا يستنكرون من الاستنباط بأن العالم كانوا يرقبون صدور كتبه كما يتوقع المحدثون اليوم صدور صحف الأخبار، وورود الإذاعات في الأيام العصيبة وكان هو يعرف لنفسه هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس. قال بعضهم للجاحظ: مثلك في علمك ومقدارك من الأدب ينشد قوله:

منطـــق صـــائب وتلحـــن أحيـــا نًـــا وخـير الحـديث مـا كـان لحنـًا

ويفسره على أنه أراد اللحن في الإعراب، وإنما وصفها بالظرف والفطنة، وأنها توري في لفظها عن أشياء. قال: قد فطنت لذلك بعد، ولما أشار عليه ناقده أن يغير تفسيره قال: كيف لي بما سارت به الركبان؟

ومن البراهين على اتساع شهرته في حياته ما قيل لأبي هفان وقد طال ذكر الجاحظ: لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ثلبك وأخذ بمخنقك؟ فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة.

(١) الألاقي: الشدائد.

سياسته ودهاؤه:

الجاحظ رجل سياسة أيضًا كما هو مِعَنٌّ مِفَن[1]، عرف سياسة الوقت معرفته سياسة العلم. ومع اعتياده عادة العلماء كما قال ابن خلدون (النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أمورًا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص، ولا جيل ولا أمة، ولا صنف من الناس) مع اعتياده هذا اشترك في الدفاع عن كيان الدولة، وقصر وُكْدَه على الأمور الكبرى، وما دخل في تفاصيل السياسة العباسية، ولو شارك فيها لكثر غلطه عند إرادته إفراغ السياسة في قالب أنظاره، ونوّع استدلالاته، من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض.

وأقل نظرة في كتبه تنبئك بأنه آزر في خدمة دولته، وأسفاره في الفرق ما بين «هاشم وعبد شمس»، و«الرسائل الهاشميات»، و«العباسية»، و«العرب والموالي»، و«العرب والعجم»، و«وجوب الإمامة»، و«الدلالة على أن الإمامة فرض»، و«مناقب الترك» كلها شاهدة أنه ساهم السياسيين إلى الحد الذي استجازه لنفسه. وإنا إذا نظرنا إلى اتصاله بوزراء الدولة، وإلى حرص كل واحد منهم على أن يختص به دون غيره، ندرك أن من شغفوا بصحبته للانتفاع بفضله، والاستمتاع بحديثه، لا بد أن يحاولوا حمله على معاونتهم على حل مشاكلهم علمًا منهم بتأثير كلامه في الأفكار؛ ومنهم من كان يعمل لدولته في حاضرها، ويهتم لمستقبلها، أمثال: ابن خاقان، وابن أبي داود، وابن الزيات.

ومن يؤلف كتاب الفرق ما بين هاشم وبني عبد شمس، لا يعقل إلا أن يسير إلى جنب بني هاشم، وهم أصحاب الدولة القائمة، والجاحظ خصوصًا بحكم

---

(١) رجل مفن كمسن: يأتي بالعجائب، والمعن: الخطيب، ورجل معن مفن: ذو فنون من الكلام.

مذهبه لا يتولى بني أمية. ومن يؤلف «الهاشميات» و«كتاب العباسية» لا يتوخى غير خدمة العباسيين، ولا يكتب إلا ما ينفع الهاشميين. وشيء آخر وهو أن أبا عثمان لو لم يتخذ هذه الخطة السياسية، يراعي الخلفاء، وأبناء الدعوة ووزراءهم، لاستضعفه أعداؤه؛ وكان له أعداء في مذهبه، وأعداء في علمه وفكره، وحساد غلاظ شداد من طبقة العلماء، وطواغيت أغبياء، يكرهون برداءة فِطرهم كل من ينبغ ويشتهر. هذا وفي أرض المملكة ألوف من المعجبين به وأكثرهم من الخواص، والعوام متسلطون عليهم في أغلب الأزمان والبلدان؛ فلولا السياسة التي اتبعها الجاحظ، ولولا ما أدرك المخالف والموالف، أن له موقعًا عند السلطان، وأنه يرعاه ويبسط عليه جناح رحمته، لناله شيء من أذى العامة والخاصة، بإيعاز أنصار السوء؛ فأبو عثمان اتخذ الطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يدًا عند الخلفاء ورجال الدولة فغدوا له قوة وسندًا.

انظر إلى قوله في جملة طبقات الناس: «وضرب آخر من الناس همج هامج[1] ورعاع منتشر، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم، أعراب أجلاف، وأشباه الأعراب، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا، إن أخصبوا طغوا في البلاد، وإن أجدباو آثروا العناد، ثم هم موكلون ببغض القادة، وأهل الثراء والنعمة، يتمنون النكبة، ويشمتون بالعثرة، ويسرون بالحَوْلَة[2]، ويترقبون الدائرة، وهم كما وصفوا الطّغام والسفلة».

وقال من رسالة في وصف العوام: «قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامة وما لهم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة وليست للخاصة طاقة بالعامة

---

(١) همج هامج توكيد مثل ليل لائل، والهمج: الرعاع من الناس، وقيل: هم الأخلاط، وقيل: هم الهمل الذين لا نظام لهم. وكل شيء ترك بعضه يموج في بعض فهو هامج.

(٢) الحولة: التحول والانقلاب.

ولا للعلية قوة على السفلة. وقد قالت الأوائل فيهم، وفي الاستعاذة بالله تعالى منهم، فقال علي رضي الله عنه: نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقال واصل بن عطاء: ما اجتمعوا إلا ضروا، ولا تفرقوا إلا نفعوا. قيل له: قد عرفنا مضرة الاجتماع، فما منفعة الافتراق؟ قال: يرجع الطيان إلى تطيينه، والحائك إلى حياكته، والفلاح إلى فلاحته، وكل إنسان إلى صناعته، وكل ذلك رفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين. وكان عمر بن عبد العزيز إذا نظر إلى الطغام والحشوة قال: قبَّح الله هذه الوجوه التي لا تُعرف إلا عند الشر...».

هو يعتقد أن الشر غالب على طباع العامة، وإذا تدبرنا كلامًا له مثلًا، يعتذر فيه عن السلطان ويعلل سبب نقمة بعضهم عليه، لا نتحرج من أن نذهب إلى أن هذا الفصل ما كتبه إلا ليقلل من شأن الناقمين على السياسة يومئذ، وجوابه المقدر أصح جواب بقوله سياسي، وهذا هو «السلطان لا يخْلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زارٍ، ومن متعطل متصفح[1]، ومن مُعْجب برأيه ذي خَطل بيانه، مولع بتهجين الصواب، والاعتراض على التدبير، حتى كأنه رائد[2] لجميع الأمة، ووكيل لسكان المملكة، يضع نفسه في موضع الرقباء، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء، لا يعذر وإن كان مجازُ العذر واضحًا، ولا يقف فيما يكن للشك محتملًا، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله، ومن محروم قد اضطغنه[3] الحرمان، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقه، وهو لجهله بقدره، ولضيق ذرعه، وقلة شكره، يظن أن الذي بقي له

(١) الزاري: العائب، والمتصفح: الذي ينظر في الأمر بإمعان، وتهجين الأمر: تقبيحه.

(٢) الرائد: الذي يرسل في طلب الكلأ.

(٣) اضطغنه: جعله مشتملًا على الضغن وهو الحقد.

أكثر، وأن حقه أوجب؛ ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده، ونعمه السالفة عليه، لكان لذلك أهلًا، وله مستحقًّا، قد غره الإملاء، وأبطره دوام الكفاية، وأفسده طول الفراغ؛ وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة، نعَّاق في الهرج، قد أقصاه عز السلطان، وأقام صغوه ثقاف الأدب(١)، وأذله الحكم بالحق، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع، ولا يتشفى بغير الإرجاف، ولا يستريح إلا إلى الأماني، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب، ومفتون مرتاب، وحارص لا خير فيه، وخالف لا غَناء عنده، يريد أن يسوّى بالكفاة، ويرفع فوق الحماة لأمر سلف له، ولإحسان كان من غيره، وليس ممن يربُّ(٢) قديما بحديث، ولا يحفل بدروس شرف، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين، وبين الحفظ لأبناء المحسنين، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام، وثواب الكفاية، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازله».

كتب هذا إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل في المشكلة التي كان يراها رجال الدولة من أهم ما يُعالج يومئذ، وهي مسألة اللغط في الجيش من تسرب الأتراك إليه. ومن يقرأ رسالته في مدح الأتراك لا يصعب عليه أن يدرك أن الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته، كان هنا يُجمجم ولا يصرح، هو بحكم دمه وتربيته ومنشئه يحب العرب، ويعد سائر الأمم دونهم في المنزلة والجنس، ويرى أن نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، ويقول: «فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم؟». ويدعي أنه: «لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، كما أنه ليس في العرب لقريش نظير، وكما أنه ليس في العرب للناس نظير». وأكثر أبناء دعوته من الترك في

(١) الصغو: الميل، والثقاف كسحاب: ما يسوى به الرماح؛ أي يثقفها، والنعيق: صوت الراعي بغنمه، والهرج: الفتنة والاختلاط.

(٢) ربّ الأمر: إذا ساسه وقام بتدبيره.

الجيش؛ وصارت للأتراك في الدولة الكلمة المسموعة، فصبا إلى أن يوفق بين المصلحتين، مصلحة الدولة في القضاء على تحاسد العناصر في جيشها، والخوف من هؤلاء الأتراك، وقد بدت طلائع سلطانهم، وتجلى بطشهم وفتكهم، وكادت تعرف مراميهم. وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب في كتابه هذا، وإلى معذرة فيما مَوَّه فيه، فقد نفع نفسه بأن أرضى الأتراك، ونفع دولته بأن أهدأ الأفكار الثائرة، وبضع صفحات من كلام الجاحظ أفعل في الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والضن بصداقته.

عالج بما رأى مسألة تكاثر الأتراك في الجيش، وربما أحنق لثنائه على الترك نفوس بعض العرب عليه، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته. وعالج أيضًا مسألة سياسية أخرى، عنينا مسألة الشعوبية[1] من العجم أعداء العرب، وقد رأى التناحر بين الفريقين يؤدي إلى انقسام المملكة على نفسها، إذا فسد تركيب الجيش، وإذا فسد تركيب الأمة، فهب بما أوتيه من حكمة يقاتل الشعوبيين، ويصغر من شأنهم، ويرفع من قدر العرب، وما غايته من ذلك إلا خدمة الدعوة العباسية، ويقول في الطعن عليهم: «واعلم أنك لم ترَ قومًا أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنمًا من أهل هذه النحلة. وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة».

---

(١) الشعوب هم الأعاجم، وفي العقد: أن العرب تسمي العجمي إذا أسلم المسلماني، ومنه يقال: مسلمة السواد، والهجين عندهم الذي أبوه عربي وأمه أعجمية، والمذرع الذي أمه عربية وأبوه أعجمي، والعجمي النصراني ونحوه وإن كان فصيحًا، والأعجمي الأخرس اللسان وإن كان مسلمًا، ومنه قيل: زياد الأعجم، وكان في لسانه لكنة؛ ودعي الفرس بالموالي في الإسلام، وكانوا يسمون أبناء الأحرار في الجاهلية.

حارب الشعوبية في البيان والتبيين وحاربهم في كتاب الموالي والعرب، وحاربهم في رسالة النابتة، وربما في مواضع أخرى لم تنته إلينا من أقواله، وحارب الموالي لكراهته (العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقي دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب) قال: «وليس أدعى إلى الفساد، ولا أجلب للشر من المفاخرة، وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك، وهو مقر أنه صار شريفًا بعتقك إياه».

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة في مداواة هذين الجرحين النغارين في جسم المملكة، ناقش من يتنازعون في صميم الجيش ومن يتنازعون في صميم الأمة، وكال بالكيل الوافى لكل من يدعي هذه الدعوى من الخاصة والعامة، خلافًا لابن قتنية الذي ادّعى أن الشعوبية الذين عادوا كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى؛ فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم، وأهل الديانة، فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسبًا ثابتًا. أي أن هذه العداوة التى كان العامة يبطنونها ويظهرونها للعرب، كان الخاصة من الفرس براء منها. والجاحظ أعقل من أن يغتر بالظواهر، وهو يدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر. ويقول: إن «الفرس أصحاب تنفج وتزيد، ولا سيما فى كل شيء مما فى باب العصبية».

يفترص الجاحظ كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية وينوّه برجالها، فقد ذكر الكبر والمتكبرين فى العرب، وانتهى به الكلام إلى مدح هاشم في هذا الشأن، على أسلوب تعتقد صحة كل ما وري لك، تأمل كلامه في هذا المعنى ولعلك تشاطرنا الرأي في أن الجاحظ بالغ بالحط من خصوم العباسيين ليخرج من ذلك إلى مدح من استلزمت سياسته تجميل صورتهم قال:

«والمذكورون من الناس بالكبر، ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زُرارة بن عُدس خاصة؛ فأما الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا، وأنفسهم إلا أربابًا، ولسنا نخبر إلا عن دهماء الناس وجمهورهم، وكيف كانوا من ملوك وسُوقة، والكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود؛ وعلى الجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمُحَقَّرين أدنى قدرة، ظهر من كبره على من تحت قدرته، على مراتب القدرة ما لا خفاء به، فإن كان ذميًّا وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك، واستظهرت[١] به طبيعته، بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق، وحياص[٢] ذلك الفتق، وسد تلك الثلمة، فتفقَّد ما أقول لك فإنك ستجده فاشيًا. وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكًا من الحر. وشيء قتلته علمًا، وهو أني لم أرَ ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه، فأما بنو مخزوم وبنو أمية وجعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عُدَس فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي إنصافهم لمن دونهم».

ونقل الثعالبي أن الجاحظ لم يترك مزيدًا في وصف قريش ومدحه إياهم وتخصيصه بني هاشم، فإنه رحمه الله ألقى جُمَّة[٣] فصاحته، واستنزف بحر بلاغته في فصل له وهو قوله: «العرب كالبدن، وقريش روحها، وهاشم سرها ولبها، وموضوع غاية الدين والدنيا منها، وهاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلي العالم،

(١) استظهر به: استعان.

(٢) حاص الثوب: خاطه.

(٣) معظم.

والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق ومعدن الفهم، وينبوع العلم، ومناهل الظامئ إلى الحلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والإغضاء عن العثرة، والعفو عند المقدرة، وهم الأنف المقدم، والسنام الأكوم [١]، والعز المشمخر، والصيابة[٢] والسر، وكالماء الذي لا ينجسه شيء، وكالشمس لا تخفى بكل مكان، وكالنجم للحيران، والماء البارد للظمآن، ومنهم العُمَران، والطيبان، والسبطان، والشهيدان، وأسد الله، وذو الجناحين، وسيد الوادي، وساقي الحجيج، وحليم البطحاء، والبحر والحبر، والأنصار أنصارهم، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم، والصديق من صدقهم، والفاروق من فرَّق بين الحق والباطل منهم، والحواريُّ حواريهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو انضاف إليهم؛ وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين، وإمام الأولين والآخرين، وسيد المرسلين، وخاتم النبيين».

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو في مدح بني هاشم وهو قوله: كانت الطواعين تقع كثيرًا فتصير تواريخ كطاعون عمواس، وطاعون العذارى، وطاعون الأشراف وغيرها. ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والمُوتان الجارف عن بني آدم، فإنها كانت تحصد فيهم حصدًا. وفي ذلك يقول العمَّاني للرشيد:

قد أذهب الله رماح الجن ... وأذهب التعليق والتجني

رماح الجن: الطاعون؛ ويشير بالتعليق والتجني إلى ما كان من بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد.

---

(١) الأكوم: المرتفع.

(٢) الصياب والصيابة بضمهما ويخففان: الخالص الصميم والأصل والخيار من الشيء، والصيابة: السيد. واشمخر: طال، والمشمخر: الجبل العالي.

وكلامه هذا منقوض بوثائق التاريخ، فإن الأمويين كانوا أرحم في باب الجباية من العباسيين؛ وفي رسالة الخراج لأبي يوسف وصف كثير لما كان يعذب به الناس في الخراج في دهر بني العباس، على ما لم يعهد بعضه في زمن بني أمية.

وبعد فإنك لا ترى في كل ما سلم من كتابات الجاحظ إلا تناسيًا منه لما يرتكب من المآثم في البلاد، والسلطان في العادة والعرف هو مسئول عنها في الدرجة الأولى، ووجهة نظره في سياسته استصلاح الجمهور ليصلح القائمون عليه بالضرورة، ومن لطيف مأتاه ألا ينبه الأذهان إلى عيوب الدولة لأنه يحاذر عليها أعداءها، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها. ولعل الجاحظ كان يعرف من عيوب رجالهم وعمالهم ما لايعرفه كثير من كبراء الدولة في عصره، وقصاراه الإغضاء اضطرارًا لا اختيارًا، فهو يوجه نقده إلى الكثرة الغامرة من الأمة، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة.

ولا يؤخذ من هذا أن الجاحظ صانع رجال الدولة، ولو كان يحاول ذلك، ولا يحس مقدار قبح هذه الصفة لاعتذر عنهم في أكثر ما تم على أيديهم وأيدي أتباعهم من الشرور والمظالم، ولأقام لهم الأعذار، وهو لا يعدم حجة، ولا يقصر في بلاغة، بيد أنه رأى الإغضاء وإسدال الستر على ما هنالك، وانطلق يضرب فيمن ينالون من السلطان بما اختار لقيام أمره من أجناس غير عربية أغضبت العرب، وبمن يكيدون من الشعوبيين أعداء العرب، وهواه أبدًا مع بني هاشم، زيّنهم في عينه كونهم أصحاب السلطان. وهو القائل: «وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم». ثم إن قصوره قليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لأنه يَعُدُّ الكذب كبيرة، ويكره التزيد في كل شيء، فإذا موَّه موَّه بعقل، وإذا أحب قد يترك مجالًا لحفظ خط الرجعة كما نقول اليوم، لا يَعْمى

عما ظهر من السيئات، وإن اضطرته الحال إلى إغماض الطرف عن تردادها في الفترات. قال لأحد العظماء من رسالة: إنك ستُمنى بصحبة السلطان الحازم العادل، وبصحبة السلطان الأخرق الجهول الغشوم، فالحازم العادل يسوسه لك الأدب والنصح، والأخرق يسوسه لك الحيلة والرفق.

تهكمه وتنادره:

قلَّ في العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذي تذوقه الجاحظ. جد جدًّا لم يبلغه غير أفراد في الآباد، وهزل هزلًا قوي به على معاودة الجد، فروَّح عن نفسه وعمن حفَّ به وقرأ كتبه. أدرك أن مرارة الدنيا لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة والإحماض، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلطف من شِرَّة الدنيا وشقائها. تعمد، وهو العليم بأن الضحك والإضحاك خُلقا مع البشر كالبكاء والإبكاء، أن يهذب الناس في هذه الناحية. والمرء يتعلم بالضحك أكثر مما يتعلم بالعبوس. وهو يريد أن لا يكون المرء جامدًا ولا سائلًا بل يف حالة بين بين.

قال: «وإذا كان البكاء الذي ما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر، وأفسد الدماغ، ودلَّ على السخف، وقضى على صاحبه بالهلع، وشبّه بالأمَة اللكعاء، وبالحدث الضّرَع كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه. ولو كان الضحك قبيحًا من الضاحك، وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزهرة والحَبَرة والحلي والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكًا. وقد قال الله -جل ذكره-: {وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا} فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت. وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمنُّ على خلقه بالنقص. وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيمًا، ومن مصلحة الطباع كبيرًا، وهو شيء في أصل الطباع، وفي أساس التركيب، لأن

الضحك أول خير يظهر من الصبي، وقد تطيب به نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته. ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق. وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم ومزح، وضحك الضاحكون ومزحوا، وإذا مزحوا قالوا: هو ضحوك السنّ، وبسّام العشيات، وهشٌّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزاز. وإذا ذموا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المحيا، وهو مكفهر أبدًا، وهو كريه، ومقبّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوح، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصّر عنهما أحد، صار الفاضل خَطَلًا، والتقصير نقصًا، فالناس لم يعيبوا الضَّحِك إلا بقَدْر، ولم يعيبوا المزح إلا بقَدْر، ومتى أُريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جدًّا، والضحك وقارًا» اهـ. ذكر ابن عباس في تفسير قول الله عز وجل: {لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك.

وقال في تعليل استعمال الهزل وفي منافعه ومضاره وفي حكمته وغايته: «إن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال، والجد في كل مقال، وتركوا التسميح والتسهيل، وعَقّدوا في كل دقيق وجليل، لكان السفه صراحًا خيرًا لهم، والباطل محضًا أردَّ عليهم، ولكن لكل شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه، وكذلك المنع والبذل، والعقاب والعفو، وجميع القبض والبسط، فإن ذممنا المزاح، ففيه لعمري ما يذمُّ، وإن حمدناه، ففيه ما يحمد، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع، وحاله بحال السخف أَشبه، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم، وينعى حتى يكون

كالغدر، فلا؛ لأن المزاح مما يكون مرة قبيحًا ومرة حسنًا، والظلم لا يكون مرة قبيحًا ومرة حسنًا.

والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان، وهو باب متى فتحه فاتح، وطرق له مطرّق[1]، لم يَمْلِك من سده مثل الذي يملك من فتحه، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه؛ لأنه باب أصل بنائه على الخطأ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف، ومن شأنه التزيد، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ، ولم نرَ شيئًا أبعد من شر، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافًا، ولا أكثر خلطًا، من الجد والمزاح، والمناظرة والمراء.

وقد ذهب الناس في المزاح إلى معان متضادة، وسلكوا منه في طرق مختلفة، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان، وأن الحمد والذم بينهما نصفان. فأما المحامي على الهزل والمفضِّل للمزح، فإنه قال: أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى، وأن الجدَّ غضب، والمزح جَمام، والجد مبغضة، والمزح محبة. وصاحب الجد في بلاءٍ ما كان فيه، وصاحبِ المزح في رخاء إلى أن يخرج منه. والجد مؤلم، وربما عَرَّضك لأشد منه، والمزح ملذٌّ، وربما عرضك لألذ منه. فقد شاركه في التعريض للخير والشر، وباينه بتعجيل الخير دون الشر.

وإنما تشاغل الناس ليفرغوا، وجدُّوا ليهزلوا، كما تذللوا ليعزُّوا، وكدّوا ليستريحوا، وإن كان المزح إنما صار معيبًا، والهزل إنما صار مذمومًا؛ لأن صاحبه لا يكون إلا معرَّضًا لمجاوزة القدر، ومخاطرًا بمودة الصديق، فالجد داعية إلى الإفراط،

(١) طرق طريقًا: سهله حتى طرقه الناس بسيرهم، وطرق لي: أخرج.

كما أن المزح داعية إلى مجاوزة القدر، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين، فقد ساواه المزاح فيما هو له، وباينه فيما ليس له، وإن كان المزح قبيحًا لأنه يورث الجد، فأقبح من المزح ما صيَّر المزح قبيحًا، وإذا صار المزح قبيحًا، لأن الذي يكون بعده الجد، ولم يصير الجد قبيحًا، لأن الذي بعده المزح، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد، لأن ما جعل الشيء حسنًا أحسن من الشيء، وأما الذي عدل بينهما، فإنه زعم أن المزح في موضعها كالجد في موضعه، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه.

ولكل شيء موضع، وليس شيء يصلح في كل موضع، وقد قسم الله الخِيرة على المعدلة، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة، وعلى الإعلان والتقية، فأمر بالمداراة، كما أمر بالمباداة، وجوَّز المعاريض، كما أمر بالإفصاح، وسوَّغ في المباح، كما شدد في المفروض، وجعل المباح جَمامًا للقلوب، وراحة للأبدان، وعونًا على معاودة الأعمال، فصار الإطلاق كالحظر، والصبر كالشكر، وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله، ولا في السراء شيء إلا وله في الضراء مثله، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضًا، وبالصدق صرفًا، وبمرّ الحق صفحًا، لهلك العوام، وانتقض أمر الخواص، ولو ذكر الإنسان كل ما أُنسيه لشقي، ولو جدَّ في كل شيء لانتكث، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلمًا، كما يكون النسيان للسلامة سببًا، وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط. فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم».

أبان أبو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه في الهزل والجد، وفي مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره في ذلك. وما ندري إن كانت حقيقة هي آراؤهم أم هو تصور أنها

آراؤهم فأوردها بهذه الصيغة، ونسجها هذا النسج. اعتاد الإنسان المزاح والتنادر والمرح، ولكن إدخال ذلك في هذا القالب العلمي وتدوينه بالتأليف مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد فيما نحسب، إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شئونها، ومطرز نصوصها ومتونها.

قال: إن «أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الفراغ والخلعاء، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات، وكتب أصحاب المراء، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية، لأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولائمة الأدباء».

وقال لقارئ كتابه الحيوان: «وإن كنا قد أمللناك بالجد، وبالاحتجاجات الصحيحة والممزوجة، لتكثر الخواطر وتشحذ العقول، فاستنشطتك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه ما لا يبلغه أحرُّ النوادر وأجود المعاني، وأنا أستظرف أمرين استظرافًا شديدًا؛ أحدهما استماع أحاديث الأعراب، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئًا، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب... فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة».

فهو إذًا يتعمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد، لأن (الأذن مجاجة وللنفس حمضة) كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن (المزاح إذا كان حقًّا

أو مقاربًا، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلًا، ليس من القبيح ولا المنكر، ولا من الكبائر ولا من الصغائر، ورغبات الناس متفاوتة)، وإنما الكتاب (مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين). ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة: أن الأذن لا تعي كل ما تسمعه وهي مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام. هكذا شرحها الجاحظ وقال: إنها كلمة للقدماء[1].

وقال: «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابها على الجد الصرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحق المر، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحًا ببعض الهزل، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جده ثقل، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ، وينفي النعاس عن المستمع».

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر، وما ينفعهم وما يضرهم، وما يخملهم وما يحمسهم، فقال: «وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع، وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضًا غير منشرح، وأن يرى لونه إلى الصفرة والكمود من غير مرض، وأن يكون طائش القلب، وأن يكون للدعابة والمزاح كارهًا وله عائبًا، وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة. ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلًا طلقا، ذا منظر بهي، وكلام شهي، سبط الجبين غير منقبض، ولا نزق غلق[2] قلق، وغير كاره للدعابة والمزاح، يذكر من يذكر بخير، لين المحاورة متواضعًا»، «ورجال الجد غير

---

(١) في اللسان: وفي حديث الحسن رضي الله عنه: الأذن مجاجة وللنفس حمضة، معناه: أن للنفس شهوة في استماع العلم، والأذن لا تعي ما تسمع ولكنها تلقيه نسيانًا، كما يمج الشيء من الفم.

(٢) الغلق: الضيق الخُلق السر الرضا، والغلق الكثير الغضب أيضا.



رجال الهزل، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ، ولولا التحصيل والموازنة، والإبقاء على الأدب والديانة لشدة المحاسبة، لما قالوا: لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال».

***

ربما لم ننس أن الجاحظ كان دميم الوجه، قبيح التقاطيع، مختل القسمات، وكان الأخفش أحد مشايخه -والأخفش: الصغير العينين مع سوء بصرهما- أجلع أيضًا -والأجلع: الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه- ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا إذا اجتمعا، والجاحظ ناتئ العينين، تألفت منهما صورتان غريبتان. ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا أن يفارق شيخه بعد أن أخذ ما عنده، وآثر أن يبقيا صديقين لبعض المشاكلة في الصورة والخَلق، ولعل الجاحظ ما تعفف كثيرًا عن العبث بأستاذه، وهو ابن النكتة الحارة لا الباردة، وعنده أن (النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدًّا، وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحارة جدًّا أو الباردة جدًّا). ولذا كان يحكي نوادر العوام بألفاظ العوام، حتى لا تفقد النكتة حليتها الأولى ومؤثراتها الخاصة. وقال عن نفسه: إنه وُصِفَ للخليفة المتوكل لتأديب أحد أولاده، فلما رأى صورته استبشعها فصرفه. وأنه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولدًا يكون بحسنها وذكائه، فولدت له ولدًا جاء بقبحه وجهلها.

ومن نكاته قول: «ومن البخلاء المذكورين أبو الهُذيل، أهدى مرة إلى يونس بن عمران دجاجة، وكانت دون ما يُتخذ ليونس، إلا أنه لكرمه وحسن خلقه، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها، فقال له: كيف رأيت يا أبا عمران تلك

الدجاجة؟ قال: كانت عجبًا من العجاب، قال: أوَتدري ما حسنها، وتدري ما سمنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالسمن والحسن، وتدري بأي شيء كنا نسمنها، وفي أي مكان كنا نعلفها؟ ولا يزال في هذا، ويونس يضحك ضحكًا نعرفه نحن، ولا يعرفها أبو الهذيل؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال: أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة، وإن ذكروا بطة أو عَناقًا[1] أو جزورًا أو بقرة قال: فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج، وإن استسمنوا شيئًا من الطير أو البهائم أو الدجاج قال: لا والله، ولا تلك الدجاجة؛ وإن ذكروا عذوبة الشحم قال: عذوبة الشحم تُصاب في البقر والبط وبطون السمك والدجاج، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج، وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال: كان ذلك قبل أن أهدي إليك تلك الدجاجة بشهر، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلا يوم، وكانت مثلًا في كل شيء، وتاريخًا لكل شيء».

ويونس بن عمران من أرباب البيوتات في البصرة كان، وهو الذي رضخ للجاحظ بدنانير ابتاع بها ما يقتات به، وأخرج أبا عثمان من تهكم أمه به وبدفاتره لأول أمره، على ما مر بنا في الفصل الذي عقدناه لوصف نشأته ونعمته. وعلينا أن نتأمل في هذه القصة قوله: «ويونس يضحك ضحكًا نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل».

فالجاحظ كما رأيت يسلي نفسه بهذه المداعبات، ويبسم ابتسام العظمة، وإذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوئ الدهر فقال جادًّا يصف استحالة الزمان، وفساد الأيام، ودولة الأنذال: «وقدمًا كان يقال: من قدم الحياء على نفسه، وحكم الصدق في قوله،

---

(١) العناق كسحاب: الأنثى من المعز.

وآثر الحق في اموره، ونبذ المشتبهات عليه من شئونه؛ تمت له السلامة، وفاز بوفور حظ العافية وحمد مغبة مكروه العاقبة، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته، فوجدنا الحياء متصلًا بالحرمان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكل، دليلًا على سخافة الرأي».

وبعد أن قال فيمن وجد فيه الفسولة الواضحة، والمثالب الفاضحة، إنه: إن زلَّ قيل: حَكُم، وإن أخطأ قيل: أصاب، وإن هذى في كلامه وهو يقظان، قيل: رؤياء صادقة من نسمة[1] مباركة. قال: فهذا دليل أن الصلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره وصارت الدائرة عليه، كما كانت الدائرة على ضده. ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه، ووجدنا الشعر ناطقًا على الزمان ومعربًا عن الأيام حيث يقول:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولاقِهم بالجهل فعلَ أخي الجهل
وخلّط إذا لاقيت يومًا مخلطًا ... يخلّط في قول صحيح وفي هزل
فإني رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال: «فوالله ما عُذِّبت أمّة برجفة ولا ريح ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة، والأخبار المهلكة، كأن الزمان توكل بعذابي، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من تكره رؤيته، ونغمة من تغمه طلعته».

وهذه هي الناحية العابسة من نفس الجاحظ المرحة، رأيته هنا يذكر ما يحيط به من المكدرات والمضنيات حتى ليسيء ظنه بالصلاح، ويفضل عليه الطلاح، شأن المتشائمين والسوداويين.

---

(١) في رواية: في سنة.

ورأيناه في مكان آخر يمتدح من عصره فقال: «وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على أنَّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع المناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وخوى نجم التقيد، وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم».

ونفس عُمِّرَت كثيرًا، واختلفت عليها الأحوال قبضًا وبسطًا، وخفضًا ورفعًا، من مثل نفس الجاحظ لا تكون على حالة واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر: رأى من الخلفاء أشكالًا، ومن الأمراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات، ومن الناس من لا يحصيهم غير خالقهم، ومن ضروب الأخلاق ما لا تتسع لذكره الأوراق، وليس من شأن الدهر أن يثبت على حالة بعينها حتى يفسح للجاحظ أن يعيش قرنًا على وتيرة واحدة؛ وهو القائل: لما مسخ الإنسان قردًا أنزل فيه مَشابِه من الإنسان، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان، وأنشد:

وكان لنا أصدقاء مضوا ... تفانوا جميعًا وما خلدوا
تساقوا جميعًا كئوس المنو ... ن فمات الصديق ومات العدو

ولقد غلبت الدعابة على الجاحظ وتجلّت خفة روحه وتهكمه حتى في بعض ما يكتب من أمور الجد، وقد يفهم تهكمه من أسلوب الأداء في عبارته، أليس في قوله لما تكلم على الخنزير: «لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير، وكان ذلك بعض الأسباب التي مسخ بها الإنسان خنزيرًا، فإن القرد قبيح الوجه قبيح في كل شيء، وكفاك به جري المثل المضروب به، ولكنه من وجه آخر مليح، فملحه يعرض على قبحه فيمازجه ويصلح منه، والخنزير أقبح

منه إلا أن قبحه مُصْمَت[1] بهيم فصار أسمج منه كثيرًا». أليس في قوله هذا شيء من التهكم وأسلوب من أساليب الهزل في الجد؟

وقال في وصف الإنسان وما أخذه من طبائع الحيوان: «أوَما علمت أن الإنسان الذي خُلق له ما في السموات والأرض وما بينهما كما قال تعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا} -إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدوا له الحواس الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة، ووجدوا له صولة الجمل، ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفْرِد، وجمع الذَّرَّة، وصنعة الزَّرافة، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثًا، ولا يبلغ أن يكون جملًا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصَوْله وحقده، وصبره على حمل الثقل. ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واسترواحه، وتوحشه وشدة قلبه، كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له: داهية وذو مكر وصاحب خدعة، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه في المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له: غبي وأبله ومنقوص» وعلى ما في هذا الكلام من بحث نفسي لا نخليه من معاني التهكم والهزل، وعنده (أن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد).

ومن نوادره أنه سُمع يقول: رأيت جارية في سوق النخاسين ببغداد يُنادى عليها، فدنوت منها وجعلت أُقَلّبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة. قلت: الله

(١) المصمت: الذي لا جوف له.

أكبر قد قرب الحج، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود. قالت: إليك عني، ألم تسمع الله يقول: {لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس}؟

ومنها: سمع أبو بكر محمد بن إسحاق يقول: قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد: ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ؟ فقلت: ما لي وله؟ قال: إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه. ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يومًا، فقدم إلينا طبقًا عليه رُطب، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت، ومر فيه إبراهيم، فأشرت إليه أن يمسك، فرمقني الجاحظ، فقال لي: دعه يا فتى، فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني، فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه، فأبى إلا أن يَبَرَّ قسمي بثلاثمائة رطبة.

وحدَّث الجاحظ قال: وقفت أنا وأبو حرب على قاص، فأردت الولع به. فقلت لمن حوله: إنه رجل صالح، لا يحب الشهرة تفرقوا عنه، فتفرقوا؛ فقال لي: حسيبك الله! إذا لم ير الصياد طيرًا كيف يمد شبكته؟

ومنها: حكى بعض أبناء البرامكة قال: تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار فصغتها عشرة آلاف إهليلجة[1]، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخُبِّرت أن الجاحظ بها، وأنه عليل بالفالج، وأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرت إليه وقرعت الباب، فخرجت إليَّ خادمة صغرى فقلت: رجل غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ. فبلغته، فسمعته يقول: قولي له: ما تصنع بشق مائل ولعاب سائل، ولون حائل؟ فقلت للجارية: لا بد من النظر إليه. فقال: هذا رجل ورد البصرة، وسمع بي ويريد أن يقول رأيت الجاحظ، فأذن لي فدخلت وسلمت، فرد ردًّا جميلًا وقال: من تكون

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء: ثمر منه أصفر ومنه أسود.

أعزك الله؟ فانتسبت له، فقال: رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة، ولقد رأى بهم الخلق خيرًا كثيرًا، فسقيًا لهم ورعيًا. فدعوت له وقلت له: أنشدني شيئًا، فقال:

لئن قدَّمت قبلي رجال فطالما مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فتُبرمُ منقوضًا وتنقض مبرمًا

ثم نهضت، فلما قربت من الباب قال: يا فتى أرأيت مفلوجًا ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا. قال: الإهليلج الذي معك ينفعني فابعث إليّ منه. فقلت: منه، وعجبت من وقوعه على خبري مع كتمي له، وبعثت له منه شيئًا.

قال الحصري: وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره، إذ كان وهو في هذه السن العالية، والفالج الشديد، تنشر عند الأخبار، ولا تطوى عنه الأسرار، فكيف كان قبل هذا؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال.

قال أبو عثمان: ما أخجلني أحد مثل امرأتين إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي كُلي معنا، فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا، وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا، وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إليَّ بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان. فقلت: يا ستي ما رأيت الشيطان، فأتت بك وقالت ما سمعت.

لما جيء به مقيدًا من البصرة إلى بغداد عقبى مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات، أمر أحمد بن أبي داود أن يفك قيده، فجيء بالحداد، فقال الجاحظ: لتفكوا عني أو لتزيدوني؟ فقيل له: بل ليفك عنك، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن

يعنف بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلًا، ففعل، فلطمه الجاحظ وقال له: اعمل عمل سنة في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي، وليس بجذع ولا ساجة. فضحك ابن أبي داود وأهل المجلس منه.

صنف كتابًا من كتبه وبوَّبه وبثه في الناس، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما، صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك. حتى عد أعضاء الصورة.

وسأله شخص كتابًا إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها، فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها: «كتابي إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه، فإن قضيت حقه لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك». فرجع إليه الرجل، فقال الجاحظ: كأنك فضضت الورقة؟ قال: نعم. قال: لا يضرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص. فقال الرجل: قطع الله يديك ورجليك ولعنك. فقال: ما هذا؟ قال: علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصًا.

وأتى أبو العيناء الجاحظ يسأله في رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة، فقال: نعم، لا تنصرف إلا به، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه، ودفعه إليه، فأتى إلى أبي العيناء بالكتاب فقال: افضضه واقرأه عليَّ لأرى ما كتب وأُعيده إليه ليختمه، ففتحه فإذا فيه: «كتابي إليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه، فافعل في أمره ما تراه والسلام». فغضب ونهض إلى الجاحظ فقال: أُعرفك باعتنائي بهذا الرجل فتكتب له مثل هذا. فقال: لا تنكر ذلك فإنها أمارة ما بيني وبينه، إذا عُنيت

برجل. فقال: بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة. قال: أتشتمني؟ قال: لأنها أمارة لي عند الثناء على إنسان.

وحكي أن أبا طاهر قال: سرت إلى الجاحظ ومعي جماعة، وقد أسنَّ واعتلَّ في آخر عمره وهو في منظرة له وعنده ابن خاقان جاره، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا، وأشرف من المنظرة فقال: ألا إني قد حوقلت وحملت رميح أبي سعد وسقت الغنم[1]، فما تصنعون بي؟ سلموا سلام الوداع. فسلمنا وانصرفنا.

دخل أحدهم عليه فسأله عن حاله، فقال له: سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحدًا واحدًا: حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إليَّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلس على اللين الطري، وأتكئ على هذا الريش، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج. فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري، ويختلف إليَّ، فهذا هو الفرج.

وحكي أنه ألَّف كتابًا في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب، قال: دخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلمًا في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد عليَّ أحسن رد، ورحب بي فجلست عنده، وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب؛ فإذا هو كامل الآداب. فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يومًا لزيارته، فإذا بالكتَّاب مغلق، ولم أجده،

---

(١) قوله: حوقلت: أكثرت من قولي لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض، وقوله: رميح أبي سعد: هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من شاخ: أخذ رميح أبي سعد، وقوله: سقت الغنم: هو عند العرب كناية عن الهرم، لأن سائق الغنم يطامن رأسه.

فسألت عنه فقيل: مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إليَّ جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: سيِّدك، فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله. فدخلت إليه وإذا به جالس فقلت: عظَّم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، كل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا. قلت فوالدك؟ قال: لا. قلت: فأخوك؟ قال: لا. قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها. فقال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية. ثم قلت: وكيف عشقت من لم ترَ؟ فقال: اعلم أني كنت جالسًا في هذا المكان وأنا أنظر من الطابق، إذ رأيت رجلًا عليه بُرد وهو يقول:

يا أمَّ عمرو جزاك الله مغفرة رُدِّي عليَّ فؤادي كالذي كانا
ألست أحسن من يمشي على قدم يا أملح الناس كل الناس إنسانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار. فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتابًا في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قويتَ عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

وكان الجماز البصري شاعرًا ماجنًا خبيث اللسان، وكان له مع الجاحظ ملاحاة ومهاجاة قد يكون فيها إقذاع وإفحاش. وكان الجاحظ يعبث أيضًا بأبي هِفّان الشاعر

وغيرهما من الشعراء والكُتّاب والمؤلفين والقصاصين وكل ذلك من غير تبذُّل وإسفاف. وكان يقول: إن تهيأ لك في الشاعر أن تَبرَّه وترضيه، وإلا فاقتله.

ومعاني الجاحظ في هذا الباب مذكورة في كلام له، قال: «ولم تر العيون، ولا سمعت الآذان، ولا توهمت العقول عملًا اجتباه ذو عقل، أو اختاره ذوعلم بأوبأ ولا أفسد لعرض، ولا أوجب لسخط الله، ولا أدعى إلى مقت الناس، ولا أبعد من الفلاح، ولا أظهر نفورًا عن التوبة، ولا أقل إدراكًا عند الحقيقة، ولا أنقص للطبيعة، ولا أمنع من العلم ولا أشد خلافًا على الحلم، من التكبر في غير موضعه، والتنبل في غير كنهه. وما ظنك بشيء العجب شقيقه، والبذخ صديقه، والتنفج أليفه، والصلف قعيده، والبذَّاخ متزيد، والنفاج كذَّاب، والمتكبر ظالم، والمعجب صغير النفس؛ وإذا اجتمعت هذه الخلال، وانتظمت هذه الخصال في قلب طال خرابه، واستغلق بابه، وشر العيوب ما كان مضمنًا بعيوب، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب».

نماذج من رقاعه وكلماته:

١- كتب إلى ابن أبي داود يستعطفه: «ليس عندي -أعزك الله- سبب، ولا أقدر على شفيع، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأمل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن، وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين فتكون خير معتب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل أن هذا الأمر سببًا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سبيلًا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنمى بقية، من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك، جعلت فداك، عاد الذنب وسيلة والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشر خيرًا والغُرم غُنمًا، ومن عاقب أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرع المرائر، وأرجو ألا أَضيعَ وأهْلِكَ فيما بين عقلك وكرمك؛ وما أكثر

من يعفو عمن صغر ذنبه، وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء، العفو عن عظيم الجرم، ضعيف الحرمة، وإن كان العفو العظيم مستطرفًا من غيركم، فهو تلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرًا من الناس إلى مخالف أمركم، فلا أنتم عن ذلك تنكلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم، حين كان لا يمر بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرًا، فقال له شمعون الصفا: ما رأيت كاليوم كلما أَسمعوك شرًّا أسمعتهم خيرًا، فقال: كل امرئ ينفق مما عنده، وليس عندكم إلا الخير، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، وكل إناء بالذي فيه ينضح».

٢- وكتب إلى محمد بن عبد الملك: «أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الإناة، فقد خفت -أيدك الله- أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء؛ وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأ أمسى وأصبح سالمًا ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليكَ -أصلحك الله- فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عُمَرُ كان خيرًا لي منك، رهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني. فإن كنت لا تهب عقابي -أيدك الله- لخدمة فهبه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب

المصرّ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك، هجمت عليه بالعقوبة. واعلم -أيدك الله- أن شين غضبك عليَّ كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك، كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام».

٣- وكتب إلى أبي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه: «أما بعد؛ فلو كففت عنا من غَر بك، لكنا أهلًا لذلك منك»؛ فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح.

٤- وله فصل في استنجاز وعد: «أما بعد؛ فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون مطلك، فأطلقنا -أبقاك الله- من ضيقها وشديد غمها، بنَعَم منك مثمرة أو مريحة، أما بعد؛ فإن شجر مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالمًا من جوائح المطل، أما بعد؛ فإن سحاب وعدك قد برقت، فليكن وبلُها سالمًا من صواعق المطل والاعتدال».

٥- وله فصل في عتاب: «أما بعد؛ فإن المكافأة بالإحسان فريضة، والتفضل على ذوي الإحسان نافلة، أما بعد؛ فلها (؟) السكوت على لسانك، إن كانت العافية من شانك، أما بعد؛ فلا تزهد فيما رغب إليك، فتكون لحظك معاندًا، وللنعمة جاحدًا، أما بعد؛ فإن العقل والهوى ضدان، فقرين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه. أما بعد؛ فإن الأشخاص كالأشجار، والحركات كالأغصان، والألفاظ كالثمار. أما بعد؛ فإن القلوب أوعية، والعقول معادن، فما في الوعاء ينفد، إذا لم يمده المعدن. أما بعد؛ فكفى بالتجارب تأديبًا، وبتقلب الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكرك الموت زاجرًا. أما بعد؛ فإن احتمال الصبر على لذع الغضب، أهون من إطفائه بالشتم والقذع. أما بعد؛ فإن أهل النظر في العواقب، أولو الاستعداد للنوائب، وما عظمت نعمة امرئ

إلا استغرقت الدنيا همته، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله، جعل الأيام مطايا عمله، والآخرة مقيل مرتحله. أما بعد؛ فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد في الرزق والأجل، والاستغناء غير ناقص للمقادير. أما بعد؛ فإنه ليس كل من علم أمسك، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران. أما بعد؛ فإن أحببت أن تتم لك المِقَة[١] في قلوب إخوانك فاستقلَّ كثيرًا مما توليهم. أما بعد؛ فإن أنظر الناس في العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز، واستل حقده بالرفق والتحبب».

٦- وكتب إلى ابن الزيات: «نحن -أعزك الله- نسحر بالبيان، ونموّه بالقول، والناس ينظرون إلى الحال، ويقضون بالعيان، فأثّر في أمرنا أثرًا ينطق إذا سكتنا، فإن المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب».

٧- وله في وَصاة: «أما بعد؛ فإن أحق من أسعفته في حاجته، وأجبته إلى طلبه، من توسل إلك بالأمل، ونزع نحوك بالرجاء. أما بعد؛ فما أقبح الأحدوثة، من مستمنح حَرَمْته، وطالب حاجة رددته، ومثابر حجبته، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل إليك بعنانه لويت عنه، فتثبت في ذلك ولا تطع كل حلَّاف مهين هماز مشاء[٢] بنميم. أما بعد؛ فإن فلانًا أسبابه متصلة بنا يلزمنا ذمامه، وبلوغ مؤافقته من أياديك عندنا، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأؤلنا فيه ما نعرف موقعنا من حسن رأيك، وتكون مكافأة لحقه علينا. أما بعد؛ فقد أتانا كتاب في فلان، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته، ورعاية حقه، ونحن من المعتبة بأمره، على ما كان في حرمته، ونؤدي شكره».

---

(١) المقة: الحب.

(٢) المهين: الضعيف الحقير. والهماز والهمزة: الذي يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم؛ أي الذي يهمز أخاه في قفاه ومن خلفه، والمشاء: الذي يمشي بين الناس بالنميمة.

٨- وله في الاعتذار: «أما بعد؛ فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار. أما بعد؛ فإن أحق ما عطفت عليك بحلمك، من لم يتشفع إليك بغيرك. أما بعد؛ فإنه لا عوض في إخائك، ولا خلف من حسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك. أما بعد؛ فإنني بمعرفتي ببلوغ حلمك، وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك. أما بعد؛ فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه. أما بعد؛ فقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك، مع حبسك الاعتذار من هفوتك، ولكن ذنبك تغفره مودتك، فامنن علينا بصلتك، تكن بدلًا من مساءتك، وعوضًا من هفوتك. أما بعد؛ فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرك عنده، ولم يتسع لهنات الإخوان. أما بعد؛ فإن أولى الناس عندي بالصفح من أسلمه إلى مِلكك التماس رضاك، من غير قدرة منك عليه. أما بعد؛ فإن كنت ذممتني على الإساءة فلِمَ رضيت لنفسك المكافأة؟».

وتكرير (أما بعد) والعادة ذكرها مرة في أول الخطبة، ومعناها (بعد دعائي لك) من أجمل مكرراته؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب في مثل هذا التكرار يبتدع أسلوبًا، أو أن ذلك من جملة مبتدعاته في الكتابة. يقول الثعالبي: إن من أبلغ الأدعية وأوجزها قول أبي عثمان الجاحظ لمخدومه: «أدام الله لك السرور».

٩- وله في التعازي: «أما بعد؛ فإن الماضي قبلك الباقي لك، والباقي بعدك المأجور فيك، يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب. أما بعد؛ فإن في الله العزاء عن كل هالك، والخلف من كل مصاب، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة. أما بعد؛ فإن الصبر يعقبه الأجر، والجزع يعقبه الهلع، فتمسك بحظك من

الصبر، تنل به الذي تطلب، وتدرك به الذي تأمل. أما بعد؛ فقد كفى بكتاب الله واعظًا، ولذوي الألباب زاجرًا، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله أهل المعصية».

١٠- ومن كلامه: «زينك الله بالتقوى، وكفاك ما أهمك من الآخرة والأولى. من عاقب -أبقاك الله- على الصغيرة عقوبة الكبيرة، وعلى الهفوة عقوبة الإصرار، فقد تناهى في الظلم، ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالي، والأداني والأقاصي، فقد قصر والله. لقد كنت أكره سرف الرضا، مخالفة أن يؤدي إلى سرف الهوى، فما ظنك بسرف الغيظ، وغلبة الغضب، من طياش عجول فحاش، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء، وأنت روح كما أنت جسم، وكذلك جنسك ونوعك، إلا أن التأثر في الرقاق أسرع، وضده في الغلاظ الجفاة أكمل، ولذلك اشتد جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه، فانظر في علته، وفي سبب إخراجه إلى معدنه الذي منه نجم، وعشه الذي منه درج، وإلى جهة صاحبه في التسرع والثبات، وإلى حلمه عند التعريض، وفطنته عند التوبة، فكل ذلك ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الفيض في المقادير، أو من طريق الأنفة، وغلبة طباع الحمية من جهة الجفوة، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به في حقه، مؤخر عن رتبته، أو كان مبلغًا عنه مكذوبًا عليه، أو كان ذلك جائزًا فيه غير ممتنع منه، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل، فليس يقف عليها كريم، ولا ينظر فيها حليم، ولست أُسميه بكثرة معروفه كريمًا، حتى يكون عقله غامرًا لعلمه، وعلمه غالبًا على طباعه، كما لا أسميه بكف العقاب حكيمًا، حتى يكون عارفًا بمقدار ما أخذ وترك، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض، والنفار الغالب، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء، وصوَّب رأيك عالم الأشراف. والأناة أقرب من الحمد، وأبعد من الذم وأنأى من خوف العجلة، وقد قال الأول: عليك بالأناة،

فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته. وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره، وإنما يحتال له قبل هيجه، فمتى تمكن واستفحل، وأذكى ناره وأشعل، ثم لاقى من صاحبه قدرة، ومن أعوانه سمعًا وطاعة، فلو استنبطته بالتوراة، وأوجرته بالإنجيل، ولددته[1] بالزبور، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغًا، وأتيته بآدم شفيعًا، لما قصر دون أقصى قوته. ولن يسكن غضب العبد، إلا ذكره غضب الرب، فلا تقف -حفظك الله- بعد مضيك في عتابي التماسًا للعفو عني، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله، والشيطان على دينه، ويعلم أن للكرم أعداء، ويمسك إمساك من لا يبرئ نفسه من الهوى، ولا يبرئ الهوى من الخطأ، ولا تفكر لنفسك أن تزل، ولعقلك أن يهفو، فقد زل آدم عليه السلام وقد خلقه بيده. ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك، ويرتد إليك ذهنك، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة، والله يعلم وكفى به عليمًا. لقد أردت أن أفديك بنفسي في مكاتباتي، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى، فرأيت من الخيانة لك، ومن اللؤم في معاملتك، أن أفديك بنفس ميتة، وأن أريك أني قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم. وأنا أقول كما قال أخو ثقيف: مودة الأخ التالد، وإن أخلق، خير من مودة الأخ الطارف وإن ظهرت مساعيه وراقت جدته. سلمك الله وسلم عليك، وكان لك ومعك».

١١- ومما كتب إلى ابن الزيات من كتاب: «لا والله ما عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ، ولا رأيت شيئًا هو أنفذ من شماتة الأعداء، ولا أعلم بابًا أجمع لخصال المكروه من الذل، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه، والمبتلَى ما دام يجد من يرثي له، فهو على سبب درك، وإن تطاولت به الأيام. فكم من كربة فادحة،

(١) استبطن أمره: وقف على دِخلته. وجرته أجره وجرًا: أسمعته ما يكره، ولدَّه: خَصَمه فهو لاد ولدود.

وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها، وفككت أغلالها، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك، وفى حسن النية بينى وبينك، لا مشتت الهوى، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملته، وتفريط قد اغتفرته، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير، وكما تعرف من التفريط، فإني من شاكري أهل هذا الزمان، وحَسَن الحال متوسط المذهب، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين، فوق مرتبتى فى الشاكرين. وقد كانت عليَّ بك نعمة أذاقتني طعم العز، وعودتني رَوْح الكفاية».

***

قال المبرد: سمعت الجاحظ يقول: احذر من تأمن فإنك ممن تخاف. وقال أيضًا: سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه: أنت والله أحوج إلى هوان من كريم إلى إكرام، ومن علم إلى عمل، ومن قدرة إلى عفو، ومن نعمة إلى شكر.

ومما قال للسدري مرة: إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة. فقال السدرى: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت. فقال له السدري: فكيف عقل العجوز؟ قال: هي أحمق الناس وأقلهم عقلًا. وقال: مواعيد القيان الآل فى الفيافي والهشيم تذوره الرياح السوافي.

ومن كلماته: يجب للرجل أن يكون سخيًّا لا يبلغ التبذير، شجاعًا لا يبلغ الهوج، محترسًا لا يبلغ الجبن، ماضيًا لا يبلغ القحة، قوّالًا لا يبلغ الهذر، صموتًا لا يبلغ العي، حليمًا لا يبلغ الذل، منتصرًا لا يبلغ الظلم، وقورًا لا يبلغ البلادة، نافذًا

لا يبلغ الطيش. وقال: لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمتعالجين له لما كان له طالب ولا فيه راغب.

ومن كلماته في الطّيب: فأما الطيب فإني لم أشمم رائحة قط أحيا للنفس ولا أعصم للروح، ولا أفتق ولا أغنج ولا أطيب خمرة من ريح عروس، إذا أُحكمت تلك الأخلاط، وكان عرف رأسها وبدنها سليمًا، وإن كانت بمدينة الرسول، فإنك ستجد ريحًا تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة. وقال: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، والبخل اسم لما جاوز حدَّ الاقتصاد.

ومن جميل جله: وأسباب عداوات الناس ضروب؛ منها المشاكلة في الصناعة، ومنها التقارب في الجوار، ومنها التقارب في النسب، والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة، والمساكن عدو للمُسْكِن، والفقير عدو للغني، وكذلك الماشي والراكب، وكذلك الفحل للخصي، وبغضاء السُّوق موصولة بالملوك، وكذلك الوصلة بالمال الرغيب، وكذلك الوارث والموروث. وقال: كم فرق بين غناء فم تشتهي تقبيله، وبين غناء فم تريد أن تصرف بصرك عنه. وقال: جهد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعرف أخًا صارمًا، وابن عم شامتًا، وجارًا كاشرًا، ووليًا قد تحول عدوًا، وزوجة مختلفة، وجارية متعبة، وعبدًا يحقرك، وولدًا ينهرك.

وقال: وهلاك من هلك من الأمم فيما سلف بحب الرياسة، وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر فبحب الرئاسة.

هلاك الناس مذ كانوا ... إلى أن تأتي الساعة
بحب الأمر والنهي ... وحب السمع والطاعة

وقال في نفسية الأغنياء: وبعد فلا يخلو صاحب الثروة، والصامت الكثير، الخامل الذكر، من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة، والمطعم الطيب؛ أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك، فإن كان لا يرغب في هذا النوع كله، ولا يعمل في ماله للدار الآخرة، ولا يعجب بالأُحدوثة الحسنة، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصمت، فإن هذا حمار، وأفسد طبعًا من الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضي أن يكون في حالة أسوأ حالًا من الوكيل...

وقال في نفسية بعض النصارى في عهده: ووقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز كلام فقال له الفتى: ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك. وكان ابن فهريز نفسه أكثر الناس علمًا وأدبًا، وكان حريصًا على الجثْلقة، فقال للفتى: وكيف حللت عندك هذا المحل؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة، وأنت قصير القامة، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الخلق، وأنت دقيق الصوت رديءُ الخلق، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها، وأنت خفيف اللحية صغيرها، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلًا زاهدًا في الرياسة، وأنت أشد الناس عليها كلبًا، وأظهرهم لها طلبًا، فكيف لا تكون أجهل الناس، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة، وأنت قد شغلت في طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك.

وقال: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره. التهادي سنة متقلبة ومكرمة متقبلة. إذا وضع الملك بين يديك شيئًا على مائدته فلعله إن لم يقصد كرامتك وإيناسك أن يكون أراد أن يعرف صبر نفسك، فبحسبك أن تضع يدك عليه أو تفتش منه شيئًا، وإنما يحسن التبسط مع الصديق والعشير، فأما الملوك

فيرتفعون عن هذه الطبقة، ومن حق الملك أن لا يحدث على طعامه لا بجده ولا بهزله، وإن حدث فمن حقه أن يُصغى إلى حديثه، والبصر خاشع ولا يعارض.

قال سوار بن شراعة: كنت عند الجاحظ فرآني أكتب خطًّا رديئًا في ورق رديء متقارب السطور، فقال لي: ما أحسبك تحب ورثتك، فقلت: وكيف ذاك؟ قال: لأني أراك تسيء بهم فيما تخلفه.

وقال: رأيت أربعة أشياء لم أرَ مثلهن؛ رأيت سائلًا يسأل في الحمام، ويأخذ مواعيد من فيه إلى أن يخرجوا، ورأيت معلمًا يعلم الصبيان القرآن والصبايا الغناء، ورأيت حجامًا يحجم بنسيئة إلى الرجعة، ورأيت حمالِين يحملون جنازة، فكلما أعيوا وضعوا عن رءوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر.

وقال: تسعة موجودة في تسعة: الخفة في الصم، والهَوَج في الطوال، والعجب في القصار، والنبل في الرَّبعة، والملاحة في الحُول، والذكاء في الخرس، والحفظ في العميان، والثقل في العُور، والنشاط في العُرج.

ومن كلامه: أجمع الناس على أربع: أنه ليس في الدنْيا أثقل من أعمى، ولا أبغض من أعور، ولا أخف روحًا من أحول، ولا أقود من أحدب.

وقال: إن العرب تمدح الشيء وتذمه، لكنهم لا يمدحون الشيء من الوجه الذي يَذُمونه به من جنس فصاحتهم.

وقال: في الخصيّ عشرة أحوال متضادة؛ لم يخرج من ظهره مؤمن، ولا خَرَج من ظهر مؤمن، وهو أكثر الناس غيرة، وأشدهم قيادة، وهو أضعف الناس معدة، وأشرههم على طعام، وهو أسوأ الناس أدبًا، وهو يعلم الأدب، وهو أغزر الناس

دمعة، وأقساهم قلبًا، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة.

قال المأمون: ما هُجي إبراهيم بن المهدي فيما ادعاه -من الخلافة- على كثرة هجائه بأشد من قول الجاحظ فيه: «هو خليفة إذا خطب رأى آخر عمله»؛ أي أن مملكته من الصغر ودعوته من الضئولة، بحيث لا تتجاوز رقعة بلاده مدى صوت الخطيب ونظره.

خلوده ومجده:

ويسأل القارئ بعد أن رأى صورة الجاحظ في كثير من مظاهره، ولمست يداه موضع العجب من نبوغه وافتنانه في علمه وأدبه، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود، وإلى أي مدى بلغت تأثيراته في ديار الإسلام؟ ولا بد قبل بحث خلوده أن نتعرف معنى الخلود، ثم ننظر إذا استحق الجاحظ هذه الصفة.

يقول أميرسون الفيلسوف الأمريكي: «إن الكتاب الصالح كالمجتمع الصالح، وإنك إذا أدخلت رجلًا منحطًّا في حلقة جماعة راقين لا ترفعه لأنه ليس منهم، ولن يصبح مساويًا لهم؛ هكذا حال كل مجتمع يحمي نفسه، وأهله واثقون أن هذا الدخيل فيهم، والواغل عليهم، وإن كاثرهم بجسمه، فلن يشركهم بمكانتهم.

يُقاس تأثير الكلام في الجماعات بما انطوى عليه من دقة في الفكر. وإن كتابًا ينبه ذهنك ويُرْهِف حسك، ويسمو بك بصوت فصاحته العالي، ليكتب له في أفكار الناس أعظم الأثر، وليس تأثيره بالسريع، إلا أنه مستديم ثابت. وأنت إذا لم تستفد شيئًا من صفحات هذا الكتاب، ثق أنه سيفنى كما يفنى الذباب من ساعته. الكاتب

هو الذي لا يتقيد بذوق العصر فقط، وإنما يملي ما يملي ورائده الإخلاص. والحجة التي لا تفعل في نفسي فعلًا عمليًّا قد لا تفعل فيك أيضًا.

يقول سدني: انظر في قلبك واكتب. ومن يكتب لنفسه يكتب لجمهور يبقى. فعليك إن أنشأت شيئًا أن تُرضي هواك أولًا، وليعلم الكاتب الذي اهتدى إلى موضوعه بعينيه وأذنيه، لا بقلبه ونفسه، أنه ما استفاد ولا أفاد. ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدر له من الرواج، ولو أجمع نصف الناس على استحسانه، فهو يفنى إذا خلا من حرارة، والحرارة وحدها تهب الحياة، ونحن إذا انتفخنا حتى تمزقنا، لا نتسامى إلى أكثر مما حصلناه من قدر.

لا دخل للحظ في الشهرة الأدبية، ولا يتوقف صدور الحكم النهائي على كتاب بما يقوله فيه أصحاب الأهواء من القراء، المكثرين من الضجة حوله أوّل نشره، وتحكم على مبلغه من الإجادة محكمة، لك أن تقول: إنها مؤلفة من ملائكة، أو من جمهرة لا تحابيك برشوة، ولا تخافك لبأسك وسلطانك، وهي تقضي وتمنح جلاء المجد وعلاقيته[1] لمن هو خليق بهما. وأمثال هذه الأسفار فقط يحق لها أن تحيا، أما المُذْهَبَة المُغْلمة المعمولة بالرُّقوق المزنية بالنقوش، وإن وزعها صانعها على الوراقين بأسرهم، فإنها تبيد، ولا تُصيب من الرواج أكثر مما لها الحق فيه.

ليس في الأرض أزيد من اثني عشر شخصًا في آن واحد، يقرءون كتاب أفلاطون ويفهمونه. ويتعذر عليك أن تجمع من مجموع قرائه من النقود ما يصح الاعتماد عليه لإعادة طبع كتابه. ومع هذا ترى مصنفه يصل إلى كل جيل لينتفع به هؤلاء الأشخاص القلائل، كأن الله أرسله إليهم مباشرة.

---

(١) الجلاء: ما يخاطب به من الألقاب الحسنة ويمكن إطلاقها على الرتب في العهد الحديث، والعلاقية والجمع العلاقي: الألقاب.

يقول بنتلي: ما من كتاب سقط وباد إلا بما حوته دفتاه، ولا يحدد بقاء الكتاب بما نال من حب أو بغض، ولا يخلد إلا بما فيه من قيمة ذاتية، وبما يحمل من حاجات العقل على الدهر.

لا يعرف الرجل العظيم أنه على شيء من العظمة، والعظمة لا يحرزها إلا إذا أتى عليه قرن أو قرنان، لتُكشف للملأ حقيقته. هذا وهو يعمل لأن من واجبه أن يعمل والداعي والبواعث حاكمة عليه، ويومئذ تراه يعظم في العيون، وكل ما انبعث منه يغدو رمزًا عامًا، ومثالًا يقتدى به، حتى ما كان من حركة إصبعه الصغرى، وما تناوله من طعام وإدام، فيمسي بذلك صاحب السلطان الأكبر على العقول، والدهماء تُعجب بطريقته.

قالوا: إن الصورة لا تكذب، والمرء إذا نطق بالحق، بفكر حق، كانت عينه أصفى من السماء، ومتى خالف ذلك وأورد الزور والبهتان، اختلجت عينه وربما أُصيبت بالحَوَل.

وأنَّى لك بمحامٍ لم يقتنع ببراءة موكله أن يُقنع المحكمة لتقضي له بالبراءة؟ هذا القانون يسري على أفكارنا، فنحكم على كل أثر بالفكر الذي عرض للمؤلف، يوم أنشأ ما أنشأ من بنات أفكاره. وهيهات أن نقول قولًا صحيحا أبدًا في الحكم على كل شيء، ولو استظهرناه وتدراسناه، ولن يتطال المرء إلى مكانة لا يستحقها، وباطل أن نحاول معرفة ما يقول الناس فينا، وباطل كل الباطل تخوفنا من أن لا نُعرف. ومتى أيقن المرء أنه يحسن شيئًا، وأنه يبذُّ فيه غيره في باب الاستحسان، فليثق أن جميله معترف به، وإحسانه مقدور قدره، في كل زمان ومكان. العالم مليء بالأحكام، وإلى أي مجلس اختلف المرء، وفي كل عمل حاوله، لا يُكال إلا بقدره، ولا يُعَلّم إلا بميسَمَه.

قد تقوم للدعوى قائمة، وهي تعجز عن الوفاء بعمل عظيم، وما كانت الدعوى يومًا خليقة بإتمام أمر يُلابس عظمة حقيقية. فبالدعوى لم تكتب الإلياذة، وبالدعوى لم يُكسر كسرى، وبالدعوى لم يستجب الناس لرسالة المسيح، وبالدعوى لم يُلغ الرقيق. الفضائل تقدر بأثرها، وعلى قدر الصلاح تكون الحرمة، والناس سواءٌ في احترام الفضيلة. وأساتذة الإنسانية هم أصحاب طبقة الكرماء المخلصين، أرباب الأفكار العالية، يفرضون عليها ما يريدون بثه، ويحاولون الدعوة إليه. وما ضاعت كلمة طيبة قط، وما سقط مجد ولا كرم، من دون أن يلتقطها قلب ما كان له أن يتوقعها، فيبارك عليها ويقدسها. وقيمة المرء ما يحسن، وما يحسنه منقوش على سيماه وينمُّ عليه ظاهره، وما رُزق من سعادة، ولن يفيده التواري، كما لا ينفعه التبجح والتنفج[1]».

هل انطبقت هذه الصفحة في شروط الخلود على الجاحظ؟ وهل له بعد هذا أن يعد في الخالدين بما ألّف وصنف؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره يوم بدا للأبصار نبوغه، وكمُلت له العظمة قبل أن يأتي عليه قرن أو قرنان، وهذا مستغرب في عصر ليس فيه مطابع ولا جرائد ولا مجلدات ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات، ولا برق ولا هاتف ولا مذياع.

خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه، لا بعينيه وأذنيه فقط، فاستفاض صيته ووصل صوته إلى أبعد مدى؛ لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأمته، ووجب عليه معاناته في دهره، وتداول قومه مصنفاته وهو في الكهولة، وعرفت القاصية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين، وأدرك ذوو البصائر أن كتبه تحمل

(١) النفاج: المتكبر كالمتنفج. والتبجح: الافتخار والمباهاة.

علمًا كثيرًا؛ ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب، فأرضى أمته وأخذ بمجامع قلبها، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب، لا سلطان الثرثرة والدعوى.

تضمنت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر؛ لأنها ابنة العقل الناضج، وربيبة الروية والتفكير الصحيح، قصد بها التعليم والإرشاد، لا الفساد والإفساد، وقدّر له بها من الإعجاب، ما لم يكتب لمليٍّ ولا لذمي من العلماء مثله، ففي المليين مئات، وفي الذميين عشرات، كانت لهم الحظوة عند العامة والخاصة، تحفهم رعاية الأمراء والخلفاء، فتقدمهم الجاحظ في السبق، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة.

كان -والحق يقال- إنسانا كاملًا أخذ من المادة بقدر ما ضمن له عيشه، وما أسفَّ إلى ما يسفُّ له أكثر طبقته من العلماء؛ ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمتّع في قصور الخلفاء بكل ما تطمع فيه، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا؛ كان صاحب فكر، همّه نشره لنفع العالمين؛ في دور كان حملة الرأي والرواية من معاصريه بين عالم دين يُصِمُّ أذنه عن علوم الدنيا، أو عالم مادة لا يحسن شيئًا كثيرًا من علم الدين، فجمع الجاحظ بن المطلبين، حتى كثر المعجبون به من كل صنف، وما استطاع حساد فضله أن يطفئون نوره، ولا أن يُعموا على الناس أمره، لما أدرك المنصفون أنه على صفات قلَّ أن يدانيه فيها أحد، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب في أشد أعصار حماستهم، وتصلبهم في آرائهم، جادلهم فأحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه، وتفنن ما شاءت له الإجادة في ضروب من القول، وما كان يضيره سخف السخفاء ممن تعذرت عليهم مداناته؛ فوضع صفحته للحق، وحاورهم قائمًا بالواجب عليه نحوْ دعوته وملته، فتم له ما أراد لما نفذ قوله إلى أعماق القلوب والعقول، بما خص به من نَفَس طويل، وإبداع جزيل.

نعم، نفذ الجاحظ بما كتب إلى القلوب والعقول، لأنه لم يكتب كأفلاطون ألغازًا ومعميات يتعذر حلها، فبقي كلام الحكيم اليوناني -على ما قال أميرسون- مقصور الفهم على اثني عشر شخصًا في كل جيل، وكتب الحكيم العربي السهل الممتنع الذي يفهمه كل من يقرأوه، فأسرع كل ذلك في خلوده. وبعد فإن الجاحظ موهوب، رُزق القبول من القلوب، وشاع ما كتب في كل صقع وكل قرن، وكلما كررتَ كلامَه حلا، وكلما تدبرت أسلوبه نفعك، وهل أعظم في باب الخلود من بنات أفكار تتناقل خلفًا عن سلف أحد عشر قرنًا، ثم لا نرى الجميع إلا معجبين مستفدين، بما أثر عن عَلَم الأعلام ومقدم المخلدين.

وإنا إذا استقر بنا ما قاله أولياء الجاحظ وخصماؤه فيه، لا يتعذر علينا أن نضعه في الدرجة التي بلغها. قيل لأبي العيناء الراوية الأخباري: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟ ويقول المسعودي: «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا من الجاحظ، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع، وكُتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه».

وقال ثابت بن قُرة الصابي وهو ممن عاصروا الجاحظ، ومن أكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة في تأليفاتهم: ما أحسد الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن البصْري، والثالث الجاحظ. وقال فيه: «إنه

خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومِدْره[1] المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان وائل، وإن ناظر ضارع النظّام في الجدال، وإن جد خرج من مَسك[2] عامر بن عبد قَيس، وإن هزل زاد على مُزَبِّد: حبيب القلوب، ومراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كُتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفًا، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم؛ طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلّته، ووطئ الرجال[3] عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أُوتى الحكمة وفصل الخطاب».

هذه ثلاث شهادات في الجاحظ: الأولى لرجل عاصره وعرفه عن أَمم، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة، شهادة شيعي في معتزلي والثالثة لصابي النحلة وشهادته شهادة بريء من الغرض. وإذا حدثت نفسك بأن هذه الشهادات قليلة نورد لك غيرها، الأولى للمرْزُباني من أئمة الأدب جاء فيها: «إن الجاحظ كان وأسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وإن له كتبًا كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرءوها، وعرفوا فضلها. قال: وإذا تدبر العاقل

(١) المدره، كمنبر: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

(٢) المسك: الجلد.

(٣) يقال: فلان موطأ العقب؛ أي له سلطان يتبع وتوطأ عقبه. والخلة: الخصلة، والخلة أيضًا: الطريق والسبيل وهو أولى هنا.

المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول، وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها؛ والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور».

والشهادة الثانية لأبي حيان التوحيدي وقد ألف فيه كتابًا سماه «تقريظ الجاحظ» ومما قاله فيه: اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة[١]، وأبو زيد البلخي، فمنهم من يزيد معناه على لفظه، وهو علي بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد؛ قال: قلت لأبي محمد الأندلسي، وكان من عدد أصحاب السيرافي: قد اختلف أصحابنا في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ، وأبي حنيفة صاحب النبات، ووقع الرضا بحكمك فما قولك؟ فقال: أنا أُحقر نفسي عن الحكم لهما أو عليهما. فقال: لا بد من قول. قال: أبو حنيفة أكثر ندارة، وأبو عثمان أكثر حلاوة، ومعاني أبي عثمان لائطة[٢] بالنفس، سهلة على السمع، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب، وأدخل في أساليب العرب. قال أبو حيان: والذي أقوله وأعتقده، وآخذ به وأستهم[٣] عليه، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم؛ أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة،

---

(١) علي بن عبيدة الريحاني المتكلم صاحب التصانيف، قال ياقوت: من الناس من يفضله على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف.

(٢) لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط لوطًا وليطًا: حبب إليه وألصق.

(٣) استهم الرجلان: تقارعا.

وبسببه جُشمنا هذه الكلفة؛ أعني أبا عثمان عمرو بن بحر، والثاني أبو حنيفة الدينوري، والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي.

والشهادة الثالثة شهادة أمير المؤمنين المأمون، قالوا: لما نظر المأمون في كتاب الجاحظ في العباسية، وكان اليزيدي أدخله عليه، دعا بالجاحظ فقال: يا عمرو قد كان من يُرتضى عقله، ويصدق خبره، ألقى إليَّ صفة هذا الكتاب، فكنت أرى الصفة عيانًا، فلما حضر العيان أربى على الصفة، ولما فُلي أربى الفَلْي على العيان، كإرباء العيان على الصفة. وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب، ويجلُّ عن الحاجة إلى المحتجين له، جامع لاستقصاء المعاني واستيفاء الحقوق، بلفظ جزل، ومخرج سهل، سوقي ملوكي، خاصي عامي. قال الجاحظ: فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب آثر عندي من الكتاب.

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وأنه كان (نسيج وحده في جميع العلوم). قال الصفدي: من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه، ورأى فيها الاستطرادات التي استطردها والانتقالات التي ينتقل إليها، والجهات التي يعرض بها في غضون كلامه بأدنى ملابسة، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف. ولما ذكر الذهبي في النبلاء تجويد الجاحظ في كتاب النبوات ترحم عليه، وقال: «فكذلك فليكن المسلم» مع أنه من خصومه في المذهب. وقال ابن سنان الخفاجي: «فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره».

حدث أبو القاسم السيرافي قال: حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد فقصر[1] رجل بالجاحظ وأزرى عليه، وحَلُم الأستاذ عنه. فلما خرج قلت له: سكَتَّ أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله، مع عادتك بالرد على أمثاله. فقال:

(١) قصر به: أزرى به وحقره.

لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو واقفته وبينت له، لنظر في كتبه وصار إنسانًا؛ يا أبا القاسم (كتب الجاحظ تعلم العقل أولًا والأدب ثانيًا). وكان ابن العميد يقول: ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس؛ أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دوَّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيرًا إليه ومخبرًا عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ.

أبو حيان التوحيدي

عصره:

القرن الذي أولد التوحيدي، وشبَّ فيه واكتهل وشاب، هو العصر العباسي الثالث، فسدت فيه عصبية بني العباس، فلم تبق لهم كلمة مسموعة، ولا رأي جميع[1]، ولا قوة نافذة، ولا كيان يُرتجى معه البقاء. تغلغلت الأعاجم في جسم الدولة، وتسلطت على الأمور، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الأمور تلتوي، ودولة الخلافة تضؤل وتتراجع، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها، وعاث سوس الفساد في ذاك الجسم العظيم، وتناثر عقد الدولة العباسية، وانتقصت من أطرافها، والأهواء مشتتة، والنفوس شعاع[2].

لم يكد ينسلخ[3] الربع الأول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط، واستأثر البريدي بالأهواز وأعمالها، وذهب أبناء بُويْه الديلم بفارس والرَّيّ وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل، وغدت خراسان وما وراء النهر بيد السامانية، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في أيدي بني حمدان، وانتقلت مصر والشام إلى الإخشيدية، والبحرين واليمامة إلى القرمطي، والمغرب وإفريقية إلى القائم العلوي، والأندلس للناصر عبد الرحمن الأموي.

---

(١) الجميع: ضد المتفرق.

(٢) الشاع، كسحاب: التفريق، والرأي المتفرق.

(٣) سلخ (كنصر ومنع) الشهر: مضى كانسلخ، وفلان شهره أمضاه وصار في آخره.

لم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق، وليس للخليفة وزير، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته القليلة. وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة، وهكذا كانت مملكة بني العباس نهبَ أيدي الأتراك والديلم -والأتراك جيل من التتر معروف، والديلم سكان الجبال في فارس- وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم، وحاولوا نزع تراث العباسيين من أيديهم.

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم، فقتل المقتدر، وبويع للقاهر ثم خلع، وخلفه الراضي، واستخلف المتقي، ثم بويع للمستكفي وهو كأكثر من سلفه مغلوب على أمره. وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الإخشيديين، ودولة الفاطميين تستولي على مصر، ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي، وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك. وأصبح خليفة بني العباس أشبه بصاحب منصب ديني له القول ولغيره العمل، يملك الاسم، والجسم يستغله المستغلون من المتغلبين والمتوثبين، والبلاد تخرب والنفوس تهلك، حتى لقد خربت بغداد عند استيلاء البويهيين عليها وأخذوا بتجديدها ورمّها، وكانت في المائتين الثانية والثالثة أعمر مدينة في الأرض، وكان القرامطة[1] خلال تلك الأيام يعثيون في العراق ثم تعدوا إلى الشام، بعد أن عبثوا بمقدسات الأمة في الحجاز، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزاع إلى الفتنة. أما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراوحونها، ودولة بني حمدان كَفَت عاديتهم، وغزاهم

(١) القرامطة: نسبة لمحمد بن قرمط، لقب بذلك لقرمطته؛ أي تقريبه في خطه أو خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية.

منصور بن نوح الساماني عام النفير[1] في ألوف من أهل خراسان وما وراء النهر. وفي خلال هذا القرن انقرضت دول، ولا سيما السامانية والإخشيدية، وقام محمود بن سبكتكين رجل ذاك العصر فاستولى على خراسان، وامتدت فتوحه حتى أخضع لسلطانه جزءًا مهمًّا من الهند والشرق.

وفي هذه المملكة، بل الممالك التي كانت تتخبط في أقدارها، وتختلط أمورها بأيدي أخيارها وأشرارها، نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل المائة الثالثة. وقد تضعف السياسة في أمة وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها، وعلومها آخذة بالنظام الذي كان لها، كما قيل: «يفنى القميص وفيه ريح المندل[2]». ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك، ممن أرادوا أن يكون في جملتهم الأجلاءُ والقضاة، يستأثرون بهم دون جيرانهم، ويزينون بهم ملكهم، أو يستخدمونهم ليعينوهم على قيام أمرهم، أو يختارون طبقة من الأدباء والشعراء، ينادمونهم ويمدحونهم، ويخلدون مآثرهم ويعظمون مفاخرهم، فيعتزون بهم عند القريب والغريب، والبغيض والحبيب. فكانت في هذا الشأن تجاري بغداد كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمذان والري وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة.

وتنوعت المذاهب التي غلبت على الأمصار، فكان أهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة، وبغداد تؤوى جميع النحل وفيها غالية يحبون معاوية، ومشبهة وهم أصناف كثيرة، ويهود بإقليم الجبال أكثر من نصاراها، ومجوسها كثير والمجوس أصحاب زرداشت، المعظمون للنار وسائر الأنوار. ولكل بلد من بلاد العجم طرز

(١) النفير والنفر: القوم ينفرون معك ويتنافرون في القتال، وتنافروا: ذهبوا.
(٢) المندل: العود أو أجوده كالمنلي، ومندل بلد في الهند، ولعل هذا العود نُسب إليها.

يخالف الطرز الآخر، فمنمها ما تجد فيه الغلبة للحنفيين، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة، ومنها ما كانت شيعته غالية، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث، وأكثر إقليم خوزستان معتزلة، وفي الأقاليم الأخرى شيعة وحنابلة وشوافع. والفتن كثيرًا ما تقع بين الحنابلة والشافعية في بغداد، أو بين السنة والشيعة في مدينة السلام وبعض أصقاع فارس والجبال وما إليها فيُفني بعضهم بعضًا.

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية[1] خشية العامة وجهلة السلاطين، واعتزل الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة في مجالس على حيالهم، وكان التوحيدي أحد أساطين تلك الحلبات والحركة الدائمة في الإفادة والاستفادة طفحت أيامه بالغرائب، فكان عجبًا في نفسه ودرسه.

نشأته وأعماله:

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيد، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله:

يترشفن من فمي رشفات ... هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل: إن التوحيدي نسبة للمعتزلة؛ لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وهو الأرجح. ذكروا في أصله أنه شيرازي، وقيل: نيسابوري، وقيل:

---

(١) التقية: مشتقة من اتقاه؛ أي خافه، وهي ضد العلانية، وكان المسلمون لأول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيدارونه إذا كان قويًا، من غير أن يستحلوا دمًا حرامًا أو مالًا حرامًا أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهروا الكفار على عورات المسلمين. واختلفت الفرق الإسلامية في التقية ومنها التي تجوزت فيها كثيرًا، وبعضهم حدد لها شروطًا، ولا سيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباطنة. ويقضي الشرع والعقل أن يستعمل في دار التقية ما لا يستعمل في دار العلانية.

واسطي، وهو عربي، وما كان يعرف الفارسية، ولو نشأ في فارس لكان يتكلم بها، وكنيته أبو حيان، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في أوائل العقد الثالث، ونشأ في بغداد وعُمّر لأنه مات على رأس الخمسمائة أو بعدها بقليل، وقيل: مات بشيراز سنة (٤١٤).

نزل التوحيدي بغداد صغيرًا على ما يظهر، وتخرج في النحو بأبي سعيد السيرافي وبعلي بن عيسى الرماني، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوروزي وأبي بكر الشافعي، وحضر في أوقات مختلفة بين سنتي (٣٦١-٣٩١هـ) دروس يحيى بن عدي وأبي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل أبي الحسن العامري، وأبي النفيس الرياضي الفيلسوف، فجاء مفننًا في العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين في عصره عُدَّ حكيمًا عظيمًا، وصفا ذهنه، وزاد تسامحه، وأصبح يُحكّم عقله فيما يرى ويسمع، لا يأخذ الأشياء على ظواهرها، ويواصل الدرس والنظر، غير متحيز لفئة، ولا متعصب لرأي جماعة.

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظيًّا، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق أهل الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن، حُفَظَةٌ واسع الرواية والدراية. قال: ولم أرَ واحدًا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا أدمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب. وقال فيه: إنه صوفي السمت والهيئة، وإنه كان فقيرًا صابرًا، وعدَّه السبكي في فقهاء الشافعية، وقال: إنه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه، وآخر ما أخذ عنه بشيراز سنة أربعمائة. وقال النووي في

تهذيب الأسماء: إنه من أصحابه المصنفين، وأن من غرائبه أنه قال في بعض رسائله: لا ربا في الزعفران، ووافقه على قوله القاضي أبو حامد المروروزي.

ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسات أو المقابسة، وكتاب الإشارات الإلهية، والرد على ابن جنّي في شعر المتنبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة، وكتاب الزلفة، وكتاب رياض العارفين، وكتاب تقريظ الجاحظ، وكتاب مثالب الوزيرين(١)، وكتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي، ورسالة في صلات الفقهاء في المناظرة: الرسالة البغدادية، الرسالة في أخبار الصوفية، الرسالة الصوفية أيضًا، الرسالة في الحنين إلى الأوطان، كتاب المحاضرات والمناظرات، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل جلد له فاتحة وخاتمة. وقد ساق الصفدي في الوافي بالوفيات ثبتًا طويلًا في مصنفاته، ومنها كثير في كتب فتوح البلدان يستدل بها على تضلعه من هذا الفن أيضًا. وأثبت في أكثر من أربع صفحات كلها أسماء كتبه.

وكتبُ أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات، وتقريع وتقريظ، ونقد ولمز، ووعظ وإرشاد، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين، صوَّر فيها العلم

---

(١) اطلع ياقوت الحموي على بعض كتب التوحيد أوائل المائة السابعة، ونقل منها كثيرًا في كتابه معجم الأدباء، ومنها ما كان بخط المؤلف مثل كتاب «تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ»، و«مثالب الوزيرين»، و«الإمتاع والمؤانسة» و«كتاب المحاضرات أو محاضرات العلماء»، وفي إحدى مكاتب الأستانة نسخة من مثالب الوزيرين وأخرى تامة من الإمتاع، وفي دار الكتب بدمشق الجزء الأول من الإشارات الإلهية، وله مختصر محفوظ في دار كتب الأمة ببرلين، وفي دار الكتب الإمبروزيانية في ميلانو الجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة، ونسخة من كتاب البصائر له، وفي مكتبة الفاتح في الأستانة خمس نخس مخطوطة من البصائر والذخائر، وفي دار الكتب في لينينغراد نسخة من الحجيج للتوحيدي. وليس لأبي حيان من المطبوع سوى رسالة الصداقة والصديق وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم وكتاب الإمتاع والمؤانسة.

والأدب في أيامه أحسن صورة. وتنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون حسدًا ولؤمًا، وما مثله بالذي يكون نكرة؛ ذلك لأنه قال الحق ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرِّي.

كان التوحيدي -على ما يظهر من كلامه- من أهل الباطن؛ أي الصوفية، ومن أهل الظاهر؛ أي الدينيين الحكماء، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبي والتستري والجنيد والسَّري السَّقطي وإبراهيم بن أدهم وغيِّرهم من النساك أو الصوفية، وبين مذهب السجستاني والزَّنجاني والمهرجاني والصَيْمَري والمقدسي والمجتبي وابن زرعة وابن سوار وابن رفاعة في الحكمة. وقد شهدت له كتبه بأنه متصوف، وشهدت له بأنه فيلسوف، وأنه جمع بين العلوم المادية والعلوم المعادية، ووفَّى كل علم قسطه من النظر، وليست له طريقة خاصة في التصوف، ولا مذهب معروف في الفلسفة، بل إنه أحاط بجميع الطرق، وحَنى عليها، وطابت نفسه بعشرة أهل ثقتها والأخذ عنهم. وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من المباحثات والمناقشات المدونة بعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الديني أو الفلسفي، وبدا كل ذلك في مظهر غريب بأسلوب إنشائه، وما غفلة المؤرخين أو تغافلهم عن الترجمة له، مع هذه البسطة في العلم الواسع، والبيان الرائع، إلا بسبب أخلاقه على ما يظهر، فغمطوه بذلك حقه، لكن الفضل لا يستر بحجاب، والعقل لا يخفى على ذوي الألباب.

وظهر أن أبا حيان كان مقترًا عليه في الرزق، وأنه كان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة. قال عن نفسه: «أنا رجل حب السلامة غالب عليَّ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندي»، ولم يلِ التوحيد أمرًا من أمور الدولة، ويستحيل

على من كان في مثل علمه واستغراقه في دفاتره أن يتقلد الأعمال، فإذا لم تكن له إدرارات من السلطان أو الخليفة يعيش بها يبرّح به العوز والإملاق.

لما ترامى إلى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بُوَيْه في الشرق، وكانا يُفضلان على أعلام العلم في مدينة السلام ويبرانهم بهباتهما الحين بعد الآخر، ووصلت عطاياهما إلى شيخي التوحيدي أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي -سمت نفس أبي حيان إلى أن يقصد ذينك الوزيرين وانقطع إليهما، وقدم بين يدي نجواه مدحهما، إلا أنه لم ينل منهما رغيبته وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دار الصاحب لم ينقده درهمًا، ولا أعطاه راحلة ولا زادًا. أخفق في قصر الصاحبين مع أنهما كانا مع الوزير المهلبي من أكبر حماة الأدب، كما كان سيف الدولة بن حمدان في حلب، وربما كان التوحيدي استطال عليهما، وفيهما عزة السلطان وأبهة الفرس، فازدرياه فشق عليه الأمر، وهجاهما في كتاب أسماه «مثالب الوزيرين»، أورد فيه حكايات في ثلبهما؛ ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم، قال: إنه فارق باب الصاحب سنة (٣٧٠) وقد نال منه هذا الحرمان الذي قصده به وأحفظه عليه، وجعله من جميع غاشيته فردًا. ومن جملة ما نفّره من الصاحب أن هذا قدم إليه رسالة في ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له فقال: نسخ مثله يأتي على العمر والبصر، والوراقة كانت موجودة ببغداد! فأخذ الصاحب في نفسه عليه.

وقد عرفنا شيئًا من أخلاق التوحيدي في هذا الكتاب، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين، وأحبابهما كُثّار في الأمصار، فأعرض الناس عنه ووقعوا فيه، وأسقطوه من دواوينهم. وعجيب أن يغضب الناس لهضم حق المهجوّين، وقلما يغتاظون لحق الهاجين، وأن لا يحفلوا بالسبب الذي يلجئ هؤلاء إلى الهجاء أحيانًا. وقيل: إن الصاحب بن عباد اتهم التوحيدي بالزندقة ففر منه، وطلبه الوزير

المهلبي ليقتله ففر إلى ديار بكر، وفي رواية: أنه مات في الاستتار؛ ولكن التوحيدي إذا فاتته أفضال الوزيرين الصاحبين، فقد لقى إكرامًا من الوزير ابن سعدان وعبد الله بن العارض الشيرازي، ولابن سعدان ألَّف كتاب الصديق والصداقة، ولابن العارض كتاب الإمتاع والمؤانسة، وللدُّلَجي بشيراز ألَّف كتاب المحاضرات. ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيدي عن إهداء كتبه كلها إلى بعض عظماء عصره، وكانت طريقة إهداء المؤلفين مصنفاتهم لأمير أو عظيم من الشائع المعروف، وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف بأسماء عظماء عصرهم، والارتزاق بعطاياهم وهداياهم.

قضت الفاقة على التوحيدي أن يتكفف بعض الأمراء، وكتابه إلى ابن العميد نموذج من هذا التنزل، ولكن العجز غالب لأنه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه. وقال: إنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين: رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة، وإن سكت سكت عن ضِغن وإحنة[1]، ورجل إن بذل كدَّر بامتنانه بذله، وإن منع حسن بإقباله بخله. ولقد دعا، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم، وبان له نبوُّ الدهر به، وضياع سعيه، وخيبة أمله، في كل ما ارتجاه لملمٍّ أو مهمٍّ، أو حادثة أو نائبة، دعا بها دعا به بعض النساك فقال: «اللهم صُنْ وجوهنا باليسار، ولا تذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء».

وإذا أنصفنا أبا حيان فلمناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتها وجسم سيئاتها، مما ساقه إليه خيبة في أمله، أو مساس في عاطفته، أو اعتداد برأيه،

(١) الدمنة: الحقد القديم. والإحنة: الحقد والغضب. والضغن: الحقد.

فلا نذهب مع القائلين بالحكم عليه بالزندقة، اللهم إذا وقفنا في الحكم عليه عند حدود أقواله، وفيها شاهد على توحيده، وبعده عن الإلحاد الذي قُرف به. على أن معظم من ذكروه، ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الأدباء، قالوا: إنه كان يتأله؛ أي: يتنسك ويتعبد، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته. ودعوى ابن الجوزي أن زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو حيان وأبو العلاء المعري، وأنه كان أشدهما، صرَّح وهو جمجم، من الكلام الذي يلقى على عواهنه، أخذه على ما يظهر بدون روية، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص، وكذلك ما قيل من أن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يخفيه من ذلك، فطلبه ليقتله ففرَّ، كلام فيه نظر أيضًا[1]، على أن كثيرين من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراوندي والتوحيدي والمعري، فلم يُتهموا بشيءٍ ولا قدح الناس في دينهم، وذهبوا من هذا العالم بسلام، لم يمسهم أحد بسوءٍ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم. ولطالما وجهت تهمة الزندقة إلى كثير ممن توسعوا في علم الكلام أو العلم الإلهي، أو علوم الأوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي، وكان نمط تفكيرهم جديدًا يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطنعه رجل مات أو رجال ماتوا، فوَقَروا في الصدور، وعلت منزلتهم بين الناس. والميت أفضل عندهم من الحي، وقد يكون بينهما بون بعيد وفروق ظاهرة.

والأرجح أنه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي، والطاعنون إما حسدة ساقهم لؤم الغريزة إلى النيل من عظيم بَذَّهم وأربى عليهم،

---

(١) في معلمة الإسلام ترجمة للتوحيدي بقلم الأستاذ مرحليوث، جاء فيها أن الوزير المهلبي نفى أبا حيان لما صرح به من الإلحاد في كتبه التي ضاعت، وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال: إنه ليس من الثابت أن هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيدي التي ذكرها ياقوت.

فما استطاعوا مشاركته ومنافسته، أو أنهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه، وباب التأويل متسع لمن يحاول أن يسقط مؤلفًا مثله، خاض أصعب المسائل الإلهية والاجتماعية.

قال فيه بعض واصفيه: إنه قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذمُّ شأنه، والثلب دكانه، يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه. وقد لامه أستاذه السيرافي يومًا وهو ينقل ذم أعرابي بقوله: «تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس»، فأجاب: «أدام الله الأستاذ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه». وهذا الخُلق في النَّيْل من الناس لا سبيل إلى تبرئة أبي حيان منه، لأنه مما أجمعت الآراء على أنه كان فيه متأصلًا باديًا، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بني آدم. ويوشك صاحب هذا المشرب أن يعادي أكثر أهل زمانه، هذا وهم دونه في صوب العقل وذوب الفضل.

مثال من إفحاشه في وصف الرجال: سأله ابن العارض الوزير في إحدى مجالسه عن أبي الفتح بن فارس وكان أقام عنده بقَرْمسين أيامًا وعما وضح له من تقدمه وتأخره في صناعته وبضاعته، فكان من الجواب: أنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلا أن الرجحان لما يُذَمُّ به لا لما يحمد عليه. فمن ذلك أن له خبرة بالتصرف، وهناك أيضًا قسط من العلم بأوائل الهندسة، وتشبه بأصحاب البلاغة، ومذاكرة في المحافل صالحة، إلا أن هذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة، وقد كان قرينه بقرميسين يظن به خيرًا ويلحظه بعين ما، فلما سبره ذمه وكره أن يعاجله بالصرف لئلا يحكم على اختياره بالخطأ وعلى تصرفه بالهوى. وللكبراء ذوي القدرة زلات فاحشة، وفعلات موحشة، ولكن ليس لهم عليها مُعيّر للخوف منهم.

إن الرجل الذي يخوض غمار المباحث الدقيقة، ويخرج منها ناصع الجبين والحجة، ناجح المسعى والمرمى، وهو من أفراد الدنيا بذكائه ونبوغه، يستحيل أن يتقيد بقيود أفكار غيره: يصدر إذا صدروا، ويرد إذا وردوا، يقلدهم في كل ما قرروا أو قُرِّر لهم، ويتابعهم عموا وضلوا، أم أبصروا واهتدوا. وفي البشر عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب أبي حيان، قضوا أيامهم في ضيق من معاشهم، وضيق من عقول أهل جيلهم، وضيق من عبث المناظرين والمتعالمين، وسيطرة المستبدين والجائرين.

تشاؤمه وتفننه:

تُرى هل كان التوحيدي يسمع الموسيقى والغناء، ويجلس إلى أرباب الدعابة والهزل، ويخلع ثوب الجد والوقار، ساعة من ليل أو نهار؟ وبغداد في أيامه علقت الطرب، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات إلى أسمى الرتب، وخرج الأدب فيها عن خشونته، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب، وفؤاد مضطرب، ووصف واقعة حال. وأكبر الظن أن التوحيدي لم يكن على شيء من هذا، اللهم إلا إذا كان في صباه، وقد عرف بنسكه وزهده، أجمع على ذلك العارفون به. ومن شعره:

إن كنت تطلب مجدًا ... إذا ذُكرت وفضلا
فكن لعبدك خلًّا ... وكن لخلك مولى

وكتب إلى صديق:

لا تجعلن بُعد داري ... مخسًا لنصيبي
فربَّ شخص بعيد ... إلى الفؤاد قريب
ورُبَّ شخص قريب ... إليك غير حبيب

مـــا البعـــد والقـــرب إلا مـــا كـــان بـــين القلـــوب

وشعره قليل، وقد قال عن نفسه: لست من الشعر والشعراء في شيء.

ولقد أحرق أبو حيان كتبه في آخر عمره لقلة جدواها بزعمه، وضنًا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته. وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك. ومما قال في الاعتذار: «إن كان -أيدك الله- قد أنقب خفك[1] ما سمعت، فقد أدمى أظَلِّي ما فعلت، فليهن عليك ذلك، فما انبريت له، ولا اجترأت عليه، حتى استخرت الله عز وجل فيه أيامًا وليالي، وحتى أوحى إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع، وتربع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو العذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي. إن العلم -حاطك الله- يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا على العلم، كان العلم كلًّا على العالِم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلًّا، وأورث ذلًّا، وصار في رقبة صاحبه غُلًّا.

ثم اعلم -علمك الله الخير- أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًّا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المَثالة[2] منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمدِّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله ولا شك في

(١) أصل المثل: إن يَدْمَ أظلك فقد نقب خفي. الأظل: ما تحت منسم البعير، والخف: واحد الأخفاف وهي قوائمه. يضربه المشكو إليه للشاكي؛ أي أنا منه في مثل ما تشكوه (أمثال الميداني) والمنسم كمجلس: طرف خف البعير، وهما كالظفرين في مقدمته.

(٢) الفضل؛ يقال: هو من ذوي مثالتهم.

حسن ما اختاره الله لي، وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره، أن تكون حجة عليَّ لا لي.

ومما شحذ العزم على ذلك، ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا منيبًا، فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلتَ: ولِمَ تسمهم بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة، هو الذي حقق ظني بهم بعد المات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ؛ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر[1] في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخافٍ عليك، مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صوب ما فعلته وأتيته، بما قدمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته؛ إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل.

وبعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة، أو رجاءٌ لحال جديدة، ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

---

(١) الخضر ككتف: البقلة الخضراء كالخضرة كفرحة، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدُّخن، وكذلك ثمرتها، وترتفع ذراعًا، وهي تملأ فم البعير (التاج).

(٢) يقال: هو هامة اليوم أو غد؛ أي مشفٍ على الموت.

نـــروح ونغـــدو كـــلَّ يـــوم وليلـــة وعـــما قليـــل لا نـــروح ولا نغـــدو

وكما قال الآخر:

تفوقـــت درّاتِ الـــصبا في ظلالـــه إلى أن أتـــاني بالفطـــام مـــشيب

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقرُّ بهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع، وتواتر إليَّ نعيهم، واشتدت الواعية[1] بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم، وهل لي محيد عن مصيرهم، أسأل الله تعالى رب العالمين، أن يجعل اعترافي بها أعرفه، موصولًا بنزوعي عما أقترفته، إنه قريب مجيب».

قال: «وبعد؛ فلي في إحراق هذه الكتب أُسوة بأئمة يُقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويُعْشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، ويوسف بن أسباط، وأبو سليمان الداراني»، ثم أردف بقوله:

«وماذا أقول، وسامعي يصدق، إن زمانًا أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزنًا وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظًا وجوًى، وضنى وشجى، وما يصنع بما كان، وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجت إليه للناس، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس، وذلك من فضل الله علينا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلِمَ تُعَنِّي[2] عيني -أيدك الله- بعد هذا بالحبر والورق

(١) الصراخ.

(٢) تعني: تتعب، وأعناه وعناه.

والجلد، والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العُلا إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب، في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرج[١]، وهو بصاحبه إلى الهبوط، وهل وصل الحكماء والقدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي، وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم، فأين يُذهب بنا؟ وعلى أي باب نحطر حالنا؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحيص الجشع عليها؟ وهل المغرم بها إلا كمكاثرها؟ هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مقض، والمقام ممض[٢]، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاغترار غالب».

وختم كتابه بقوله: «على أني لو علمت في أي حال غلب عليَّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله -جل وعز- في خلقه أحكامًا، لا يغارُّ عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها، ولا ينال غيهها[٣]، ولا يعرف قَلْبها[٤]، ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر».

كتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة، وقد ألمّ فيه بما حداه على تعفية أثره، لما لقي من الإنكار، وناله من أهل جيله، فهُجِّن[٥] بما هُجِّن، وأُزعج بما أُزعج،

(١) الزبرج بالكسر: الزينة بالوشي أو الجوهر.

(٢) مضه الشيء مضًا ومضيضًا: بلغ من قلبه الحزن كأمضه. وأقض عليه المضجع: خشن.

(٣) ظلمتها.

(٤) محض كل شيء.

(٥) التهجين: التقبيح.

ولولا أن السويداء غلبت عليه، واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه، وزين له إتيان ما أتى -وبنات الأفكار أغلى من كل عقار ونضار- لما أقيمت له معذرة، ولا أُسبل على ذنبه ستر المغفرة، وبالسويداء قد يهلك المرءُ أعز حبيب على قلبه، حتى إذا ثاب إليه عقله ندم على فعلته، وبالمِرّة الصفراء قد يقتل نفسه، والنفس أعز الأعلاق على الإطلاق. والتوحيدي مع هذا لم يأت بدعًا فريًّا[1]، ولعمله أشباه ونظائر، بيد أن الزمن الذي قلبه كل مقلب، وغيره في أعطاف النعم يتقلب، وأخرجه من جلده، ونبا به عن طوره، بما رآه من خُبث وخَبث، وعَنَت وعَبَث، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ليستمتع بذَرْوٍ[2] من درره أهل الأجيال المقبلة، على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة، فقضى له من قبل المأتم الذي عقده لإحراق كتبه، أن يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره ويتنافسوا في نسخها واقتنائها، فبقيت بصنيعهم هذه البقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكراه على كرور الأعصار، وطارت كل مطار في الأقطار والأمصار.

وإن أعظم ما ينتقد عليه في هذه الرسالة قوله: إنه جمع أكثر كتبه للناس، ولطلب الفضل منهم، وعقد الرياسة بينهم، ونشدان الجاه عندهم. وقوله هذا ينافي هدي العلماء، فإن العلم يُراد لذاته، وتأليف الكتب يُقصد به النفع، ونشر فكر وبث حقيقة، وقد يتوقع منها مأرب آخر هذا إذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها، فإن هذا التصريح مما يعاب عليه، وما نرى هذه الأفكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف. على أننا رأينا أبا حيان في بعض أحواله ومواقفه يقول غير هذا، رأيناه يقول وقد رأى في جامع الرصافة المعافى بن زكريا ينام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضرر أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه: مهلًا أيها

(١) الفري كغني: الأمر المختلق المصنوع أو العظيم.

(٢) يسير.

الشيخ وصبرًا، فإنك بعين الله ومرأى منه ومسمع، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعز المال.

نموذجات من كتبه:

نقلت كتب أبي حيان أفكارًا منوعة، وفلسفة أُناس كادَت تنسى أخبارهم، لو لم يتصد لتدوينها؛ وفي اقتباسها أو اقتباس صفحات منها تتجلى ألوان أدبه وسهولة بيانه. وفيها صورة غريبة من صور عصره، وصور أعجب من صور نفسه، قال في كتاب المحاضرات:

ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام، فإن شيئًا يجري في ذلك المجلس النبيه، وبين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام، ينبغي أن يغتنم سماعه، وتوعى فوائده، ولا يتهاون بشيء منه. وكان في جملة من حضر ذاك المجلس الذي انعقد سنة عشرين[1] وثلاثمائة: الخالدي وابن الأخشيد والكندي وابن أبي بشر وابن رباح وابن كعب وقدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى بن الجراح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي ورسول ابن صُغج من مصر والمرزباني صاحب بني سامان. قال التوحيدي: فقال لي الوزير: أين أبو سعيد من أبي علي، وأين علي بن عيسى منهما، وأين ابن المراغي أيضًا من الجماعة، وكذلك المرزباني وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه؟ فكان مني الجواب: أبو سعيد أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج عن كل طريق، وألزم للجادة الوسطى

(١) في الإمتاع: ست وعشرين.

في الدين والخلق، وأروى للحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضر بركة على المختلفين، وأظهر أثرًا في المقتبسة.

ومما جاء في هذه المناظرة في اللغات والترجمة: إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك... فمن أين يجب أن نثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية... ومن فِقرها: وقال أبو سعيد: فأنت (أي متَّى) إذًا لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية، وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها وقد عَفَت منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذي كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية؟ قال متَّى: يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض، وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق. قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت، وقوَّمت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت[1]، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام، ولا بأخص الخاص، ولا بأعم العام، وإن كان هذا لا يكون، وليس في طبائع اللغات، ولا في مقادير المعاني، فكأنك تقول بعد هذا: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه. قال متَّى: لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة،

(١) حاف يحاف حيفًا: جار وظلم، والتاث: اختلط.

والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر، وانتشر ما انتشر، ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصناعة، ولم نجد هذا لغيرهم. قال أبو سعيد: أخطأت وتعصبت، وملت مع الهوى، فإن العلم مبثوث في العالم. ولهذا قال القائل:

العلم في العالم مبثوث ونحوَه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض، ولهذا غلب علم في مكان دون مكان، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة. ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك، لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطرة الظاهرة، والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأن السكينة نزلت عليهم، والحق تكفل بهم، والخطأ تبرأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم، وهذا جهل ممن يظنه بهم، وعناد ممن يدعيه عليهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيئون في أحوال...

قال أبو حيان: هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الشيخ الصالح بإملائه، وكان أبو سعيد روى لمعًا من هذه القصة، وكان يقول: لم أحفظ على نفسي كل ما قلت، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضًا، وقد اختل كثير منه. قال علي بن عيسى: وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد، ولسانه المتصرف، ووجهه المتهلل، وفوائده المتتابعة. وقال له الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكبادًا، وأقررت عيونًا،

وبيضت وجوهًا، وحكت طرازًا لا تبليه الأيام، ولا يتطرقه الحدثان، قال: قلت لعلي بن عيسى: وكم كانت سن أبي سعيد يومئذ، قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[1].

وقال في الإمتاع والمؤانسة[2]: سأل وزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفاء بقوله: إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولًا يريبني، ومذهبًا لا عهد لي به، وكناية عما لا أُحققه، وإشارة إلى ما لا يتوضح شيءٌ منه، يذكر الحروف ويذكر النقط، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا؛ وأشهد منه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها، وينتفخ بذكرها فما حديثه وما شأنه وما دِخْلَته[3]؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثر عنده، ولك معه نوادر معجبة؛ ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه، وخافي مذهبه.

---

(١) لهازم: جمع لهزمة، وهما عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين.

(٢) نقل القفطي في أخبار الحكماء أن التوحيدي ألف كتاب الإمتاع والمؤانسة لشيخه أبي سليمان المنطقي، والحقيقة أنه ألفه لأبي الوفا المهندس الذي أوصله إلى الوزير عبد الله العارض وطالبه أن يقيد له ما يجري في مجلسه من الأحاديث والآداب، فكتب التوحيدي ما كان يجري خلال أربعين ليلة في مجلس الوزير، فكان كتاب الإمتاع والمؤانسة، قال القفطي: وهو كتاب ممتع على التحقيق لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر وغاص كل لجة. قال: وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: «ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيًا، وتوسطه محدثًا، وختمه سائلًا ملحفًا»، وحقيقة -كما قال الصقلي- فإن التوحيدي أورد في الإمتاع والمؤانسة ولا سيما في آخره كلامًا في الاستجداء غريب صدوره منه، ولا يجد المدافع حجة يعتذر بها عن قوله، وهذا كل ما يعاب على أخلاقه.

(٣) مذهبه ونيته.

فقلت: أيها الوزير، أنت الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالاختبار والاستخدام، وله منك الإمرة القديمة، والنسبة المعروفة. فقال: دع هذه وصفه لي. فقلت: هناك ذكاءٌ غالب، وذهن وقاد، ومتسع في قول النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع المقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن، إما بالشدو[1] الموهم، وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم. قال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلت: لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيء، وغليانه بكل باب، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زمنًا طويلا، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر اليستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المِهْرَجاني والعَوَقي وغيرهم فصحبهم وخدمهم.

وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية؛ فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسًا وسموها: «رسائل إخوان الصفاء» وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ووهبوها للناس، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة، والطرق المموهة.

---

(١) الشدو: القليل من كل كثير.

قال الوزير: فهل رأيت هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات، وتلفيقات وتلزيقات، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أيامًا، وتبحرها طويلًا، ثم ردها عليَّ وقال: تعبوا وما أغنوا، ونَصِبوا وما أَجْدَوْا، وحاموا وما وردوا، وغَنَّوْا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا[1]، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة، وهذا مرام دونه حدد[2]. وقد تورد[3] على هؤلاءِ قوم كانوا أحدَّ أنيابًا، وأحضر أسبابًا، وأعظم أقدارًا، وأرفع أخطارًا، وأوسع قوى، وأوثق عرى فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أملوه، وحصلوا على لوثات[4] قبيحة، ولطخات واضحة موحشة، وعواقب مخزية، فقال له البخاري بن العباس: ولِمَ ذلك أيها الشيخ؟ فقال: إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق، من طريق الوحي وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه، والمنبه عليه، وهناك يسقط (لِمَ) ويبطل (كيف) ويزول (هلا) ويذهب (لو وليت) في الريح إلخ. هذه حقيقة جمعية إخوان الصفاء، وصفها التوحيدي

---

(١) شَعْر مفلفل: شديد الجعودة، وتفلفل شعر الأسود: اشتدت جعودته، وهلهلوا: نسجوا نسجًا سخيفًا.

(٢) ممتنع باطل.

(٣) ورد: أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورد.

(٤) اللوثة بالضم: الحمق والهيج ومس الجنون.



أجمل وصف. وما أحلى قوله في ابن رفاعة: إنه تصرف في كل فن إما بالشدو الموهم، وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم.

ومن رسائله ما رسمه بأنها كتبت بعد استئذانه صاحبه الوزير في كتاب الإمتاع والمؤانسة: بسم الله الرحمن الرحيم، أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحكم آمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك، ومكّنك من نواصي أعدائك، وثبت أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك. يجب على كل من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونصحًا حاضرًا، وتنبهًا نافعًا، أن يخدمك متحريًا لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك، قاضيًا بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك. وإني أرى على بابك جماعة ليست بالكثيرة -ولعلها دون العشرة- يؤثرن لقاءك والوصول إليك، لما تجنّ صدورهم من النصائح النافعة، والبلاغات المجدية، والدلالات المفيدة، ويرون أنهم إذا أُهلوا لذلك فقد قضوا حقك، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك، وتقديمك وتكريمك؛ والحجاب قد حال بينهم وبينك، ولكل منهم وسيلة شافعة، وخدمة للخيرات جامعة، منهم -وهو أهل الوفاء- ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة؛ ومنهم من يصلح للعمل الجليل، ولرتق الفتق العظيم؛ ومنهم من يُمتع إذا نادم، ويشكر إذا اصطنع، ويبذل المجهود إذا رُفع؛ ومنهم من ينظم الدر إذا مدح، ويضحك الثغر إذا مزح؛ ومنهم من قعد به الدهر لسِنّه العالية وجلابيبه البالية، فهو موضع الأجر المذخور، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور؛ ومنهم طائفة أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعينهم من أحوال أنفسهم، في تزجية عيشهم، وعمارة آخرتهم، وهم مع ذلك من وراء خصاصةٍ مُرة، ومؤنٍ غليظة وحاجات متوالية. ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذا عرضوا أنفسهم عليك، وجهزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظوا منك، واعتزوا بك، لحضروا بابك،

وجشموا المشقة إليك؛ لكن اليأس قد غلب عليهم، وضعفت مُنَّتهم، وعُكس أملهم، ورأوا أن سف التراب أخف من الوقوف على الأبواب، إذا دنوا منها دفعوا عنها؛ فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك، وأدنيتهم بسعة ذرعك وكرم خِيمِك، وأصغيت إلى مقالتهم بسمعك، قابلته بملءِ عينك كان في ذلك بقاء للنعمة عليك، وصيت فاشٍ بذكرك، وثواب مؤجل في صحيفتك، وثناء معجل عند قريبك وبعيدك؛ والأيام معروفة بالتقلّب، والليالي ماخضة بما يتعجب منه ذو اللب، والمجدود من جُدّ في جَده، أعني من كان جده في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره، خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به.

أيها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها، قلَّ من يفي بَربِّها، أو يتأتى لها، أو يعرف حلاوتها، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب، وسمعت ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابًا، والتهب في عشق الثناء التهابًا، أبو محمد المهلبي، فإنه قدَّم قومًا ونوَّه بهم، ونبَّه على فضلهم، وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم، وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَني، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وأبو الخطاب الصابئ، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد بن الهيثم، وابن حفص صاحب الديوان، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري، وابن قريعة، وأبي حامد المروروزي، وأبي عبد الله البصري، وأبي سعيد السيرافي، وأبي محمد الفارسي، وابن درستويه، وابن البقال، والسبري، ومن لا يحصي كثرة من التجار والعدول.

وقال لي ابن سورين: كان أبو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير[1]، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر. وقال عنه: إنه قال: والله لأكونن في دولة الديلم أول من يذكر، إن فاتني أن كنت في دولة بني العباس آخر من يذكر.

فلولا أنك -أدام الله دولتك- أذنت لي أن أكتب إليك كلَّ ما هجس في النفس، وطلع به الرأي، مما فيه مردّ على ما أنت فيه من هذا الثقل الباهظ، وتنبيه على ما تباشره بكاهلك الضخم، لم يكن خطري يبلغ مواجهتك بلفظ يثقل، وإشارة تغلظ، وكناية تخدش، لكنك والله يأخذ بيدك، ويقرن الصنع الجميل بظاهرك وباطنك قد رخصتِ لي في ذلك، وخصصتني به من بين غاشية بابك، وخدم دولتك فلذلك أقول ما أقول معتمدًا على حسن تقبلك، وجميل تكفلك، ومنتظر تفضلك؛ وليس في أبواب السياسة شيء أجدى وأنفع، وأنفى للفساد وأقمع، من الاعتبار الموقظ للنفس، الباعث على أخذ الحزم، وتجريد العزم؛ فإن الوكال والهوينا قلما يفضيان بصاحبهما إلى درك مأمول، ونيل مراد، وإصابة متمنى، وقد قال رجل كبير الحكمة، معروف الحنكة: المعتبَر كثير والمعتبِر قليل. وصدق هذا الرجل الصالح، وهو الحسن البصري: لو اعتبر من تأخر بمن تقدم، لم يكن من يتحسر في الناس ويندم، ولكن الله بنى هذه الدار على أن يكون أهلها بين يقظة ونوم، وبين فرح وترح، وبين حيطة وورطة، وبين حزم وغفلة، وبين نزاع وسلوة، لكن الآخذ بالحزم -وإن جرى عليه مكروه- أعذر عند نفسه عند كل من كان في مَسْكه، من الملقي بيده والمتدلي بغروره، والساعي في ثبوره؛ وما وهب الله العقل لأحدٍ إلا وقد عرَّضه للنجاة، ولا حلّاه بالعلم إلا وقد دعا إلى العمل بشرائطه، ولاهداه الطريقين (أعني الغي والرشد) إلا ليزحف إلى أحدهما بحسن الاختيار.

(١) جمع شبور وهو من آلات الموسيقى.

ثم ذكر له ما وقع لبعض الوزراء لما أهملوا أمر أعدائهم كيف كانت عاقبتهم، وختم بقوله: وللأمور أيها الوزير ظهور وبطون، وهوادٍ وأعجاز، وأوائل وأواخر، وليس على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرّز في المبادئ، ولهذا قال القائل:

لأمـــر علـــيهم أن تـــتمّ صـــدوره ولـــيس علـــيهم أن تـــتم عواقبـــه

وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لمت نفسي على فوت أمر بدأته بحزم، ولا حمدتها على درك أمر بدأته بعجز.

هاهنا ناس إذا تلاقوا بنفث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، وليس يصح كل ما يقال فيُروى على وجهه، وليس يخفى أيضًا كل ما يجري فيمسَك عنه؛ والأمور مرجة، والصدور حرجة، والاحتراس واجب، والنصح مقبول، والرأي مشترك، والثقة بالله من اللوازم على من عرفه وآمن به، وليس من الله عز وجل بدٌّ على كل حال. والله أسأل الدفاع عنك، والوقاية لك، في مصبحك وممساك، وفي مبيتك ومقيلك، وشهادتك وغيبتك... إلى هاهنا انتهى نَفَسي بالنصح وإن كانت شفقتي تتجاوزه، وحرصي يستعلي عليه، لكني خادم، وكما يجب عليَّ أن أخدمَ بنيات الصدر، فينبغي أن ألزم بحسن الأدب، والله إني لوادّ مخلص، وعبد طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس، وأملي غدًا أبسط من أملي اليوم، أشكو إليك الأرق بالليل فكرًا فيما يقال، وتحفظًا مما ينال، وتوهمًا لما لا يكون إن كان، وشر العدا الذين يتمنون لأولي نعمتهم الردى، ويبيتون النكائث[1] ويكسرون الأجفان، ويتجاوزون الأعين، ويتجاهرون بالأذى إذا تلاقوا، ويتهامسون بالألسن إذا تدانوا، والله يصرع جدودهم، ويضرع خدودهم بين يديك، وهذه الرقة مني

(١) النكتة: خطة صعبة ينكت بها القوم.

والحفاوة، وهذه الرعشة والقلق، وهذا التقبع والتفزع كله، لأني ما رأيت مثلك، ولا شاهدت شبهك، كرم خيم، ولين عريكة، وجود بنان، وحضور بشر، وتهلل وجه، وحسن وعد، وقرب إنجاز، وبذل مال، وحب حكمة. قد شاهدت ناسًا في السفر والحضر، صغارًا وكبارًا وأوساطًا فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود، ويرتدي بالعفو، ويتأزر بالحلم، ويعطي بالجزاف، ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والإتحاف بالإتحاف، غيرك. والله إنك لتهب الدرهم والدينار كأنك غضبان عليهما، وتطعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على رزقهما؛ ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة، والخيل العتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يضن به كل جواد؛ وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعل هذا نبيًّا صادقًا، ووليًّا لله مجتبى، فإن الله قد أمن هذا الصنف من الفقر، ورفع من قلوبهم عز المال، وهوّن عليهم الإفراج عن كل منفس ياقوتًا كان أو درًّا، ذهبًا كان أو فضة؛ كفاك الله عين الحاسدين، ووقاك كيد المفسدين، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رءوس الأشهاد، وكانوا كحصى فجعلتهم كالأطواد؛ وهم يكفرون أياديك، ويوالون أعاديك، ويتمنون لك ما أرجو الله أن يعصبه برءوسهم، وينزله على أرواحهم، ويذيقهم وبال أمرهم، ويجعلهم عبرة لكل من يراهم ويسمع بهم، كان الله لك ومعك، وحافظك وناصرك.

أطلت الحديث تلذذًا بمواجهتك، ووصلته خدمة لدولتك، وكررته توقعًا لحسن موقعه عندك، وأعدته وأبديته طلبًا للمكانة في نفسك، وأرجو -إن شاء الله- ألا أحرم هبة من ريحك، ونسيمًا من سحرك، وخيرة بنظرك. لم أوفق في هذه الكلمة الأخيرة، والله ما يمر بي يأس من إنعامك فأقويه بالرجاء، ولا يعتريني وهم في الخيبة لديك فأتلافاه بالأمل. إنما قصارى أمنيتي إذا حُكّمت أن أعطى فيك سؤلي

بالبقاء المديد، والأمر الشديد، والعدو الصريع، والولي الرفيع، والدولة المستتبة، والأحوال المستحبة، والآمال المبلوغة، والأماني المدركة، مع الأمر والنهي النافذين بين أهل الخافقين، والله يبلغني ذلك بطوله ومنّه.

وآخر ما أقول أيها الوزير: مر بالصدقات فإنها مجلبة السلامات والكرامات، مدفعة للمكاره والآفات؛ واهجر الشراب، وأدم النظر في المصحف، وافزع إلى الله في الاستخارة، وإلى الثقات بالاستشارة، ولا تبخل على نفسك برأي غيرك، وإن كان خاملًا في نفسك قليلًا في عينك، فإن الرأي كالدرة التي ربما وجدت في الطريق وفي المزبلة، وقلَّ من فزع إلى الله بالتوكل عليه، وإلى الصديق بالإسعاد منه إلا أراه الله النجاح في مسألته، والقضاء لحاجته، والسلام.

وفي كتاب الإمتاع أيضًا وصف عصره فقال: وقد بينا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذين يُصلحون أنفسهم ويُصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم (وهنا أبلغ في وصف الكرام وما يأتيهم به كرمه كأنه يستجدي أرباب الجود ويزين لهم هذه الصفة ويعرفهم ما يربحون منها ثم قال): نعم، وكانوا إذا وُلُّوا عدلوا، وإذا ملكوا أفضلوا، وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سئلوا أجابوا، وإذا جادوا أطابوا، وإذا عانوا صبروا، وإذا نالوا شكروا، وإذا أنفقوا واسوا، وإذا امتُحنوا تأسوا، وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب[1] مأمونة، وإلى ديانات قوية، وأمانات ثمينة، وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة، ومع عباد الله معاملة جميلة، ورحمة واسعة، ومعدلة فاشية، وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة، وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة، وربحهم من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة، وكانوا إذا

(١) النقائب من جملة معانيها: العقول، والضرائب واحدها ضريبة: الطبيعة.

تلاقوا تواصوا بالخير، وتناهوا عن الشر، وتنافسوا في اتخاذ الصنائع، وادخار البضائع (أعني: صنائع الشكر، وبضائع الأجر) فذهب هذا كله، وتاه أصله، وأصبح الدين وقد أُخلق لَبوسه، وأُوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، وعاد كل شيء إلى كدره وخاثره، وفاسده وضائره، وحصل الأمر على أن يقال: فلان خفيف الروح، وفلان حسن الوجه، وفلان ظريف الجملة، حلو الشمائل، طاهر الكيس، قوى الدست[1] في الشطرنج، حسن اللعب في النرد، جيدٌ في الاستخراج، مدبر الأموال، بذول الجهد، معروف بالاستقصاء، لا يغضي عن دانق ولا يتغافل عن قيراط، إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره، والكاتب من تسطيره...

وبمثل هذا اللسان وصف عصره في المقابسات بقوله: فقد أصبحنا في هذه الدار كأنما هي قاع أملس، أو أثر أخرس، لم يبق من يرضى هديه، أو يقتبس علمه، أو يُخطب عُرفه، أو يقتفى جوده، أو يقتدح زنده، أو يستفاد لفظه، أو يتوخى مكانه، أو يعرف حده، بأدب من الآداب عليه، أو يباشر بوجه من الوجوه إليه، وما ذاك إلا لنَغَل القلوب، ودخل الأعراق، وخُلُوقة الدين، وغلبة القحة، وارتفاع المراقبة، وسقوط الهيبة، ورفض السياسة، والتبجح بالفحشاء والمنكر، ولعمري ما زالت الدنيا على سجيتها المعروفة، وعاداتها المألوفة، ولكن اشتدت مؤنتها، وتضاعفت اليوم زينتها، بفقد السائس الصارم، وبعد العابد العالم، وبانقراض أهل الحياء والكرم، وبتصالح الناس على التعادي والتظالم.

وقال الوزير في بعض الليالي: قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن

---

(١) الدست: الحيلة.

مكنون أحوالنا ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهمّ في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنة وأيدٍ وأرجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة، ويقطع هذه العادة، لحاهم الله، ما لهم لا يُقبلون على شئونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولمَ ينقبون عما ليس لهم، ويرجفون بما لا يجدي عليهم؟ ولو حققوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدة ولا فائدة؛ وإني لأعجب من لهجهم وشغفهم بهذا الخلق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة، وقد تكرر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكار بين الصغار والكبار، ولقد تعايي عليَّ هذا الأمر وأُغلق دوني بابه، وتكاثف عليَّ حجابه، والله المستعان.

فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعت من شيخنا أبي سليمان، وهو مَن تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشفقة عليها من كل هبة ودبة؛ والآخر مما سمعته من شيخ صوفي وفي الجوابين فائدتان عظيمتان، ولكن الجملة خشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مر، ومن توخى الحق احتمل مرارته. قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس ينتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته وصدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس: عامتهم وخاصتهم، وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويهم، وراجحهم وشائلهم، أن يضجر مما يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة؛ منها: أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلومهم، وصبره أتم من صبرهم؛ ومنها أنهم إنما جُعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختبروا بتصريفهم على أمره ونيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكون عماد حاله معهم الرفق بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها أن العلاقة التي بين السلطان وبين

الرعية قوية؛ لأنها إلهية، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملك والد كبير، كما أن الوالد ملك صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به، والحنو عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد غر، وقريب العهد بالكون، وجاهل بالحال، وعار من التجربة، كذلك الرعية الشبيهة بالولد، وكذلك الملك الشبيه بالوالد؛ ومما يزيد هذا المعنى كشفًا، ويكسبه لطفًا، أن الملك لا يكون ملكًا إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعية إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة، وبسبب هذه العلاقة المحكمة، والوصلة الوشيجة، ما لهجت العامة بتعرف حال سائسها، والناظر في أمرها، والمالك لزمامها، حتى تكون على بيان من رفاهة عيشها، وطيب حياتها ودرور مواردها، بالأمن الفاشي بينها، والعدل الفائض عليها، والخير المجلوب إليها، وهذا أمر جار على نظام الطبيعة، ومندوب إليه أيضًا في أحكام الشريعة.

قال: ولو قالت الرعية لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك؟ ولِمَ لا نسأل عن دينك ونحلتك وعادتك وسيرتك؟ ولِمَ لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحنا متعلقة بك، وخيراتنا متوقعة من جهتك، ومسرتنا ملحوظة بتدبيرك، ومساءتنا مصروفة باهتمامك، وتظلمنا مرفوع بعزك، ورفاهيتنا حاصلة بحسن نظرك وجميل اعتقادك، وشائع رحمتك، وبليغ اجتهادك، ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مصيبة في دعواها التي بها استطالت؟ بلى والله، والحق معترف به وإن شغب الشاغب، وأعنت المعنت.

قال: ولو قالت الرعية أيضًا: ولِمَ لا نبحث عن أمرك؟ ولِمَ لا تسمع كل غث وسمين منا؟ وقد ملكت نواصينا، وسكنت ديارنا، وصادرتنا على أموالنا، وحلت بيننا وبين ضياعنا، وقاسمتنا مواريثنا، وأنسيتنا رفاعة العيش وطيب الحياة، وطمأنينة القلب، فطرقنا مخوفة، ومساكننا منزولة، وضياعنا مقطعة، ونعمنا مسلوبة، وحريمنا مستباح، ونقدنا زائف، وخراجنا مضاعف، ومعاملتنا سيئة، وجنديّنا متغطرس، وشرطينا منحرف، ومساجدنا خربة، ووقوفها منتهبة، ومارستاناتنا خاوية، وأعداؤها مستكبلة، وعيوننا سخينة، وصدورنا مغيظة، وبليتنا متصلة، وفرحنا معدوم، ما كان الجواب أيضًا عما قالت وعما لم تقل، هيبة لك، وخوفًا على أنفسها من سطوتك وصولتك؟

وحكى لنا في عرض هذا الكلام أنه رفع إلى الخليفة المعتضد أن طائفة من الناس يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكان شيخ تبّان، ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنونٍ من الأحاديث، وفيهم قوم سراة وتُنّاء وأهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس، وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم، فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعًا، وحرج صدرًا، وامتلأ غيظًا، ودعا بعبيد الله بن سليمان، ورمى بالرقيعة إليه، وقال: انظر فيها وتفهمها. ففعل، وشاهد من تربد[1] وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، وشرد آلف صبره، وقال: قد فهمت يا أمير المؤمنين. قال: فما الدواء؟ قال: يتقدم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتفريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشد، والهيبة أفشى، والزجر أنجع، والعامة أخوف. فقال المعتضد -وكان أعقل من الوزير-: والله لقد بردت لهيب غضبي بفورتك هذه، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة، وحططت عليَّ الرفق، من حيث أشرت بالخرق، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك وهديك

(١) يريد: تغير.

ومروءتك، ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبذول النصيحة والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكف عن الجهل، وتبعثني على الحلم، وتحبب إليَّ الصفح، وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء، وقد ساءني جهلك بحدود العقاب وبما تقابل به هذه الجرائر، وبما يكون كفأ للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ويبس الطينة ورقة الديانة، أما تعلم أن الرعية ودعية الله عند سلطانها، وأن الله يسائله عنها كيف سستها؟ ولعله لا يسألها عنه، وإن سألها فليؤكد الحجة عليه منها؛ ألا تدري أن أحدًا من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم لحقه أو لحق جاره، وداهية نالته أو نالت صاحبًا له، وكيف نقول لهم: كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معايشكم، غير خائضين في حديثنا، ولا سائلين عن أمرنا، والعرب تقول في كلامها: غلبنا السلطان فلبس فروتنا، وأكل خضرتنا، وحنق المملوك على المالك معروف، وإنما يحتمل السيد على صروف تكاليفه ومكاره تصاريفه، إذا كان العيش في كنفه رافقًا[1]، والأمل فيه قويًّا، والصدر عليه باردًا، والقلب معه ساكنًا، أتظن أن العمل بالجهل ينفع، والعذر به يسع، لا والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت، وجه صاحبك وليكن ذا خبرة ورفق، ومعروفًا بخير وصدق، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحد منها في معاشه، وقدر ما هو متقلب فيه ومنقلب إليه، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به، ومن كان سيء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله ويفيده طمأنينة باله؛ ومن لم يكن من هذا الرهط، وهو غني مكفى، وإنما تخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو فادع به وانصحه، ولاطفه، وقل له: إن لفظك مسموع، وكلامك مرفوع، ومتى وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك منك لم تجدك إلا في عرضة المقابر، فاستأنف لنفسك سيرة

(١) مخصبًا واسعًا.

تسلم بها من سلطانك، وتحمد عليها عند إخوانك، وإياك أن تجعل نفسك عظة لغيرك بعد ما كان غيرك عظة لك؛ ولولا أن الأخذ بالجريرة الأولى مخالف للسيرة المثلى لكان هذا الذي تسمعه ما تراه، وما تراه تود أنك لو سمعته قبل أن تراه، فإنك يا عبيد الله إذا فعلت ذلك فقد بالغت في العقوبة، وملكت طرفي المصلحة، وقمت على سواء السياسة، ونجوت من الحوب والمأثم في العاقبة.

قال: وفارق الوزير حضرة [الخليفة]، وعمل بما أمر به على الوجه اللطيف، فعادت الحال ترف بالسلامة العامة، والعافية التامة، فتقدم إلى الشيخ التبان برفع حال من يقعد عنده حتى يواسى إن كان محتاجًا، ويصرَّف إن كان متعطلًا، وينصح إن كان متعقلًا.

فقال الوزير: ما سمعت مثل هذا قط، وما ظننت أن الخطب في مثل هذا يبلغ هذا القدر؛ فهات الجواب الآخر الذي حفظته عن الصوفي. فقلت: إن كان هذا كافيًا فإن ذلك فضل. فقال: هكذا هو، وإن فيما مر لكفاية، وما يزيد على الكفاية ولكن الزيادة من العلم داعية إلى الزيادة من العمل، والزيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم، والانتفاع بالعلم دليل على سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا، وبالآخر رابحًا.

فوصلت الحديث وقلت: حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة، وتبلبلت دولة آل سامان بالجور وطول المدة، فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قايين وهي حصنه ومعقله، وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة، وعدة عميمة، وزينة فاخرة، وهيئة باهرة، وغلا السعر، وأخيفت السبل وكثر

الإرجاف، وساءت الظنون، وضجت العامة، والتبس الرأي، وانقطع الأمل، ونبح كل كلب من كل زاوية، وزأر كل أسد من كل أجمة، وضبح كل ثعلب من كل تلعة.

قال: وكنا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرحها، فتارة نقرأ، وتارة نصلي، وتارة ننام، وتارة نهذي، والجوع يعمل عمله، ونخوض في حديث آل سامان، والوارد من جهتهم إلى هذا المكان، ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق، وتخطف الناس للناس، وشمول الخوف، وغلبة الرعب، وكان البلد يتقد نارًا بالسؤال والتعرف والإرجاف بالصدق والكذب، وما يقال بالهوى والعصبية؛ فضاقت صدورنا، وخبثت سرائرنا، واستولى علينا الوسواس. وقلنا ليلة: ما ترون يا صحابنا [ما] دفعنا إليه من هذه الأحوال الكريهة، كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع عليها الغارة والنهب، وما علينا من ولاية زيد، وعزل عمرو، وهلاك بكر، ونجاة بشر، نحن قوم رضينا في هذه الدنيا العسيرة، وهذه الحياة القيصرة، بكسرة يابسة، وخرقة بالية، وزاوية من المسجد، مع العافية من بلايا طلاب الدنيا، فما هذا [الذي] يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل، ولا حظ ولا أمل، قوموا بنا غدًا حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه، ساكنين معه مقتدين به، فاتفق رأينا على ذلك، فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد، فلما دخلنا رحب بنا، وفرح بزيارتنا، وقال: ما أشوقني إليكم، وما ألهفني عليكم! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقام واحد، حدثوني ما الذي سمعتم؟ وماذا بلغكم من حديث الناس، وأمر هؤلاء السلاطين؟ فرّجوا عني، وقولوا لى ما عندكم، فلا تكتموني شيئًا فما لي والله مرعى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم، واقترن بخبرهم، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد، دهشنا واستوحشنا، وقلنا في أنفسنا: انظروا من أي شيء هربنا، وبأي شيء

عقلنا، وبأي داهية دهينا، قال: فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا: أرأيتم ما بلينا به، وما وقعنا عليه؟ {إن هذا لهو البلاء المبين}، ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته حتى نقيم عنده إلى آخر النهار، فقد نبا بنا المكان الأول، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل، فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنا، فأذن لنا، ووصلنا إليه فسرَّ بحضورنا، وهش لرؤيتنا، وابتهج بقصدنا، وأعظم زيارتنا، ثم قال: يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه، ولم يدخل عليَّ اليوم أحد فأستخبره وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة، فهاتوا ما معكم وما عندكم، وقصوا عليَّ القصة بفصها ونصها، ودعوا التورية والكناية. واذكروا الغث والسمين، فإن الحديث هكذا يطيب، ولولا العظم ما طاب اللحم، ولولا النوى ما حلا التمر، ولولا القشر لم يوجد اللب، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا من الزاهد الأول، وخاطفناه الحديث، وودعناه وخرجنا، وأقبل بعضنا على بعض يقول: أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟ انظروا من أي شيء كان تعريجنا {إن هذا لشيء عجاب}، وتلددنا وتبلدنا[١] وقلنا: يا أصحابنا، انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير، وإن كان مضربه[٢] بعيدًا فإنا لا نجد سكوننا إلا معه، ولا نظفر بضالتنا إلا عنده، لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته[٣] في بصره، وورعه وقلة فكره في الدنيا وأهلها؛ وطوينا الأرض إليه، ودخلنا عليه، وجلسنا حواليه في مسجده، ولما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به، ويدعو له ويقرب، فلما انتهى أقبل علينا وقال: أمن السماء نزلتم عليَّ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي، وأحرزت غاية سؤلي، قولوا لي غير محتشمين: ما عندكم من أحاديث

(١) تلدد: تلفت يمينًا وشمالًا وتحير متبلدًا وتلبث.

(٢) مضربه: بيته.

(٣) زمانته: عاهته.

الناس؟ وما عزم [عليه] هذا الوارد؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين؟ وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس؟ وما يقع في هواجسكم ويستبق إلى نفوسكم؟ فإنكم برد الآفاق، وجوالة الأرض، ولقاطة الكلام، ويتساقط إليكم ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس. فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعده في طبقة فوق طبقات جميع الناس، فخففنا الحديث معه، وودعناه، وخنسنا[1] من عنده، وطفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم وازدريناهم، وانقلبنا متوجهين إلى دويرتنا التي غدونا من ها مستطرقين كالين، فلقينا في الطريق شيخًا من الحكماء يقال له: أبو الحسن العامري، وله كتاب في التصوف قد شحنه بعلمنا وإشارتنا، وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطّلعوا على أسرار الله في العباد؛ فقال لنا: من أين درجتم؟ ومَن قصدتم؟ فأجلسناه في مسجد، وعصبنا حوله وقصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها، ولم نحذف منها حرفًا. فقال لنا: في طيّ هذه الحال الطارئة غيب لا تفقون عليه، وسر لا تهتدون إليه، وإنما غركم ظنكم بالزهاد، وقلتم: لا ينبغي أن يكون [الخبر عنهم] كالخبر عن العامة، لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصّة الخاصة، لأنهم بالله يلوذون، وإياه يعبدون، وعليه يتوكلون، وإليه يرجعون، ومن أجله يتهالكون، وبه يتمالكون. قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء، وترفع هذا الستر، وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب، لنكون شاكرين وتكون من المشكروين. فقال: نعم، أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور المنافع واتصال الجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح؛ فأما هذه الطائفة العارفة بالله، العاملة لله، فإنها مولعة أيضًا بحديث الأمراء، والجبابرة العظماء لتقف

(١) تأخرنا.

على تصاريف قدرة الله فيهم، وجريان أحكامه عليهم، ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم، والانتقام منهم، ألا ترونه قال -جل ثناؤه-: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته، ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته، وهاهنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل، وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل، ويصير هذا كله سببًا قويًّا لهم في الضرع إلى الله، واللياذ بالله، والخشوع لله، والتوكل على الله، وينبعثون به من حران الإباء إلى انقياد الإجابة، ويتنبهون من رقدة الغفلة، ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة، ويجدون في أخذ العتاد، واكتساب الزاد إلى المعاد، ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره، المحفوف بالرزايا، الذي لم يفلح فيه أحد إلا بعد أن هدمه وثلمه، وهرب منه، ورحل عنه إلى محل لا داء فيه ولا غائلة؛ ساكنه خالد، ومقيمه مطمئن، والفائز به منعم، والواصل إليه مكرّم، وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه إليه، وفتح باب السر فيه عليه، وقد يتشابه الرجلان في فعل، وأحدهما مذموم، والآخر محمود، وقد رأينا مصليًا إلى القبلة وقلبه في طر[1] ما في كمّ الآخر، فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه، فإن الباطن إذا وطأ الظاهر كان توحّدًا، وإذا خالفه إلى الحق كان وجدة، وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالة، وهذه المقامات مرتبة لأصحابها، وموقوفة على أربابها؛ ليس لغير أهلها فيها نفس، ولا لغير مستحقها منها قبس.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها، ويملأ صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على يأس

(١) الطر: الشق والقطع، والمراد السرقة، والطرارون: الذين يسرقون ما في جيوب الناس.

منا فائدة عظيمة لو تمنيناها بالغرم الثقيل، والسعي الطويل، لكان الربح معنا، والزيادة في أيدينا.

فلما سمع الوزير هذا عجب وقال: لا أدري أكلام أبي سليمان في ذلك الاحتجاج أبلغ، أم الحكاية عن المعتضد أشفى، أم رواية الشيخ الصوفي أطرف؟ وما علمت أن في البحث عن سر الإرجاف هذه اللطيفة الخفية، وهذه الحجة الجلية، وكنت أرى أن الصوفية لا يرجعون إلى ركن من العلم، ونصيب من الحكمة، وأنهم إنما يهذون بما لا يعلمون، وأن بناء أمرهم على اللعب واللهو والمجون. فقلت: لو جمع كلام أئمتهم وأعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة عمن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة، سوى ما عند قوم آخرين لانسمع بهم، ولا يبلغنا خبرهم. قال: فاذكر لي جماعة منهم. قلت: الجنيد بن محمد الصوفي البغدادي العالم، والحارث بن أسد المحاسبي، ورُويم، وأبو سعيد الخراز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامي، والفتح الموصلي، وهو الذي سُمع وهو يقول: إلى متى ترددني في سكك الموصل، أما آن للحبيب أن يلقى حبيبه؟ فمات بعد جمعة.

فقال: هذا عجب، ولقد مر في هذا الفن ما كان فوق حسباني وأكثر مما كان في ظني، وكم من شيء حقير يطلع منه على أمر كبير.

ودوّن في بعض ليالي الإمتاع والمؤانسة ما يأتي، وفيه وصف أخلاق الناس وما يلقاه الوزراء من عنت الملوك قال:

ووصف بعض البلغاء التجار فقال: لا يوجد الأدب إلا عند الخاصة والسلطان ومدبريه، وأما أصحاب الأسواق فإنا لا نعدم من أحدهم خُلقًا دقيقًا، ودينًا رقيقًا، وحرصًا مسرفًا، وأدبًا مختلفًا، ودناءة معلومة، ومروءة معدومة، وإلغاء

اللفيف(1) ومجاذبة على الطفيف، يبلغ أحدهم غاية المدح والذم في علق واحد في يوم واحد مع رجل واحد، إذا اشتراه منه أو باعه إياه، إن باعيك مرابحة وخبّر بالأثمان، قوى الأيمان على البهتان، وإن قلدته الوزن أعنت لسان الميزان، ليأخذ برجحان أو يعطي بنقصان؛ وإن كان لك قِبَله حتى لواه محتجًا في ذلك بسنّة السوقيين، يرضى لك ما لا يرضى لنفسه، ويأخذ منك بنقد ويعطيك بغيره، ولا يرى أن عليه من الحق في المبايعة مثل ما له؛ إن استنصحته غشك، وإن سألته كذبك، وإن صدقته حربك، متمردهم صاعقة على المعاملين، وصاحب سمتهم نقمة على المسترسلين(2)؛ قد تعاطوا المنكر حتى عُرف، وتناكروا المعروف حتى نُسي، يتمسكون من الملة بما أصلح البضائع، وينهون عنها كلما عادت بالوضائع(3)؛ يُسرّ أحدهم بحيلة يرزقها لسلعة ينفقها، وغيلة لمسلم يحميه الإسلام، فإذا أحكم عيلته وغيلته غدا قادرًا على حرده، فغرَّ وضر وآب إلى منزله [بحطام قد جمعه مغتبطًا بما أباح من دينه] وانتهك من حرمة أخيه، يعدّ الذي كان منه حذقًا بالتكسُّب ورفقًا بالمطّلب، وعلمًا بالتجارة، وتقدمًا في الصناعة.

فلما بلغت قراءتي هذا الموضع قال الوزير: إن كان هذا الواصف عنى العامة بهذا القول فقد دخل في وصفه الخاصة أيضًا، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلا شائعة في أصناف الناس من الجند والكتّاب والتنّاء والصالحين وأهل العلم؛ لقد حال الزمان إلى أمر لا يأتي عليه النعت، ولا تستوعبه الأخبار، وما

---

(١) اللفيف: الصديق.

(٢) السمت: هيئة أهل الخير وطريقتهم. والمسترسلون: من استرسل إليه إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتكالًا على ما بينهما من ود وصلة.

(٣) الخسائر.

عجبي إلا من الزيادة على مر الساعات، ولو قوف لعلّه كان يرجي بعض ما قد وقع اليأس منه، واعترض القنوط دونه.

مثال من كتابه الصداقة والصديق قال في مقدمته: «اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقي الجيوب حتى نعيش في هذه الدار مصطلحين على خير، مؤثرين للتقوى، عاملين بشرائط الدين، آخذين باطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعاقبة التي لا بد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاءُ ما تشاءُ.

· سُمع مني في وقت بمدينة السلام، كلام في الصداقة والعشرة، والمؤاخاة والألفة، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ، والوفاء والمساعدة، والنصيحة والبذل، والمؤاساة والجود والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين الناس، وعُفي أثره عند العام والخاص، وسئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها، ويُنتفع بها في المعاش والمعاد. وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول: اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات الفهم. وأقول: اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد.

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومؤاتاة

خُلُقية. فمن أين هذا وكيف هو؟ فقال: يا بني اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يَرِثَّان على الدهر، ولا يَحُولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب، مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة حتى إنا نلتقي كثيرًا في الإرادات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل. قال: ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك وأن سهامنا واحدة، وأنصابنا منها متساوية، أو قريبة من التساوي، فعجب وازداد بصيرة في إخلاص الصداقة، وتوكيد العلاقة، فقلت لأبي سليمان كيف يصح هذا، وأنت مطالبك في الفلسفة، وصورك مأخوذة من الحكمة، وقُتَيْبَتُك[1] مجموعة من الحقائق، وخوضك في الغوامض والدقائق، وذاك رجل في عداد القضاة، وجلة الحكام، وأصحاب القلانس، ومخاضه الظاهر الذي عليه الجمهور، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم، فقال: هذا هو الذي انفردنا عنه، بعد أن ازدوجنا عليه، والأصل أبدًا مخالف للفرع، لا خلاف الضد للضد، ولكن خلاف الشكل للشكل، وكان مشتريه خاليًا من قوة زحل، فبرَّز في حلبة القضاة وكان المشتري لي مقتبسًا من زحل فظهرت بما ترى، فجمعتنا المشاكلة على العلم، وفرقنا الاختلاف بالفن.

قلت: هذا والله طريف، ومما يزيد في طرافته أنك من سجستان، وهو من الصَّيْمَرة، فقال: الأمكنة في الفلك أشد تضامًا من الخاتم في إصبعك، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية، من بلد إلى بلد، بفراسخ تقطع، وجبال تعلى، وبحار تُخرق، فقلت: هل تجد عليه في شيءٍ أو يجد عليك في شيء؟

(١) القتيبة: تصغير القتبة، وهي الأمعاء.

فقال: وجدي به في الأول، قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفي مني فيما يخالف هواي باللمحة الضئيلة، وأكتفي أنا أيضًا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا، كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذاك مقنع، وإليه مفزع؛ وقلما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا ندَّت عن صدري إلى لفظي، وذاك للصفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه، والأصل الذي رسوخنا فيه، والفرع الذي تشبثنا به، والله ما يسرني بصداقته حُمر النَّعم، ولا أجدبها بحياتي ما أجد بحياتي لي، وإذا كنت أعشق الحياة لأني بها أحيا، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجني لي ثمرتها، وجلب إليَّ روحها، وخلط بي طيبها وحلاوتها. وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب، وأما أنا فما عرفته إلا قاضيًا جليلًا صاحب جد وتفخيم، وتوقير وتعظيم، وكان مع ذلك بسيط اللسان، شريف اللفظ، واسع التصرف، لطيف المعاني، بعيد المرامي، يذهب مذهب أبي حنيفة.

ثم قال أبو سليمان: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة، شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلة فيها غير مأمونة وكسرها غير مجبور، قال: فأما الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفى بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى، والشائق والاستحلاء والاستخفاف، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم لانتشابهم[1] بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويرد عليهم. وأما التُّنَّاء[2] وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا

(١) انتشب به: اعتلق.

(٢) التانئ: الساكن أو الأهالي، وتنأ: أقام.

نفير. وأما التجار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم وبين كل مروءة، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة. وأما أصحاب الدين والورع، فعلى قلتهم، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى. وأما الكُتَّاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد، والتماري والتماحك، فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل، وأما أصحاب المذاب والتطفيف[١] فإنها رجرجة[٢] بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مساعي فتنشر، ولذلك قيل لهم: همج ورعاع، وأوباش وأوتاش[٣]، ولغيف[٤] وزعانف، وداصة[٥] وسُقاط وأنذال وغوغاء؛ لأنهم من دقة الهم، وخساسة النفوس، ولؤم الطباع، على حال لا يجوز أن يكونوا في خومة المذكورين، وعصابة المشهورين. فلهذه الأمور الحائلة عن مقارِّها، الزائغة على غير جهاتها، علل وأسباب، لو نفّس الزمان قليلًا لكنا ننشط لشرحها، وذكر ما قد أتى النسيان عليه، وعفا أثره الإهمال، وشغل عنه طلب القوت، ومن أين يظفر بالغداء، من كان عاجزًا عن الحاجة، وبالعشاء من كان قاصرًا عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طِمْرين[٦] للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف

---

(١) التطفيف: نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن، والمطففون: الذين ينقصون المكيال والميزان، والمذاب: جمع مذبة بكسر الميم: ما يذب به الذباب، وهي هنة تسوى من هلب الفرس ويقال: أذنابها مذابها، وهو مجاز.

(٢) الرجرجة: الحمقى والمهازيل.

(٣) الوتش: القليل من كل شيء ورذال الناس، ولعلها الأوقاش وهم الأوباش أيضًا.

(٤) اللغيف: من يأكل مع لصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم.

(٥) جمع دائص وهو اللص أو من يتتبع الولاة.

(٦) الطمر: الثوب الخلق.

يهرول وراء الخير المدبر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكي إلى غير رحيم، ولكن حال الجريض دون القريض[١].

ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ، والكمد والومد[٢]، وكأني بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها وأمرَّ نقده عليها، وأنكر عليَّ التطويل والتهويل بها، وإنما أشرت بهذا إلى غيرك، لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، واطلاعك على دخلتي، واستمراري على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرَّني[٣]، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأَسى، وحجباني عن الأُسَى[٤]، لأني فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرافق مشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقَّال أو عصار، أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني[٥] بصنانه، وأسكرني بنتنه. فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخُلُق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملًا للأذى، يائسًا من جميع من ترى، متوقعًا لما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أُفول، وظل التلبث إلى قلوص».

---

(١) الجريض: الغصة من الجرض وهو الريق، والقريض الشعر، وأصل المثل: أن رجلًا كان له ابن نبغ في الشعر فنهاه أبوه عن ذلك، فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك، فأذن له أبوه في قول الشعر، فقال هذا القول.

(٢) الغضب.

(٣) المرة بكسر الميم: قوة الخلق وشدته. وأنفضوا: أرملوا، أو هلكت أموالهم وفني زادهم أو أفنوه، والاسم كسحاب وغراب.

(٤) الأَسى بالفتح: الحزن، والأسى بالفتح والضم: واحدها أسوة ما يأتسى به الحزين.

(٥) أسدرني: حيرني. والصنان: ذفر الإبط.

قال التوحيدي بعد ذكر هذه المقدمة: إن سبب إنشائه هذه الرسالة في الصداقة والصديق أنه ذكر (شيئا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلثمائة، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أذلاها[1] جارية)، فأشار عليه ابن سعدان أن يدونه، فجمع هذه الرسالة وأبطأ عن تحريرها، فلما مر على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها.

وقال في مكان آخر: «قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق، وما يتصل بالوفاق والخلاف، والهجر والصلة، والعتب والرضا، والمذق[2] والإخلاص، والرياء والنفاق، والحيلة والخداع، والاستقامة والالتواء، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار. ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه، وأجرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله، وحبسه في قالبه، فكان رونقه أبين، ورفقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم. ولو أردنا أيضًا أن نجمع ما قاله كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه، لكان ذلك عسرًا بل متعذرًا، فإن أنفاس الناس في هذا الباب طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة؛ لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب، أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف، أو قريب أو بعيد أو ولي أو خليط، كما لا يخلو أيضًا من عدو أو كاشح أو مداجٍ أو مكاشف، أو حاسد أو شامت، أو منافق أو مؤذٍ، أو منابذ أو معاند، أو مزل أو مضل أو مغل. وقد قال الأوائل: الإنسان مدني بالطبع، وبيان هذا أنه لا بد من الإعانة والاستعانة؛ لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه،

---

(١) في المثل: أجر الأمور على أذلاها؛ أي على وجوهها التي تصلح بها وتسهل وتتيسر، وواحد الأذلال: ذل بالكسر.

(٢) مذق الود: لم يخلصه.

وهذا ظاهر، وإذا كان مدنيًّا بالطبع كما قيل، فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سببًا لنظام الحال، أو يكون سببًا لانتشار الأمر، ولا محالة أن هذه وأشباهها مفضية بالناس إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم، وكتبنا جورهم وإنصافهم، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه، وعيون ما ذكروه ونشروه، ونروي في هذا الموضع بقية أبيات، وإن عنَّ شيءٌ حكيناه، ونغلق الرسالة فإنها إذا طالت أُبغضت، وإذا أُبغضت هجرت». اهـ.

وهذا النموذج الذي أوردناه من الصداقة والصديق كافٍ في الحكم على أسلوبه والروح الذي ينزع إليه في تأليفه. وملاحظة التوحيدي على ائتلاف المتضادين في العلم، والتمثيل بصداقة أستاذه أبي سليمان المنطقي وصديقه ابن سيار القاضي، ووصف أبي سليمان وصفًا دقيقًا للصلات التي عقدت بين قلبيهما، ثم إبداعه في وصف طبقات الأصدقاء، كل ذلك من جميل الوصف. ومن أبدع الصفحات وصف غُربته في أُمته، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلق والعادة. ولا بدع فهو من جيد الوصف في نفسية أهل عصره، ومنزلة العالم بين جمهور الغاغة[1]. ومن أجمل الأعذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علمًا منه أن مكانة الكتاب بمادته لا بسعته، ولكن إذا قضت الحال بالتطويل، اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه.

وفي كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله: رأيت ابن سعدان ينشد يومًا وقد أنكر شيئًا من بعض الندماء:

---

(١) الغوغاء من الناس: الكثير المختلط منهم كالغاغة.

عدوٌّ راح في ثوب الصديق ... شريك في الصَّبوح وفي الغَبوق[1]
له وجهان ظاهره ابن عم ... وباطنه ابن زانية عتيق
يسرك ظاهرًا ويسوء سرًّا ... كذاك تكون أبناءُ الطريق

وأنا أُسمي لك ندماءه، وأروي كلاما له وصفهم به؛ منهم أبو علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، وابن الحجاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس، وابن بكر، ومسكويه، وأبو القاسم الأهوازي، وأبو سعد بهرام بن أزدشير. وكان أوزنهم عنده، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه. هؤلاء أهل المجلس سوى الطارئين من أهل الدولة لا فائدة في ذكرهم. قال زيد بن رفاعة: رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق، ويعرض على أهل الآفاق، ليستفيده الصغير والكبير. قال: أصحابي طرائق قدد[2]، كما قال عبد الحميد الكاتب: الناس أخياف مختلفون، وأصناف متباينون؛ فمنهم عِلق[3] مضنة لا يباع، ومنهم غُل[4] مظنة لا يبتاع. وكما قال الآخر:

الناس أخياف وشتى في الشيم ... وكلهم يجمعهم بيت الأدم

فأما ابن زرعة فكبره بالحكمة، وخيلاؤه بالثروة، قد قدح في حاق[5] عقله، وهو لا يحس بذلك القدح، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا التنفج والتعظيم، والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب. يا نائم يا غافل يا ساهي،

---

(١) الصبوح: ما يشرب في الصباح، والغبوق: ما يشرب بالعشي.
(٢) فرق مختلفة أهواؤها.
(٣) النفيس من كل شيء (ج) أعلاق وعلوق.
(٤) سير من جلد أو حديد يجعل في عنق الأسير، ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل.
(٥) وسط عقله.

وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء؟! أسيرتك سيرتهم؟! أحالك حالهم؟! إنما تدعي عقائدهم باللسان، وتنتحل أسماءهم باللفظ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله، لكان محمولًا مقبولًا، ولكنه يأبى إلا ما ألفه، وأفاد المران عليه.

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة قد طرحه في عمق لجّ لا مطمع في انتقاذه منه، ولا طريق إلى صرفه عنه، هذا مع حركات غير متناسبة، وشمائل غير دمثة، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة، ودالة أصحاب الحجة.

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاضي أبي عمر في جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته، مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله، فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء، في صورة عقل حسناء، ولا تخلص هذه من هذه، ولا جرم اجتماعنا به، قاصر عن مرادنا منه، ودنوه منا نابٍ عن مراده له.

أما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة، والمساعدة المطربة، والمفاكهة اللذيذة، والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا (تخرسن) كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا (تبغدد). وإن شئت فضع الاعتبار على من أردت فإنك تجد هذا القول حقًّا، وهذه الدعوى مسموعة.

وأما مِسكويه فإنه يسترد بدمامة خَلقه ما يتكلفه من تهذيب خُلقه، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءَه

في فن هو فيه طويل الذيل، مديد السيل، لا يأذن له في تعاطي فن آخر هو فيه قصير الباع، بليد الطباع، وصاحب هذا الرأي ممكور به، مصاب بجيد رأيه وقد أفسده: قال المهلبي، قال ابن العميد، وفعل ابن العميد، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين. والتشيع بذكر الرجال، واضع من قدر الرجال.

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس، ولا بد للدار وإن كانت قوراء[1] من مخرج، وهو بجهله، مع خفة روحه وقبح وجهه، أدخل في العين، وألصق بالقلب من غيره، مع علمه وثقل روحه، وحسن ظاهره.

وأما الأهوازي أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة، ولا حموضة ولا ملوحة، وإنما هو كالبصل في القِدر، وكالإصبع الزائد في اليد، على أنا نرعى فيه حقًّا قديمًا، ونرحمه الآن رحمة حديثة.

وأما سيدي أبو سعد فوالله إني لأجد به وجدًا أتهم فيه نفسي، وما وجدت ألم سهر معه قط، وإني أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت، ومن الدنيا إذا مُلكت. وإن تمازجنا بالعقل والروح، والرأي والتدبير، والنظر والإرادة، والاختيار والعادة، ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم، وتراضعا من ثدي وبوغيا في مهد، وما أخوفني أن يؤتى من جهتي، أو أُوتى من جهته، وإن عاقبته موصولة بعاقبتي؛ لأني مأمنه وهو مأمني، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه، والله المستعان.

(١) القوراء: الواسعة.

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته، ولولا زيادته التي تصنع بها من نفسه، وبعض من خطراته، لكان هَدّك[١] من رجل، ولكن من لك بالمهذب، ألم يقل الأول: أي الرجال المهذب.

قال زيد بن رفاعة: قلت: أيها الوزيرإن طلوعك في خبايا ضمائرهم، وعلمك بخفايا سرائرهم، يطالبانك بالإفراج عنهم، وقلة الاكتراث بهم، قال: لا نفعل، والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم فرقن[٢] على الحكمة المروية، والأدب المتهادَى، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء، أوَلا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم؟ قال: قلت: هذا ابن عباد بالري وهو من يعرف ويسمع. قال: ويحك! وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول قال: شيخانا أبو علي وأبو هاشم، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته، فما أحب أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليه، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم والأدب والحنكة والإنصاف لذكر شأنه وسيرته، ووصف حاله وطريقته، لحكى كل غريبة، وأتى بكل أعجوبة: الرجل مجدود، وفي زمرة أهل الفضل معدود.

قال أبو حيان: رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكانًا منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق. ونحن عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء في عصر التوحيدي وما يغمزهم به الغامزون، ولو كُتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان في كتبه لجاء الكلام تامًّا

---

(١) هدك: حسبك.

(٢) الترقين: تسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كي لا يقع فيها حساب.

من كل وجه في الحكم على أهل المائة الرابعة في بغداد، ولتبدل الحكم عليهم، وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم، كأنها حكم مُسَمَّط[1] لا ينقض.

في مقدمة كتابه ثمرات العلوم: «أطال الله بقاءكم، وأدام الله كرامتكم، وحرس نعمه عليكم، وحفظ مواهبه لديكم، ولا أخلاكم من عوائده الجسمية، وفوائده الكريمة، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم، وقد كان يقال: من لم يغضب لنفسه ناصرًا، لم يغضب لبني جنسه منتصرًا، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفًا، لم يرْجُ عند النوائب مسعفًا، ومن لم يأنف من القذع في عرضه آبيًا، لم يبت على الخسف إلا راضيًا، والغضب وإن كان مذمومًا عند بعض الخلال، فإنه محمود في بعض الأحوال، وكما أن استمرار الغضب في جميع الأحوال نوع من فساد الأخلاق، كذلك أيضا الرضا في جميع الأمور ضرب من ضروب النفاق، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب.

وقد كنت أحب لصديقي وجليسي، من يأنس بمكاني، أن لا يجعل اللجاج مطيته، والمَحْلَ[2] والمكر طويته، فإن ذلك أحسن له عند الله، وأزين له عند الناس، ومن بعد ذلك فإني لم أرد بلادكم من العراق مباهيًا لكم، ولا حضرت مجالسكم طاعنًا فيكم، ولا تأخرت عنكم متطاولًا عليكم، ولا تتبعت مساويكم شامتًا بكم، بل وردت مستفيدًا ومفيدًا، ومباحثًا ومستزيدًا، فما هذا الذي بلغني عن بعضكم، على حسن توفري على صغيركم وكبيركم، أما إنه لو أنصف لعلم أني إلى تسمحه أحوج مني إلى تصفحه، وهو بمجاملته أسعد مني بمجادلته، وأنا لإحسانه أشكر

(١) حكمك مسمطًا: أي متممًا؛ أي لك حكمك مسمطًا.
(٢) المحل: المكر والكيد.

مني لامتحانه، وهذا باب باطنه ظاهر، وشاهده حاضر، وخفيه جليّ، ولكن ما أصنع والشاعر يقول: إنما للعبد ما رزقا.

ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر، والترادف والتناصر، والذي هاجني لهذه الشكوى، وأحوجني إلى هذه الدعوى قول قائل منكم: ليس للمنطق مدخل في الفقه، ولا الفلسفة اتصال بالدين، ولا للحكمة تأثير في الأحكام، وهذا كلام من لو أنعم النظر، واستقصى الحال، لوقف على ما عليه فيه، وعرف ما له منه. فكان يستبدل بالخلاف وفاقًا، وبالمنازعة خلاقًا[1]، عاب هذا الرجل المنطق وهجّن طريقة الأوائل، وزرى على الحكمة، وفيَّل[2] رأي الناظر فيها، وقبح اختيار الباحث عنها، وهذا كله إن لم يكن قُلُّه سوء تحصيل، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن، وحرج صدر، ومجازفة في القول، وانحرافًا عن الصواب، وأمنًا من الاعتقاب[3] إلخ، وربما نيل من عرض صاحبها وأنحى باللائمة عليه من أجلها، وهو قلم لا يقصد إلا الخير، ولا أراد إلا الرشاد، وقد يؤُتى الإنسان من حيث لا يعلم، ويُرمى من حيث لا يتقي، كما يُؤتى من حيث لا يحتسب، وينجو وقد أشفى، ويدرك وقد غلب الناس».

وعاد في آخر الرسالة يعتذر عن طولها: «قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة، وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة، يسهل انتساخها وقراءتها، فماجت بشجون الحديث، وروادف من الطيب والخبيث، فاقبل -حاطك الله- هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت في أي وقت

---

(١) الخلاق: كسحاب: النصيب الوافر من الخير.

(٢) فيل رأيه: قبحه وخطأه.

(٣) الاعتقاب: الحبس والمنع والتناوب.

ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك».

وفي الحق أن رسالته في الصداقة والصديق قد حملت من آراء الناس إلى عصره كل ما رقَّ وراق من المنظوم والمنثور في موضوعه، ولم يقتصر في الرواية على حكماء الإسلاميين؛ بل تعدى إلى إيراد أقوال فلاسفة يونان. وفي الرسالة من رسائل الكتاب في هذا الباب، ما هو مفيد على غابر الأحقاب، وقد ذكر أبا سليمان المنطقي وأبا سعيد السيرافي في غير مرة وروى عنهما ما دل على إعظامه لهما شأنه في مقابساته وفي الإمتاع والمؤانسة. ولا مراءَ في أن رسالة الصداقة والصديق مرآة صادقة تمثلت فيها أفكار أربعة قرون في هذا النوع الصغير من الأدب، ولغة حوت مثل هذه الأفكار وهذه المعاني هي ولا شك أغنى اللغات بأدبها ووفرة مادتها وأداتها.

وقد كتبت رسالة ثمرات العلوم على ما رأيناها بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم، وتأولوا كلامه فجبههم بها كتب وأجاد. ومن كتبه ما دعته إلى وضعه داوع حافزة، وأمور جاش بها صدره، فهي معمولة بالمناسبات لا متعملة، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التي نحسها ونلمسها.

من جملة كُتب أبي حيان كتاب المقابسات، واسمه صيغة تفاعل من قبسته أو أقبسته علمًا وخبرًا أي أن كلًّا أقبس صاحبه علمًا، وصاحبه أقبسه من علمه. ذكر فيه أبو حيان، وأكثره من محفوظه، بعض ما وقع إليه من مفاوضات علماء مشهورين، كانوا في بغداد يختلفون إلى مجلس صديقه وأستاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، وعنه أكثر مروياته، فيذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة أو ما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة، وهذبت نفوسهم الآداب العالية،

يتناجون بالأفكار الصحيحة والشاذة، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم، وكان فيهم المجوسي والصابي واليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي أمثال: أبي زكريا يحيى بن عدي، وأبي الفتح البوشجاني، وأبي محمد المقدسي، وعيسى بن ثقيف الرومي، وابن مقداد، وأبي القاسم الأنطاكي، وكان يعرف بالمجتبي، وأبي محمد الأندلسي النحوي، وأبي إسحاق الصابي، والخوارزمي الكاتب، ووهب بن يعيش الرَّقي، وابن سوار، وماني المجوسي، وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري، وعبيد الكاتب، والبديهي، وأبي إسحاق النصيبي، وأبي علي عيسى بن زرعة المنطقي، ومظهر الكاتب، وأبي الخطاب الكاتب وغيرهم (من كل من هو واحد في شأنه وفرد في صناعته)، وكان مذهبهم في الفلسفة على الأرجح مذهب أرسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الإسلام، أمثال: ثابت بن قرة، وحنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق، وأحمد بن سهل البلخي، ومسكويه، وانقُمى، والسرخسي، والنيسابوري. يطلقون في جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم، ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين إلى هدف واحد وهو معرفة حقائق الأشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات. وإذا أحببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح أهل هذا العصر فقل هو محضر المجمع العلمي البغدادي في المائة الرابعة، وكان لا يحضرها إلا من يُدعى إليها، ويوافق من أكثر الوجوه على ما يلقى فيها.

وهذه المجامع مثال ناطق بأفصح بيان بأن النصرانية لم تكن مضطهدة في العصر العباسي كما زعم بعضهم، بل إن الإسلام كان دين الدولة، وكلمة المسلمين هي العليا بحكم الطبيعة، وقد ساووا عامة أهل المذاهب بأنفسهم، مساواة لم تصل إليها أكثر دول الحضارة الحديثة. وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بأن نقول: إن علماء العرب ما برحوا منذ الأعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون في أندية لهم خاصة، تجمعهم جامعة الأعمال العقلية، فيتقاربون وإن اختلفوا في مظاهرهم، وقد

لا يخليهم الزمن من موسع عليه من بينهم، يفتح صدر مجلسه لهم، يستطلع طلع أفكارهم ويأنس بهم ويأنسون به، ويعطف عليهم ويعطفون عليه. وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من أهل الدولة من يحميها، أو تكون للسمر واللعب واللهو وتعاطي اللذائذ، ومعظم ما تناهى إلينا من أخبارها مفيد.

سئل أبو سليمان المنطقي: لِمَ لم يصفُ التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ، كما صفا ذلك في الفلسفة؟ فقال: إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم، وعرف حقيقة أقوال متقدميهم، بل كان في القوم من رأى رأْي العامة، وحط إلى ما حطت إليه، ولم يبن منهم كثير شيء مع قدم الزمان، ولقاء المحققين الفاضلين، وهذا إذا حل لا يكون قادحًا فيما نصصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة وفرسان الصناعة. على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية، ومن العبرانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالًا لا يخفى على أحد، ولو كانت معاني يونان تهجس في أنفس العرب، مع بيانها الرائع، وتصرفها الواسع، وافتنانها المعجز، وسعتها المشهورة، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب، وكاملة بلا نقص، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم، كان ذلك أيضًا ناقعًا للغليل، وناهجًا للسبيل، ومبلغًا إلى الحد المطلوب، ولكن لا بد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها، وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها، وذلك للعجز الموروث عن الهيولي، والضعف الثابت في الطينة الأولى، وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذًا للخلق، ومعاذًا للعالم.

قال أبو حيان لأبي سليمان: ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة؟ فقال: ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم، وطريقتهم مؤسسة على

مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء، إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس، أو يحكم به العيان، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشأ، وسائر الأغراض التي يطول إحصاؤها، ويشق الإتيان عليها، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، وإتمام القول الذي لا محصول فيه، ولا مرجوع له، مع بوادر لا تليق بالعلم، ومع سوء أدب كثير، نعم ومع قلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بتحمله. والفلسفة -أدام الله توفيقك- محدودة بحدود ستة، كلها تدلك على أنها بحث عن جميعها في العالم: من ظاهر للعين، وباطن للعقل، ومركب بينهما، ومائل إلى حد طرفيهما، على ما هو عليه، واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله، ومسموعه ومرئيه، وموجوده ومعدومه، من غير هوى يمال به على العقل، ولا إلف تغتفر معه جناية التقليد، مع إحكام العقل الاختياري، وترتيب العقل الطبيعي، وتحصيل ما ند وانقلب، من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حسًّا وعيانًا، وكانت محققة عقلًا وبيانًا، ومع إخلاق الهيئة واختيارات علوية، وسياسات عقلية، ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها، ولا تبلغ أقصى ما لها من حقها في شرفها.

ثم قال: وكان شيخنا يحيى بن عدي يقول: إني لأعجب كثيرًا من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام، والكلام لنا بنا كثر وانتشر، وصح وظهر، كأن سائر الناس لا يتكلمون، أو ليسوا أهل كلام، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت. أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوي والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعي والإلهي والحديثي والصوفي. قال: وكان يلهج بهذا، وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أصولًا، وجعلوا ما يدعونه

محمولًا عليها ومسئولًا عن عرفها، وإن كانت المغالطات تجري عليهم ومن جهتهم بقصدهم مرة، وبغير قصدهم أخرى.

قال أبو حيان: رويت لأبي سليمان كلامًا لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال: لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئًا لقلت: الحواس مهالك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك، فمن خلص نفسه من المهالك قوي على المسالك، ومن قوي على المسالك أشرف على الممالك، شرفًا يوصله إلى الممالك. قال أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم، فلو زدتنا منه، فقال: الحواس مضلة، والأوهام مزلة، والعقل مذلة، فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث، ومن أدرك في الثالث فقد أفلح، ومن ضل في الأول وزل في الثاني حاف[١]، ومن حاف في الثالث فهو من الهمج. واستزاده مظهر الكاتب البغدادي فاستعفى، قال: هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكسة... إلى أن قال: فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة، وهذه الأسرار في هذه الطريقة. اهـ.

على هذا النحو كانوا يمضون في أحاديثهم، صرح أحدهم بما يراه في التصوف فلم يحط منه ولا من المنصرفين إليه، وتناول آخر المتكلمين في غير ما تدليس وتأدب معهم، والمتكلم غير مسلم، ولم يحمل كلامه على غير محمله. وقال آخر في الفلسفة، وامتدح من معاني اليونان، وقال: لو كتبت بالبيان العربي لكانت غيرها، وهذه هي الحرية، ولولاها ما عاش علم صالح، ولا انبعث عقل راجح، ولا كانت حضارة هذه الأمة مما ترتفع به الرءوس، ويقال فيها على الدهر: لا عطر بعد عروس.

قال في مقدمة كتابه الإرشادات الإلهية مخاطبًا النفس: اللهم إنا نسألك ما نسأل، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وأفعالنا معك، وسوالف إحساننا قِبَلك،

---

(١) حاف عليه في حكمه: مال وجار.

ولكن عن ثقة بكرمك الفائض، وطمعًا في رحمتك الواسعة، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك، ومعرفة لا يخالطها إنكار، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة؛ نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك، يا حافظ الأسرار، ويا مسبل الأستار، ويا واهب الأعامر، ويا منشئ الأخبار، ويا مولج الليل في النهار، ويا مصافي الأخيار، ويا مداري الأشرار، ويا منقذ الأبرار من النار والعار، عد علينا بصفحك عن زلاتنا، وانعشنا عند تتابع صرعاتنا، وحطة حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا، وإذا خفنا منك فأبرح[1] خوفنا منك برجائنا فيك، وإذا غلب علينا يأسنا منك فتلقه بالأمل فيك...

ومن فصوله فيه: أيها المحاور، والصديق المجاور، كيف أتكلم، والفؤاد هائم في كل وادٍ، والخاطر خالٍ من كل جاد وهاد، أم كيف أشكو والسر ظاهر باد، أم بأي شيء أتعلل وكل ما أجده مردد ومعاد، أم على من أعتمد، وكل أحد أراه فهو ضد ومعاد؛ أنفاسي متحرقة بالحسرات ودموعي مترقرقة بين النغمات والزفرات، وكبدي مشتغلة على المناظر والهيئات، ويقظتي جارية على الرسوم والعادات، وأحلامي عارية من كل ما له حاصل وثبات، ونفسي رهينة بالسيئات، مفتونة بالحسنات، بالسوانح والخطرات، مغبونة عن الحسنات والصالحات، الجهات دوني منسدة، والوجوه أمامي مُسْودَّة؛ إن قلت قيل: هذا زور وبهتان، وإن أشرت قيل: هذا غرور وعدوان، وإن سكت قيل: هذا سهو ونسيان، فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به، رحمني مما لا غنًى لي عنه، أوَليت من طردني عن بابه، أهَّلني لعتابه؟ أوَليت من جرعني مرّ فراقه، أخطر على بالي حلاوة لقائه؟ أوَليت من غمسني في

---

(١) أبرحه: أزاله.

بحر البلوى، طرحني إلى ساحل المنى؟ أوَليت من حطني عن درجة المخدومين رقاني إلى مقامات الخدم؟...

وقال من رسالة أيضًا: حرام على قلب استنار بنور الله، أن يفكر في غير عظمة الله، حرام على لسان تعود ذكر الله، أن يذكر غير الله، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله، أن تدنس بشيءٍ من مخالفة الله، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله، أن تُحدِّق إلى غير الله، حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله، أن تطمئن إلى غير الله، حرام على من لم ير الخير إلا من الله، أن يجد طمعًا في غير الله، حرام على من شرف بخدمة الله، أن يتضع بخدمة غير الله، حرام على من ألف فِناء الله أن يعرج إلى غير الله، حرام على من تلذذ بمناجاة الله، أن يناجي غير الله، حرام على من رتع في فقه الله، أن يعبد غير الله...

وعجيب أن يُرمى من يقول هذا القول في العزة الإلهية بالزندقة، ويتهم بالمروق. كأن كل هذا الإحسان لا يكفر سيئة لإنسان، وكل هذا التقديس والتوحيد لا ينجي صاحبه من الوعد والوعيد! وساق ابن أبي الحديد فصولًا من كلام أبي حيان وعنن لها بقوله: «ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة»: «اللهم إني أبرأُ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلى إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بلائك، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمك شعاري ودثاري، والنظر إلى ملكوتك دأبي وديدني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري؛ اللهم تتابع برك، واتصل خيرك، وعظم رفدك، وتناهى إحسانك، وصدق وعدك، وبرَّ قسمك، وعمت فواضلك، وتمت نوافلك، ولم تبق

حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة، إنك أهل ذلك، والقادر عليه، والمليء به».

ومنها: «اللهم إني أسألك جدًّا مقرونًا بالتوفيق، وعلمًا بريئًا من الجهل، وعملًا عريًّا من الرياء، وقولًا موشحًا بالصواب، وحالًا دائرة مع الحق، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلى رَوْح بال، وسكون نفس موصلًا بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة، حتى تكون غايتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل، من حياة طيبة أنت الواعد بها، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه، اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك، ولا تصفر[1] كفًّا هي ممدودة إليك، ولا تعذب عينًا فتحتها بنعمتك، ولا تذل نفسًا هي عزيزة بمعرفتك، ولا تسلب عقلًا هو مستضيءٌ بنور هدايتك، ولا تخرس لسانًا عودته الثناء عليك، فكما كنت أولًا بالتفضل، فكن آخرًا بالإحسان، الناصية بيدك، والوجه عانٍ لك، والخير متوقع منك، والمصير على كل حال إليك، ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة، وحَلِّني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة، وأجرني على العادة الفاضلة، ولا تجعلني ممن سها عن باطن ما لك عليه بظاهر ما لك عنده، فالشقي من لم تأخذ بيده، ولم تؤمنه من غده، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك، ونقلته حميدًا إلى منازل رحمتك، غير مناقش في الحساب، ولا سائق له إلى العذاب، فإنك على ذلك قدير».

وهذه النبذة من مقدمة كتاب البصائر والذخائر، قال: إنه أودع كتابه جميع ما في ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به، واشتملت الروية عليه، منذ عام

(١) اصفر: افتقر، والبيت أخلاه كصفره.

خمسين وثلثمائة إلى سنة خمس وستين وثلثمائة مع توخي قصار ذاك دون طواله، وسمينه دون غثه، ونادره دون فاشيه، وبديعه دون معتاده، ورفيعه دون سفسافه. قال: إن القارئ سيشف منه على رياض الأدب وقرائح العقول من لفظ مصون، وكلام شريف، ونثر مقبول، ونظم لطيف، ومثل سائر، وبلاغة مختارة، وخطب محبرة... إلخ، وجمعه من كتب أبي عثمان بن بحر الجاحظ وابن الأعرابي والمبرد والصولي وابن عبدوس وقدامة وغيرهم.

من أهم ما حواه كتاب البصائر، مناظرة أبي بكر الصديق مع علي ومبايعته إياه، وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة، ومنهم من غمز التوحيدي واتهمه بأنه هو واضعها ، مثل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيي الدين بن عربي في المسامرات. ومحال في العقل أن يضع التوحيدي هذه الرسالة وهي بعيدة عن أسلوب كلامه، وإن أحب ابن أبي الحديد أن يشبهها به.

أما التوحيدي فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال: سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروروزي ببغداد بدار أبي حبشان في شارع المازيان، فتصرف الحديث بنا كل متصرف، وكان أبو حامد معنًا مفنًا مخلطًا مزيلًا[1] غزّير الرواية، لطيف الدراية، له في كل جو متنفس، وفي كل نار مقتبس، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة، فركب كل منا مركبًا، وقال قولًا وعرض بشيء ونزع إلى فن، فقال أبو حامد: هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر الصديق إلى عليّ وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟ فقالت الجماعة التي بين يديه: لا والله. فقال: هي من درر الحقائق[2] المصونة، ومخبآت الصناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ

---

(١) المعن: الذي يتصرف في المعاني، والمفن: الذي يتصرف في كل فن، والمزيل بكسر الميم: الرجل الكيس اللطيف، يقال: هو مخلط مزيل كما يقال: هو راتق فاتق، والمراد به أنه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم.

(٢) الحقاق: جمع حقة، وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر.

حفظتها ما رويتها إلا للمهلبي أبي محمد في وزارته، وكتبها عني في خلوة بيده قال: لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على علم وحكم، وفصاحة وفقاهة، ودهاء ودين، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له أبو بكر العباداني: أيها القاضي، فلو أتممت المنة علينا بروايتها، وسمعناها ورويناها عنك، فنحن أوعى لها من المهلبي، وأوجب ذمامًا عليك... إلخ.

وبعد أن أورد التوحيدي هذه الرسالة العجيبة قال: روى لنا هذا كله أبو حامد، ثم أخرج لنا أصله فقابلنا به، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له، فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف في أحرف في حواشي الكتاب، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبذل منه، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر، وفي غرائبها أنقد، وإنما قدمت رواية أبي حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم، ولأعاجيبها أحفظ، وفيما أشكل منها أفقه.

قلنا: وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست من صنع أبي حيان، وأنها كانت معروفة قبله، وإذا أبى بعضهم إلا أن يقول: إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدي، وهي على كل حال لا تخلو من أصل ربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة، فأراداو نكاية الشيعة في كثير مما صنعوه، فزادوا أمورًا في هذه الرسالة وقعت بين الصحابة أو تمثلوا وقوعها. والرسالة من جملة ما يجب على الأديب أن يستظهره ويعيه؛ لأنها حوت من أساليب البلاغة كل جميل، وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد.

وهاك جملة قليلة من الرسالة، قال أبو بكر لأبي عبيدة: امض إلى عليٍّ واخفض له جناحك، واغضض عنده صوتك، واعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدنا بالأمس مكانه، وقل له: البحر مَغْرقة، والبر مفرقة، والجو أكلف، والليل أغدف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رءوف، والباطل نسوف عصوف، والعجب مقدحة الشر، والضِّغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، والقحة ثقوب العداوة، وهذا الشيطان متكئٌ على شماله، متحيل بيمينه، نافج[1] حضنيه لأهله ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادًا لله ولرسوله ولدينه، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور، ويوحي إلى أوليائه زخرف القول بالباطل، دأبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادة له منذ أهانه الله عز وجل في سالف الدهر...

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك، ما هذا الذي تسوّل لك نفسك، ويدوي قلبك، ويلتوي عليه رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويستشري به ضغنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر معه صعداؤك، ولا يفيض به لسانك، أعجمة بعد إفصاح، أتلبيس بعد إيضاح، أدين غير دين الله، أخُلق غير خلق القرآن، أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم، أمثلي يمشي له الضراء ويدب له الخمر، أم مثلك يغص عليه القضاء، أو يكسف في عينه القمر، ما هذه القعقعة بالشنان[2]، وما هذه الوعوعة باللسان...

---

(١) الأرض الصلعاء: التي لا نبات فيها، والجلواء: المصحية، وأغدف الليل: أظلم، والأكلف: الأغبر، والمفرقة من الفرق وهو الفزع، والمغرقة: ما يغرق فيه، والعصوف: الريح الشديدة، والنسوف: الطويل الشاق الذي ينسف صاحبه، ومن المجاز بيني وبينه عقبة نسوف طويلة شاقة، والشجار ككتاب: خشبة توضع خلف الباب، والثقوب: ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها، والنافج: الرافع.

(٢) أفاء: أرجع، وتراد مثل تردد. والتخاوص: غؤور البصر مع الإحداق كأنه يقوم سهمًا، ويدوي به قلبك: أي يفسد من داء، والصعداء: النفس العالي في الغضب والهم، والضراء: الشجر الملتف في الوادي.

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقب زمانك، وقلص أردانك، ودع التجسس والتعسس لمن لا يظلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، فالأمر غض، والنفوس فيها مض، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجًا، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجًا، وماؤها العذب فلا تحلُ أُجاجًا، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه، لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه، ولمن يتضاءل عنه، لا لمن يشمخ إليه، ولمن يقال هو لك، لا لمن يقول هو لي، والله لقد شاورني رسول الله في الصهر فذكر فتيانًا من قريش، فقلت له: أين أنت من علي، فقال: إني لأكره لفاطمة مَيْعَة شبابه، وحدة سنه. فقلت: متى كنفته يدك ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء، فقلت ما قلت. وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيرًا منك الآن لي، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك، وإن يختلج[1] في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع...

والخمر: الشجر المتلف أيضًا، يقال للرجل إذا ختل بصاحبه: هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر، والقعقعة: حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها، والشنان: جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع، وفي المثل: ما يقعقع له بالشنان، يضرب لمن لا يخدع ولا يروع.

(١) يقال: رهصني في الأمر: استعجلني فيه، ومن المجاز: أرهص الله فلانا جعله الله معدنًا للخير. يقال: فلان يعتس الآثار؛ أي يقتصها، ويعتس الفجور يتبعه، وقلص أرادلك: شمر أكمامك، والمص: الألم، والعض: الجديد، وظلع: عرج، وحلم الأديم والجلد: إذا فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب، وفي المثل: كدابغة وقد حلم الأديم، يضرب لمن يسعى في إصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لا يرجى إصلاحه، جاحش: حامى ودافع، يقال جاحش عن خيط رقبته؛ أي نفسه، وهو مثل قال الميداني أصله من الجحش الذي هو سجح الجلد، يقال: أصابه شيء فجحش وجهه؛ أي قشره، فجحش شقه الأيمن. ميعة الشباب: أوله، والحوجاء: الحاجة، ومنه ما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء؛ أي حاجة، واختلج: تلجلج.

فذلكته في حياته:

لعلنا بلغنا حاجة النفس في نقل صورة التوحيدي نقلًا إن لم يكن طابق الأصل فهو قريب منه، اقتبسنا دررًا من كتبه ورسائله، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج، وقلبه من النزوات، وما تقلب فيه من البأساء والضراء، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف إلى العظماء، والأخذ عن العلماء. وتمثلنا في كلامه سلامة الفكر والإبداع فيه، وسلاسة الإنشاء وتجويده. أرأيتم هذه الإجادة التي تقف عندها العقول حائرة، يكتب صاحبها في غير الأدب فلا تخونه لفظة، وتتناسق الجمل في تركيبها تناسق العقد النفيس، ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أي مواءمة، ويؤثر في قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوله على مسمعه، أرأيتم كيف آضت اللغة في يد التوحيدي كالعجين يرسمه الرسم الذي يشاء، أو كالقرطاس في يد المصور الحاذق، وعنده جِماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء؟

اللغة في نظر التوحيدي واسطة تعبير وتصوير، لا أداة لطافة وظرافة؛ كانت على أسَلة قلمه، غزيرة المائية، نضيرة الديباجة، وكان بيانه الصافي البراق يسيل مطواعًا لبنانه، يتصرف به تصرفًا غريبًا، ويصرفه في ضروب الموضوعات العالية؛ وكأن اللغة في عصره، وقد أصبحت لغة حضارة باهرة، أخذت الزبدة النافعة من الأمم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين، فمرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى، وصفا رصفها ونسجها، فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشي، ودرجت نقية لا شوب فيها ولا تقيد، كأنها خلقت منذ عرفت لغة فلسفة وطبيعة وإلهيات، كما كانت لغة شعر وخطب، منذ أقدم عصور الجاهلية.

عمد التوحيدي إلى استخدام طوائف من الألفاظ تبهرك في رصفها، ويتعذر عليك أن تخلي المكان من لفظة لتضع غيرها محلها، وقد قال العتابي: «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منه مؤخرًا، أو أخرت منها مقدمًا، أفسدت الصورة وغيَّرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحِلْية». «والكلام إذا خرج من غير تكلف وكد، وشدة تفكر وتعمل، كان سلسًا سهلًا، وكان له ماء ورواء ورقراق، وعليه فِرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه».

ذاكر التوحيدي في العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء، وكانوا في العلم جميعًا، وفي مذاهبهم شتى، فلم يجمد على نقل كلام أهل فن واحد، ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه في معتقده، فكان شأنه شأن عالم في عصرنا فتح بحثًا في مجلة أو كتاب يؤلفه، وأنشأ يجمع في كُناشه وجزازاته أفكار المتضادين ومراميهم في العلم والأدب، وهذا ما كان على حصة موفورة في كتب التوحيدي على ما رأينا، لخّص لأهل قرنه آراء المتقدمين، ورسم لمن بعده مصوّرًا صحيحًا من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم في الميلاد، فأدركنا بها أسمعناه بعض حقيقة عصره في أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة.

ويحمد قصد التوحيدي في نقل كل مجلس كما وقع، وإن كان بعضهم لم يرُقه التعرض لتدوين ما يخالف معتقدهم، أما هو فما كان له أن ينقل كل كلام يرتضيه كل إنسان؛ لأنه لا يحيط بجميع الأهواء، وتعدد الأهواء كتعدد الأناسي، وهو مخالف في طريقته طريقة كثير من المؤلفين، فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على

صواب فيما يذهب إليه، وإذا رأى بعض المتحذلقين[١] في كلامه بعض العُهدة، فيجاوبون وأي كلام خلا ما يُتعلَّق عليه بشيء.

إن التوحيدي لقي شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم، وجوَّد وصفهم وأجمل طرازهم، وكلما نقل شيئًا لا يوافق نحلةً ومذهبًا؛ قال خصوم فكره: إنه يصطنع نقله، ويُزوِّر على رواته فيزورون[٢] له. كان التوحيدي راوية المجالس العالية والرواية كما قيل العلم المستطيل، ومخالفوه يسوءهم هذا وينوءهم، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها، وتابعوا على العمياء قائليها. خالف التوحيدي في طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء، فبينه وبينهم بعد باعد، وليس من الإنصاف أن نأخذ عليه خروجه عن مألوفهم.

الحق أبلج لا يُخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الأحلام

لا جرم أن التوحيدي حار في أمره مع من وُسموا بالعلم في زمنه، وهم محافظون متشددون في تقاليدهم ومصطلحاتهم، لا يبالون أن يرموا كل من أبدع طريقة، وكشف عن حقيقة بالتفسيق والتبديع والتفكير، ومن أسهل الأعمال عليه أن يتقربوا من ذوي السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن فاقهم وأربى عليهم. ويا لبؤس عالم لم يتخذ له يدًا عند صاحب صولة في مثل تلك الدول، فإن مجرد اتهام بعض المعادين له بانحلال العقيدة كافٍ في بتر حبل حياته، ولا من يرحمه أو يشفع به.

أراد المأمون -رضي الله عنه وأرضاه- أول المائة الثالثة أن يخرج الأمة من ربقة التقليد الأعمى إلى ساحة العقل السليم، فرأى أن يسيطر على الدين واللغة

---

(١) حذلق: أظهر الحذق، أو ادعى أكثر مما عنده كمتحذلق.

(٢) تزاور عنه: عدل وانحرف كازورّ، وزوّر: زين الكذب، والشيء حسنه وقومه.

والآداب والعلوم، بتسامح وتعقل، ولكن معظم ما بناه تهدم بأُفول نجمه، ويا للأسف، فلم ينشأ بعده للأمة خليفة في وزنه وعياره، يحمي العقل ودعاته، ويفسح الباحثين مجال النقد والنظر.

ومن المصائب أن أقدار الممالك معلقة أبدًا على الرأس الذي يدبر أمرها خليفة كان أو سلطانًا أو أميرًا، متى زال تزول معه أوضاعه وتراتيبه أو أكثرها، وقلَّ أن بنى الخلف على السلف، أو سار المتأخر على قدم المتقدم، ولذلك كانت حضارتنا في كل عصر وقطر كالأرض البقعة نباتها متقطع، أو كالواحات المتفرقة في المهمة القفر، يختلف شكلها باختلاق البقعة التي نشأت فيها، وتلبس ثوبًا فصل على عقل صاحب السلطان الأكبر، وآذنت ببلائه وغنائه. وقلما عهد أن سار الابن بسير أبيه وجده إلا على عهد أوائل العباسيين، وفي بعض دور الأمويين في الشرق، والأمويين في الأندلس، وما عدا ذلك فأفراد من أصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم، فأحالوا القفار جنانًا، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطانًا، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الأمَّة سيرتها الأولى، تثبت أن الأمية أعلق بشغاف قلبها، لا سيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة في ترك العقول جامدة خامدة، حتى لا يرتفع عقل عن عقل، ولا يمتاز فاضل بعموم الفضل.

نعود إلى حياة التوحيدي فنقول: إن الرجل الذي لم يأبه لما اعترضه من العقبات، ومزّق حجب الوهم وحكَّم سلطان العقل، واستعرض ما جادت به قرائح أعاظم الملة في القرن الثلاثة قبله، وكتب العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق تسيغه على كدورة في شرعته أحيانًا -الرجل الذي كان كذلك حاله يُعَدُّ النابغة المجتهد حقًّا وصدقًا، ويعد جديدًا مجددًا في فكره وبيانه، ويعد نابغة قرنه، وفردًا عظيمًا بين أقرانه.

كَتَب التوحيدي فأكثر الكتابة، ومع هذا فانشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب، ولا عُني بالتنميق والتحبير، والصقل والتطرية. وكان هدفه إبلاغ العقول، ما يجول في الخواطر، من أقصر الطرق، وأسهل المسالك تارة، ومن أطولها تارة أُخرى. اختص بوصف آراء المفكرين والنظار، على وجه لم يؤثر عن غيره، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة، فكأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت بموت الجاحظ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول، وضروب المعارف، ولو كان روح التوحيدي غير معذَّب بالإخفاق والإملاق، كروح الجاحظ الشفاف البراق، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه، واطمأن بما تطمئن به روح من تهنأ العيش، لجاء التوحيدي كالجاحظ إلا قليلًا.

بيد أن اضطراب عصره، كان منه اضطراب فكره، وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته، أدّت إلى اشتغال قلبه برزقه وجرايته، فكان في ذلك الفقر طول العمر. وإذا قيل: إن الجاحظ كان على دهاء لا ينكر محله، اتقى بجربزته لذعات حساده، ومؤلمات مناظريه، وإن التوحيدي لم يعرف سياسة العلم، ولم يستكمل تعاطي الأسباب إلى الرزق، وما أحرز خِصَل السبق إليه، نقول لمن يقول: هذا لا تنسَ أن الجاحظ كان الخلفاء يرعونه ويحبونه، والوزراءُ يخادنونه ويحبونه، والناس يعجبون به ويمجدونه. والتوحيدي، للجهل الطارئ على الخلفاء والأمراء في عهده، يضطرب في حياته اضطراب الأرشية في الطوى البعيد، كلما التفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة، وكلما قال يسرًا، قالت الأيام عسرًا، عاش في شظف من العيش، وعَجَف من المال، وكَلَب من الزمان؛ فكان الموتور المفلوك، الموجع القلب، المعذب الفؤاد. والمرء مهما أُوتي من عقل سليم، وأخلاق فاضلة لا يخرج عن كونه محصول مسكنه وهوائه ومدرسته وأساتيذه وأقرانه، وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعي على

نفسه، وهو زبدة ما أَخذه بالفطرة من دم أبويه، واكتنهه من اتصاله بأجداد قدماء قد لا يعرف أخبارهم، على حين أورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم.

ابن العميد

عصره:

يُعدُّ القرن الرابع عصر الكمالي العلمي والأدبي في الإسلام: استقرت فيه القواعد، وتعينت المعالم والمناهج، ودُوِّن ما تيسر تدوينه في اللغة والأدب والشريعة، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الأوائل، وخف الصراع بين حملة الدين، ورجال الحكمة والعقل، ونشأت الفرق الباطنية، وكلها تريد إقامة مُلك، واتخذ دعاتها من آل البيت تكأة، وصبغوا نحلهم بصبغة دينية.

وكان الأدب في مقدمة الفنون التي بلغت في هذا العصر إناها، بنبوغ أعظم شعراء الحضارة العربية، تقدمهم رعيل جميل في القرنين السابقين. أدخلوا على الشعر معاني جديدة، وما غيّروا موازينه وأوضاعه، وأنشأ الكُتَّاب يتفننون في الإنشاء المصنّع، فضيقوا المنافذ في أداء المعاني، وغلوا في التطويل والتهويل، فأصبح النثر لكثرة التعمل فيه أشبه بشعر لا أوزان له، ولم يعرف في ذلك العهد (علم جاهلي ولا إسلامي إلا وأهله عربيون أو متعربون يكتبونه باللفظ العربي والخط العربي).

وسكن ثائر الشعوبيين أعداء العرب، وكان دأبهم إلقاء بذور التفرقة بين الشعوب التي وحّد الإسلام بينها، وساوى بين الكبير والصغير في الحقوق والواجبات، واغتبط الشعوبيون من الفرس بقيام دولتين شيعتين في العالم: دولة بني بويه الديلم في الشرق، استولت على فارس والعراق، وجعلت الخليفة العباسي

شبحًا بلا روح؛ ودولة بني عبيد الفاطميين في إفريقية، وعمل القرامطة أفاعيلهم في العراق والشام والحجاز وما انتظمت لهم دولة، وقرض محمود بن سبكتكين الدولة السامانية الشيعية من خراسان وما وراء النهر، وفتح القسم الشمالي من بلاد الهند وأضافه إلى مملكته، وخدم الآداب والعلوم، وضرب المعتزلة ضربة قاضية في أرجاء مملكته.

كان الفرس أهم العناصر الإسلامية التي عنيت بنشر العربية منذ رفرف علَم الإسلام على ديارهم، وقد أحرزوا في العلم والسياسة أفضل منزلة، لما خصوا به من الاستعداد لقبول الحضارة، أعانهم على ذلك إلفهم الحكم والنظام، وتفانيهم في طاعة العظماء والملوك، وكانوا في القرون الأولى من خير الشعوب التي قامت بحق الإسلام.

وبينا كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الإسلام والعربية، لا يتخذون عن لغة الدين والدولة والعلم بديلًا، كان أناس من عشاق القومية الفارسية يسرون حسوًا في ارتغاء[1]، ويلوبون على من يقيم لهم دولة، ذات وزن وصولة، وقد آلمهم تراجع لغتهم أمام العربية، ومنازعة العربية الفارسية في عقر[2] دارها، حتى أصبحت لسان المدن؛ ووجدت الفارسية معتصمًا لها في الأرياف والجبال بين الأكَّارين والسُّوقة. والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع أهل فارس، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم. وبالعربية تكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس. ولما اجتاز أبو الطيب المتنبي بشعب بوّان وأرَّجان والنوبندجان انقبض صدره لقلة من يتفاهم وإياهم فوصف الحال بقوله:

---

(١) الارتغاء: شرب الرغوة، وأصله أن يؤتى الرجل باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة ولا يريد غيرها فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن. يضرب لمن يريك أنه يعينك وإنما يجر النفع إلى نفسه.

(٢) العقر بضم العين: وسط الدار وأصلها، ويفتح.

مغـــاني الـــشعب طيّبًـــا في المغـــاني بمنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــان
ولكـــن الفتـــى العـــربي فيهـــا غريـــبُ الوجـــه واليـــد واللـــسان
ملاعـــب جِنّـــة لـــو ســـار فيهـــا ســـليمان لـــسار بترجمـــان

كان يرمض دعاة القومية الفارسية، أو مَن يريدون تحريك عرقها الحساس، أن يشهدوا العربية تُعرِّب كل يوم جماعة من أبناء فارس، فلم يروا لوضع حد أمام ذاك التيار الجارف إلا إثارة النُّعَرة الدينية، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر.

كان يُرمضهم أن يروا نيسابور وشيراز والري ومرو وأصفهان وهمدان تتنافس في بث العلوم والآداب، وأن يؤلف المؤلفون، ويعظ الواعظون، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية، وأن يمسي أدب آبائهم عبارة عن شعر ما رُزق من يصفق له، وأن تغتني العربية بالعلوم الكثيرة، فحاولوا إشراب نفوس قومهم حب آدابهم القديمة، ولم يكن الشعر الفارسي بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث؛ وقد نشأ مع شاعرهم الروذكي السمرقندي (٣٢٩) (الذي كان مقدمًا في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه).

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية بأرض الأعاجم في ذاك العصر، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية، كان العلم العربي يزيد انتشارًا ورسوخًا، وتتعدد مواطنه، وتقوم أسواقه، وما كانت مراكز الآداب في القرن الرابع في قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والري وسمرقند تقل كثيرًا عن مكانة بغداد، ومن قبلُ البصرة والكوفة في هذا المعنى. كان الناس يحملون إلى بغداد علمهم وأدبهم أيام عظماء خلفائها، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء غدت بهم بغداد

تنقل أدبها إلى العواصم المستحدثة. ولما قامت دولة بني بويه واتخذت من الري قصبة بلاد الجبال عاصمة لها، أصبحت بعد حين دار علم، ومثابة أدب، على مثل ما كانت عاصمة الأمويين في الأندلس، وعاصمة بني الأغلب في إفريقية، وعاصمة الطولونيين في مصر، وعاصمة الغزنويين في خراسان.

وكانت الريّ وما إليها من أرض فارس في هذا العصر مجموعة من المذاهب الإسلامية فيها الشيعة الإمامية والغالية، والأحناف والشوافع والمعتزلة والخوارج وغيرهم. وظل أهل الرَّي على مذهب أهل السنة والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعة، وأظهر التشيع وأكرم أهله، فتقرب الناس إليه بتصنيف الكتب، فأصبحت جمهرة أهل الري شيعة غالية، وكان ذلك في أواخر الربع الثالث من المائة الثالثة. ومن أهل هذا المذاهب كان بنو بنويه أصحاب الدولة. وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعة إمامية غالية، ومعظم العلماء في أرض فارس من أهل السنة، والملوك يخطبون ودّ أرباب المعرفة من جميع الطبقات والمذاهب.

أوليته وسيرته:

في هذه البيئة نشأ أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد، من بيت فضل وصدارة، وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف كاتبًا مذكورًا في خراسان، وله باع في السياسة (تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان)، (والعميد لقب والده ولقب بذلك، على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم).

والغالب أن ابن العميد وُلد في آخر سنة من المائة الثالثة، لأنه عمَّر ستين سنة، ومات سنة ستين بعد الثلثمائة، (وكان يعتاده القولنج تارة، والنقرس أخرى، تُسلمه هذه إلى هذه)، وقيل: إنه أخذ العلم في بغداد ورحل إليها مرة أو مرتين وهو وزير،

ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها، ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه وبعد وفاته بالريّ وكور الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلًا وبراعة، حتى بلغ ما بلغ، واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل)، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة. ولما تقلدها وكان دون الثلاثين، أتته السعادة في صباه، وتمت أدوات علمه وأدبه، وهو يتولى أعمال الدولة، وطالت أيام وزارته حتى أربت سنوها على زمن صباه ودراسته، ودُعي ابن العميد بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الإمارة والأدب، وذهب له هذا اللقب عن جدارة، ولقب أيضًا بلسان المشرق.

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسي من أهل قم، ولا يفهم من كونه فارسيًا أنه من صميم الفرس، فقد يسكن العرب أرض العجم وهو عربي بأصوله فينسب إلى البلد الذي نزله أو ولد فيه. وما هو فارسي بالمعنى الذي نفهم به اليوم هذه النسبة[1]، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عربًا أقحاحًا، نشئوا في تلك الأرض فنسبوا إليها، وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى الأقطار التي فتحت على أيدي العرب في الشرق

---

(١) تعلم أصول من اشتهروا في فارس من العلماء بإلقاء نظرة على كتب الأنساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم، فقد نسبوا صاحب الأغاني إلى أصفهان وهو أموي عربي، ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزآباد وهو بكري عربي، ونسبوا القزويني صاحب آثار البلاد إلى قزوين وهو عربي من سلالة مالك بن أنس، ونسبوا ابن حيان البستي صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخاري إلى بست وهو تميمي، ونسبوا أبا حيان التوحيدي إلى شيراز وهو من صميم العرب، وكان أبو داود السجستاني صاحب السنن من الأزد، وأبو العباس النسوي مصنف المسند من بني شيبان، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب المسند من بني قشير، والهروي المفسر من ولد أبي أيوب الأنصاري، وأبو الوليد النيسابوري فقيه خراسان أموي من ذرية سعيد بن العاص الأكبر، والفخر الرازي المفسر عربي. وقال ابن قتيبة: إن خارجة بن مصعب هو من بني شجنة من ضبيعة، وكان من أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم وعقبه بخراسان، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع علي بن أبي طالب.

والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك أصولهم.

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثًا وتأصل فيه بالدرس، وكم من غريب عن هذا اللسان خدمه خدمة أبنائه الأصليين وفضله على لغته وعلى كل لغة عُرفت. وقد قال أبو الريحان البيروني، وهو من خُوَارزم ومن أعظم علماء الإسلام: «الهجو بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية».

لم نعرف من أساتذة ابن العميد غير محمد بن علي بن سعيد[1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمي، وكان يعلم علم الأوائل وهو (صاحب الأدب والحكمة والنجوم والترسل والإملاء)، ولعله كان يذهب مذهب الاعتزال فلقن تلميذه مذهبه فأصبح مثله على مذهب أهل العدل والتوحيد، في إقليم يغلب التشيع على السواد الأعظم من أهله، وما منع ذلك ابن العميد أن يخدم ركن الدولة بن بويه، وكان شيعيًّا غاليًا، ولا أن يتخرج به عضد الدولة بن بويه في إدارة الملك والدولة.

---

(١) هكذا ورد اسمه في فهرست ابن النديم، وفي رجال النجاشي: أنه أحمد بن إسماعيل بن عبد الله أبو علي بجلي عربي من أهل قم يلقب سمكة، كان من أهل الفضل والأدب ويقال: إن عليه قرأ أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب لم يصنف مثلها، وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن عبد الله البرقي وممن تأدب عليه، ومن كتبه كتاب العباسي وهو كتاب عظيم نحو عشرة آلاف ورقة في أخبار الخلفاء والدولة العباسية رأيت منه أخبار الأمين وهو كتاب حسن، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفى، ورسالة إلى أبي الفضل بن العميد، ورسالة في معان أخر... إلخ.

غلبت الحكمة على ابن العميد، وتخللت شغاف قلبه، وكان أدبه غير أدب أبناء جيله، كان أدبًا ممزوجًا بعلوم عقلية، فيه شفوف نادر، وطبيعة مؤاتية، ونفس حساسة، تزن كل شيء بميزان النقد، حتى الألفاظ والقوافي والأوزان والأسجاع، وحتى الكلام العادي والأحاديث المرددة. ونشأ ابن العميد نشأة أدبية وسياسية، عرف البلاد وأمزجة أهلها، وعرف ما يصلحهم ويرضيهم ويرعاهم. ذكر مسكويه أنه سمعه في كثير من خلواته يشرح لابنه أبي الفتح (صورة الديلم في الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجه إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالًا، وأن من قد دعاهم واحتشد لهم، وحمل على حالة فوق طاقته، لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته، والسعي على إزالته، وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم، فيفتكون به ذلك الوقت).

قال: «وكان لوفور عقله يداري أمره مع صاحبه ومع عسكره، ثم يسوس رعيته والممالك التي يراعيها، ويدبر الجميع تدبيرًا ملائمًا لوقته، موافقًا لزمانه، فلا يظهر من الزينة وأبهة الوزارة إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس، ثم يتواضع تواضعًا لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه في جاهه، أو تحطه عن المنزلة العالية التي يرقى إليها، وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم، وقيام هيبته وتمام سياسته، متصلة تزيد على الأيام ثناء وثباتًا».

ومن سياسة ابن العميد، وهو الصدر المقدم في الآداب والسياسة، أنه كان يصون مجلسه عن الخوض في مسائل الخلاف في الدين، وقد يقاطع من يحاول المناقشة فيه، وهو جدُّ عارف بأهل الأثر وأهل الرأي من فقهاء الأمصار، بصير بالمحكم والمتشابه من آي القرآن، إلى معارف جمة في النحو والتصريف واللغة

وأشعار العرب، يدرك ما يجر الخلاف من تبعات على دولة اختلفت مذاهب سكانها وأجناسهم، وتباينت أهواؤهم ودرجات ثقافتهم، خصوصًا ومذهبه غير مذهب سلطانه، وهو فوق ذلك متشبع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم في دينه، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض إلى الفقهاء وأتباعهم؛ والناس في كل زمن أسرع إلى تكفير أهل التفكير من الماء إلى المنحدرات.

كان خلطاء ابن العميد ومنادموه من مذاهب مختلفة، فيهم مسكويه قيِّم خزانته وهو فيلسوف مؤرخ، وفيهم أستاذه ابن سمكة وأبو محمد بن هندو وكلاهما فيلسوف إلهي، وفيهم أبو الحسين بن فارس أديب، وابن خلاد القاضي أديب وفقيه، وأبو الحسن العلوي، وأبو العلاء السروي شاعر وكاتب، وكان يحاضرهم ويجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم إذا غابوا ويجاوبهم نظمًا ونثرًا؛ حتى لقد قيل: إن أحسن ما كتب ابن العميد رسائله في الإخوانيات. وكان لا ينظر في التراسل مع إخوانه إلى ما بينه وبينهم من التفاوت في المصطلح عليه من الدرجات؛ أي أنه هو وزير وهم رعية، يسحب ذيله على ما يكون منهم؛ وما عُدّت عليه هفوة مع صديق، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة، وفي نظره أن لا اعتبار في الصداقات لاختلاف الدرجات، والمشاكلة في الفكر والعواطف أثمن صداقة. قالوا: وكان يفتخر بالحسن بن إسحاق بن محارب القمي ويقول: لو لم يخرج من بلدنا سواه لكان كافيًا.

كانت معاني الحب متأصلة في ابن العميد، وروحه تحب، وإذا أحبت تخلص في حبها، وربما برّح به حبه، ثم إن نفسه عظيمة لا تكره ولا تبغض، والكراهة والبغض على الأكثر من آثار الضَّعة، ولؤم الطباع، والتواء المقاصد، وكل أولئك كان الأستاذ الرئيس غنيًّا عنه؛ لأنه يُعطي ولا يتوقع من غيره العطاء، ويمنع ولا

يخشى الناس أن يمنعوه، وليس له بعد هذا إلا أن يتحبب إلى الناس، ولا سيما أهل الذكر والفكر.

أَلِف ابن العميد عَلَى ما بلغه من رتب المجد في دنياه، المذاكرة في فنون العلم على سنَّة علماء السلف وأدبائهم، واعتاد أن يفضل على خاصته وقاصديه، خصوصًا إذا لم يَدِلّوا عليه بأدبهم في مجلسه. كان يكره من يريد أن يُنفق عليه بأوه[1] ودعواه، وكثيرًا ما يستهدف لغضب أهل هذه الطبقة، فيقدمون على هجوه، وينصرفون عنه لاعنين طاعنين، كما وقع لابن نباتة السعدي ولأبي حيان التوحيدي، فإنهما تجهَّما له؛ لأنهما لم ينالا ما كان يؤملان منه، فجسرا على هجوه.

جعل ابن العميد لكل شيء نظام في وزارته، يعمل للمصلحة العامة ما استلزمت من الأوقات، فإذا فرغ انصرف إلى العلم والأدب، فهو على هذا يحمل شخصيتين: شخصية سياسية إدارية، وأخرى أدبية فلسفية، وكثيرًا ما تكون مجالسه مجالس العالِم لا مجالس السياسي، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والأدباء ما يحبون التوسع فيه من صنوف الآداب، على نحو ما جرى له مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري، قيل: إنه شرح له كتب أرسطو و(برك بين يديه واستأنف القراءة عليه، وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح أن يُتعلم منه، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه، ودرسه إياها). وهو بالطبع يستفيد من القراءة والإقراء، (وضبط أعماله ونظم أموره، ورتب أسباب خدمته، حتى كان أكثر نهاره مشغولًا بالعلم وأهله) مما كان سببًا أعظم في عظمته وشهرته. ورُبّ وزير كان قبل الوزارة شيئًا مذكورًا في العلم فأصبح لا شيء بعدها، لاستغراق أوقاته كلها بالمصالح

(١) البأو: الفخر بالنفس.

العامة، ورد عادية الأحزاب والأعداء عنه وعن سلطانه. أما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفًا بالفضل، وفي الوزارة أخذ بحظ وافر من حسن السمعة.

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه في عمار الملك، وبسط العدل في ربوعه - وكان مسكويه على ما يظهر مأخوذًا بحبه عاش في نعمته أيام صباه سبع سنين- قال: «فأما اضطلاعه بتدبير الممالك، وعمارة البلاد، واستغزار الأموال، فقد دلت عليه رسائله ولا سيما رسالته إلى أبي محمد بن هندو التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها، وما يجب أن يتلافى به، حتى تعود إلى أحسن أحوالها، فإن هذه الرسالة يتعلم منها صناعة الوزراء، وكيف تُتلافى الممالك بعد تناهي فسادها. وما منعه من بسط العدل في ممالكه، وعمارة ما يدبره منها إلا أن صاحبه ركن الدولة، مع فضله على أقرانه من الديلم، كان على طريقة الجند المتغلبين، يتغنّم ما يتعجل له، ولا يرى النظر في عواقب أمره، وعواقب أمور رعيته، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحدًا تلافيه وردهم عنه».

أتى مسكويه بوصف مخدومه في معرض المدح، والمعقول أن من يقتدر على إزالة الأذى ويسكت عن رفعه مؤاخذ في الشرائع. رأى ابن العميد السير على طريقة لينة، فيها التغاضي والتعامي، حتى لا يغضب الجند ولا يغضب سيده الملك ولا يناله مكروه بسببهم، ولو صح عنده تخريبهم وظلمهم، فترك العائثين والعابثين وشأنهم، يُمنِّي نفسه أن يأتيه الوقت الملائم فيحكم فيهم حكمه، وينقذ مملكته من أوصابها وأوبئتها النفسية والإدارية، وسياسته هذه لا تنجو من اللوم في نظر أرباب الحزم من مدبري الممالك.

أدبه وعلمه:

عرفنا بما تقدم نوع السياسة التي تعلقت بها همة ابن العميد، ووقفنا على صورة من حالته، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذي عرف به وخلَّد ذكره في العالمين؛ قالوا: إنه واضع طريقة الشعر المنثور، وإنه كان يلتزم السجع تارة ويطرحه أخرى، هذا رأي ابن سنان فيه. قال: إنه كان يترك السجع ويتجنبه، وطريقته استعماله مرة ورفضه أخرى، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير، أو الإكراه والتكلف. وما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكمًا يخالف حكم ابن سنان، ذلك لأنا رأيناه كان إلى التسجيع والمزاوجة أقرب، وما ندري أيضًا إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع، أم فيه شيء من المصانعة لابن العميد في قولهم: «بُدِئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد»، أم هي السجعة التي اصدرت هذا الحكم، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد في قاضي قُمّ هي التي نحَّته عن منصبه يوم كتب إليه: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم، فقال القاضي: والله ما عزلتني إلا السجعة». وكان يقول: أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب.

عاصر ابن العميد عشرات من الكُتَّاب، وجاء في أيامه وبعده كثيرون كانوا أطول منه باعًا في هذا الفن، وفي مقدمتهم بديع الزمان الهمذاني وأبو حيان التوحيدي، فنسي الناس أو تناسوا من لم يَحْظُهم الحظ حتى يشتهروا من كل وجه، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فتأفقت شهرته وعددوا مناقبه ومحامده، وسكتوا لمنزلته من السلطان عما عسى أن يكون فيه من ضعف ونقص، وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله الباقية في كتب الأدب والأخبار،

وفيها شاهدناه يكثر كأهل قرنه من السجع، ولم نر شحن كتابنا بما أُثر عنه منه، فاقتصرنا على كلامه المرسل، وحكمنا عليه بالأسلوبين.

نقل أبو حيان التوحيدي -وهو كما علمتم عدو ابن العميد- عن ابن الجمل وابن ثوابة أن أول من أفسد الكلام أبو الفضل ابن العميد؛ لأنه تقيَّل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ قريبًا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: (بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والنزوع) وهذه مفاتح قلما يملكها أحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها أحد.

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع، وفيه ظهر أعظم السجاعين، فما وسعه أن ينحل من قيوده؛ بل أخذ بمجاراة أهله، فهو ابن عصره في هذا المنحى، إلا أنه كان أقل من غيره على ما يظهر تأثرًا بالأفكار الفارسية، وهذا داعية العجب، كان أقرب إلى العروبة في أكثر مناحيه، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته: كان تأثره بكلام الأقدمين -وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين- أوفى من تأثره ببيئته، هو عربيُّ الأفكار في ثوبٍ فارسي رقيق، أخذ من المدنيتين ما راقه، ومزجهما مزجًا جميلًا، فكان آية بهرت، أو كما قال أبو الطيب المتنبي في مدحه:

عـــربيٌّ لـــسانه فلـــسفي	رأيـــه فارســـية أعيـــاده
خلــق الله أفــصح النــاس طــرًا	فـــلا بـــلاد أعرابـــه أكـــراده

لم تتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر؛ أي الأدب فقط؛ بل كانت ثقافة العالِم الحكيم، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم الحيل وجر الأثقال.

والتصوير والهندسة والطبيعة، إلى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب. وكان على الكاتب المثقف في ذاك العصر اتقان الفلك والطبيعيات والرياضيات فضلًا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ وشريعة، وكانت العجم تقول: من لم يكن عالمًا بإجراء المياه، وبحفر فُرض الماء والمسارب، وردم المهاري ومجاري الأنهار في الزيادة والنقصان، واستهلال القمر وأفعاله، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه، وحال أدوات الصناع، ودقائق الحساب -كان ناقصًا في حال كتابته.

ويؤذن ما رُوي من مجالس ابن العميد وتنوقل من آرائه بأنه لم يكن نُتَفَة في هذه العلوم، بل كان مشاركًا أعظم مشاركة. قالوا: كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلم، فأراد امتحان عقله سأله عن بغداد، فإن فطن لخواصها، وتنبه على محاسنها، وأثنى خيرًا عليها، جعل ذلك مقدمة فضله، وعنوان عقله، ثم يسأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثرًا لمطالعةكتبه، والاقتباس من ألفاظه، وبعض القيام بمسائله، قضى له بأنه غرَّة شادخة[1] في أهل العلم، وإن وجده ذامًّا لبغداد غفلًا عما يجب أن يكون موسومًا به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن.

هذا تصوير لبعض منازع الأستاذ الرئيس، ولم نجارِ من توسعوا في تصوير سيرته، وبالغوا في أدبه وأكثروا، ومنهم الثعالبي في يتيمة الدهر، ومسكويه في تجارب الأمم. لا جرم أن ابن العميد عظيم بأدبه، ولكن ألا يذهب الفكر إلى أنه كان له بحكم منصبه السامي -ومفاتيح خزائن الدولة في يده يفضل على العلماء

(١) غرة شادخة: غشت الوجه من الناصية إلى الأنف.

والشعراء من قاصديه وغير قاصديه- ما زاد في شهرته، وعظَّم في النفوس أدبه، وربما كان من حبٍّ بعضهم له أن جملوا صورته على غير قصد.

وبعد الذي رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر، ملنا إلى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذي قيل فيهم. شهدنا شعراء مدحوا رجالًا وهجوهم في آن واحد، فأي أقوالهم نصدق؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبي من الأماديح ثيابًا فضفاضة خلد بها ذكره، ولو بحثنا في سيرة سيف الدولة ما زدنا في تعريفه على ما نصف به ملكًا جائرًا مستبدًا، يستحل أكل الأموال بالباطل، ويخربُ ولايته لينفق ما يسلب في أبهته وبذخه[1]، ويفرط في الإفضال على مادحيه. وإنا إذا تأملنا هجو المتنبي كافور الإخشيدي بعد أن مدحه ورفعه، نسجل أنه ظلمه كثيرًا، فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء. وهكذا يقال في أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء، فلما قصروا في العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته.

ولو قد همنا بأخذ صورة للملوك والعظماء مما مدحهم به الشعراء لبعدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعدًا كثيرًا. وكذلك لو صدقنا كل ما هجا به الهاجون، لما رسمنا لمهجو صورة صحيحة. والشعر قام في الأكثر على المديح والهجاء، وعلى المبالغة في كل منهما، وهناك الأهواء السياسية، والعداوات المذهبية، والطوائل الجنسية. وكم

(١) قال الأزدي في الدول المنقطعة في سنة أربع وخمسين وثلثمائة: صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة، فزوج ابنيه أبا المكارم وأبا المعالي بابنة ناصر الدولة، وزوج أبا تغلب بابنته ست الناس، فضرب دنانير في كل دينار ثلاثون دينارًا وعشرون وعشرة عليها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسين جبريل عليهم السلام؛ وعلى الجانب الآخر: أمير المؤمنين المطيع لله إلخ. ويقال: جاد بها لم يجد به أحد. يقال: إن مبلغ ما جاد به تسعمائة ألف دينار، فتأمل.

من عالم وَصَمَه خصومه بالكفر، وهو أقرب إلى جوهر الشرع من أكثر حاسديه ومخالفيه. وكم من عظيم ألبسه أهل جيله ثوبًا باليًا من حكمهم عليه وما كان أولاهم أن يكسوه الخزّ والديباج. والغرض مرض، وقلَّ أن خلت منه نفس بشرية. لا جرم أن الشعر العربي على الغلو في نسيبه وتشبيبه وغزله ومديحه وهجائه يؤخذ على علاته، وقلما يسقط فيه على حقيقة إلا في الحكم والعبر، ومتى جعلناه عمدتنا في الترجمة للرجال نضل ضلالًا بعيدًا.

وبعد؛ فإن من سعادة ابن العميد أن يطول عهده في الوزارة، ومن سعادته أن يكون على أخلاق فاضلة، وسياسة ناجحة، يستميل بها قلوب الدهماء الأدباء، ومن سعادته أن يرزق عقلًا ناقدًا، وبصيرة نافذة، وثقافة كاملة، ومن سعادته أن يظلَّ وهو رأس الدولة، على تنمية معارفه ومواهبه إلى الزمن الذي استأثر الله به في همدان، وهو في طريق القضاء على الناشزين على الملك. كل أولئك زاد في وزنه، وهو في حقيقته أديب عظيم مجدود، لم تبطره النعمة، ولا أسكره تيه الإمارة وإقبال الدنيا، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وَقره في الصدور، ومن الفضائل والمكارم ما أمتعه بالصيت البعيد، تمتع بما يتمتع به الملوك في سلطانهم، وشارك الأدباء في مجدهم الأدبي. ولو رحمت الأيام ثروة أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس؛ لكان الحكم عليه أفصح من هذا.

نموذجات من كتابته وشعره:

كتب ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري لما استحضره عضد الدولة للمنادمة وفيه زاموز من بُعد نظره في سياسة الملوك قال: «وقفت على ما وصفته من برّ الأمير بك، وتوفره عليك، وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاياته، وإنما العجب أن يقصر في شيء من مساعيه عن نيل المجد كله، وحيازة الفضل بأجمعه،



وقد رجوت أن يكون ما يغرسه أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للرَّيع والنماء، فارع ذلك واركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملال، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال، فلأن تدعى من بعيد مرات، خير من أن تُقصى من قريب مرة. وليكن كلامك جوابًا تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب، ولا تعجبنك تأتي كلمة محمودة فيلجَّ بك الإطناب توقعًا لمثلها، فربما هدمت ما بنته الأولى. وبضاعتك في الشرب مزجاة، وبالعقل يزمّ اللسان ويلزم السداد، فلا يستفزنك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك، والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة، وإلى الإسعاف هشة، فأظهر ما في نفسك غير محقق، ولا توهم أن في الرد عليك ما يوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عن حاجتك، أكثر منه عند نجاحها على يدك، ليخفَّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك. أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد، فقد كمَّل الله خصالك وفضلك في ذلك كله، لكن أُنبه تنبيه المشارك، وأعلم أن للذكرى موقعًا منك لطيفًا».

وكتب إليه أيضًا: «كتابي وأنا بحال لو لم ينغّص منها الشوق إليك، ولم يرنق[1] صفوها النزاع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك، ويخلو ذرعي[2] مع خلوِّي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك؛ وكيف

(١) يرنق: يكدر.

(٢) رجل واسع الذراع والذرع: أي الخلق، والذرع: النفس، وضاق بالأمر ذرعه وذراعه وضاق به ذرعًا: ضعفت طاقته.

أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي، وقد حُرمتِ رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس بيت بلا نظام، وقد قرأت كتابك -جعلني الله فداءك- فامتلأت سرورًا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أُقرظها، فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحها، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي[1]، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري» اهـ.

قلنا: وهذا من مسجوعاته، وفيه من المبالغات الفارسية ما كاد يذهب ببهجته وجميل عاطفته، ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وابن الزيات، والصولي، لجاء موضوعه في سطرين سهلين على السمع والطبع، مقبولين في العرف والعادة، لا علو فيهما ولا إغراق.

وكتب إليه فصلًا أوله سجع كله، لم تفلت منه جملة بدونه، إلى أن قال وقد ذكر دعواه في العلم: «وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشادًا إلى قطيعة صديق، فأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناه فلم نرَ فيه هداية إلى شيء من العقوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه، وقدر الحق عليه أوله، بل لك في رؤساء العربية مناديح ومضطرب، ولسنا نشاحّك، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل؟ وقد اغتربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه وبَصَر به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة، ويرضي بك أسوة؛ فقلت: الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع، والصدق والوفاء وما

(١) العقد: الضمان والعهد.

صاحبها مخفوض، وقد نصب الصديق عندك، ولكن غرضًا يرشق بسهام الغيبة، وعلمًا يقصد بالوقيعة، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه، إلا أني لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب». وهذا الكلام أشبه بنسجه وفكره بكلام أهل القرن التاسع والعاشر!

وكتب إلى بعض إخوانه: أنا أشكو إليك -جعلني الله فداك- دهرًا خئونًا غدورًا، وزمنًا خدوعًا غرورًا، لا يمنح ما يمنح إلا ريثما يتنزع، ولا يبقي فيما يهب إلا ريثما يرتجع، يبدو خيره لمعًا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرعًا ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض. وكنا نلبسه على ما شرط، وإن خاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستنيم لقصده وظلمه، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتًا بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صرفًا بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلانه، ونسترقه من ساعاته، وقد استحدث غير ما عرفناه، سنة مبتدعة، وشريعة متبعة، وأعد لكل صالحة من الفساد حالًا، وقرن لكل خلة من المكروه خلالًا؛ وبيان ذلك -جعلني الله فداك- أنه كان يقنع من معارضته الإلفين، بتفريق ذات البين، فقد انثنى ممنونًا فيك بجميع ما أُوغره، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره، وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه، وألزمته جُرمًا لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي إليه، ولو أنك أعنته وظاهرته، وقصدت صرفه وآزرته، وبعتني بيع الخَلَق، وليس فيمن زاد، ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع، واطرحتني إطراح غير مجامل، فهلا وجدت نفسك أهلًا للجميل حين لم تجدني هناك، وأتعذب من جل ما عقدت من غير جريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فأجبني عن واحدة منهما؛ ما هذا التغالي بنفسك، والتعالي على

صديقك؟ ولِمَ نبذتني نبذ النواة، وطرحتني طرح القذاة، ولم تلفظني من فيك، وتمجني من حلقك؟ وأنا الحلال الحلو البارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة، فترسل سلامًا إن لم تتجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة، وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، واسمه من صحيفة حفظك، ولعلك أيضًا تتعجب من طمعي فيك وقد وليت، واستمالتي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبًا فيعود إلى الوصال؛ وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك، وحبسٌ في سبيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريًّا، فجربه في المعاودة فإنه في العود أحمد.

وهذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معًا، وبأدنى تأمل يدرك المتمعن فيها أن ابن العميد لما اطرح في آخرها السجع جوَّد، وكان في أولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والصابي من أهل جيله عُشَّاق السجع، يأتي بإسجاع لو طرح أكثرها لاستقام المعنى وخلص من لوثات التكلف والتعسف. وفي اليتيمة: ويقال: إن أحسن رسائله الإخوانيات، ما كاتب به أبا العلاء (السروي) لصدوره عن صدر مائل إليه، محب له، مناسب بالأدب إياه؛ فصل من رسالة له إليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق إليه: كتابي -جعلني الله فداك- وأنا في كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور، ولو أن اللحم يصلي ببعضها غريضًا أتى أصحابه وهو منضَج، وممتحن بهواجر يكاد أُوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحديق، ويزويه عن التبصر، ويقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق. وأحمد

الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد عليَّ غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان، ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر؛ ويسلط عليه الحَوْر بعد الكور(١)، ويرسل على رقاقته(٢) التي يغشى العيون ضوءها، ويحط من الأجسام نوءها، كلفًا يغمرها، وكسوفًا يسترها، ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قد جمعه والشمس برج واحد، ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند، ويبعث عليه الأَرَضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود، ويبليه بالفار، ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذَّر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دوره، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به فعله بالكتان، ويصنع به صنعه بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه، ويرحم الله عبدًا قال آمينًا. وأستغفر الله -جل وجهه- مما قلته إن كرهه، وأستعفيه من توفيقي لما يذمه، وأسأله صفحًا يفيضه، وعفوًا يسيغه، وحالي بعد ما شكوته صالحة، وعلى ما تحب وتهوى جارية؛ ولله الحمد -تقدست أسماؤه- والشكر. اهـ.

وهذه الرسالة أيضًا لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة في بابها.

---

(١) في الحديث: نعوذ بالله من الحور بعد الكور؛ معناه النقصان بعد الزيادة، وقيل: معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها.

(٢) الرقاق كغراب: الخبز الرقيق، الواحدة رقاقة.

قال الثعالبي: وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرة كلامه وواسطة عقده؛ وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام؟ قال فصل من أولها: «كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك؛ فإنك تدل بسابق حرمة، وتمتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة، وتتبعها بآنف خلاف ومعصية وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك؛ لا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أُقدم رجلًا لصدك، وأُوخر أخرى عن قصدك، وأبسط يدًا لاصطلامك واجتياحك[2]، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنًّا بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلًا لفيئتك[3] وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يئوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما أمكن طمعًا في إنابتك، وتحكيمًا لحسن الظن بك. فلست أعدم فيما أُظاهره من إعذار، وأُرادفه من إنذار، احتجاجًا عليك، واستدارجًا لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك».

---

(١) الغلول: الخيانة في المغنم خاصة، وآنف: جمع أنف.

(٢) الاجتياح، كالاصطلام: الاستئصال.

(٣) الفيئة: الرجعة.

وأكثر السجعات الثانية من هذا الكتاب إذا حذفت لا يختل المعنى، وتستقيم العبارة، وتختصر اختصارًا محمودًا.

ونقل الثعالبي فصلًا آخر من الكتاب وختمه بقطعة منه جاء فيها: «تأمل حالك، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها، والمس جسدك، وانظر هل يحس؟ واجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح[1]، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله». قال الثعالبي: بلغني عن ابن بلكا، وكان آدب أمثاله، أنه كان يقول: والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي، واستصلاحي ورَدِّي إلى طاعة صاحبه.

وقال الثعالبي في المضاف والمنسوب: وقرأت في رسالة لابن العميد إلى ابن سمكة: «جرّب -جعلت فداءك- ما قلته، واختبرني فيما ادعيته، فإن لم أفعل فدمي حلال لك، فاقتلني بسيف الفرزدق، وكُلني بخل وخردل». وسيف الفرزدق يضرب مثلًا للسيف الكليل بيد الجبان.

وفي الإعجاز والإيجاز: من أحاسن كلام ابن العميد: العاقل من افتتح في كل أمر خاتمته، وعلم من بدءِ كل شيء عاقبته؛ وقال يومًا على المائدة: أطيب ما يكون الحمل إذا حلت الشمس الحمل. وقال صاحب اليتيمة أيضًا: وأقرأني أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي، وقد اجتمعنا بإسفرايين عند زعيمها أبي العباس الفضل بن علي، فصلًا من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل، فنهني على شرفه في جنسه، وحرَّك مني ساكنًا معجبًا بحسنه،

(١) سهل.

متعجبًا من نفاسة معناه وبراعة لفظه، وهو: وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها، وانتقاض مِرَرِها[١]، والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الوباء، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء، فإن كان ذلك يخترم العلوم اخترامًا، وينتهكها انتهاكًا، ويجتث[٢] أصولها اجتثاثًا، وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولّده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته، فإن البلاء به لا يعدله بلاء، وبحسب عظم المحبة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك السلطان عالم عادل، كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها، وهي نوازٍ[٣] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه، وشرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه، تتلفت إليه تلفُّت الوامق، وتتشوف نحوه تشوُّف الصب العاشق، قد ملكتها وحشة المضاع، وحيرة المرتاع.

فإن تغش قومًا بعده أو تزورهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله، ومنها: الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب، ولا تدرك إلا بتجشم كُلفة ونصب؛ رأس المال خير من الربح، والأصل أولى بالعناية من الفرع؛ المرء أشبه شيء بزمانه، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه، قد يبذل المرء ماله في إصلاح أعدائه، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه؛ هل السيد إلا من تهابه إذا حضر، وتغتابه إذا أدبر؛ الإبقاء على خدم السلطان عِدْل[٤] الإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه مثل

(١) المرة: قوة الخلق وشدته (ج) مرر وأمرار.
(٢) الجث: القطع.
(٣) نزا: وثب.
(٤) العدل بكسر العين وإسكان الدال: المثل.

الإشفاق على ديناره ودرهمه؛ المزح والهزل بابان إذا فُتحا لم يُغلقا إلا بعد العسر، وفحلان إذا أُلقحا لم يُنتجا غير الشر؛ من أسرَّ داءه، وكتم ظمأه، بعُد عليه أن يُبل من علله، ويَبُل من غُلله؛ خير القول ما أغناك جده، وألهاك هزله؛ ينبغي للملك أن يستظهر على أعدائه بسبعة أجناس من الناس، فيتخذ الأحرار عُدَد ملكه، والأعراب أُمناء جيشه، والديلم أركان جنده، والخُتّل[1] جمرات عسكره، والأتراك خواص أصحابه، والهند حراس قلاعه، والأكراد غلفًا[2] لسيوف أعدائه.

ومن كلامه: قد تتسمح الأيام بما تمنع، وتتساهل ثم تقطع، وتصل الغبطة بالرزية، والمحنة بالمنحة، ولها ثمرات تبتدر، وغفلات تُنتهز. القلوب أوعية يشرحها الرفق، ويبسطها اللطف، ويفسحها التمرين، وإذا تجوز بها هذه الخلال إلى الاستكراه والإملال، خرجت عن احتواء علم، وضاقت عن ضبط فهم، وفاضت بما تستودع. قدّم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره، واحصد الشر قبل استفحاله، وقوم الميل ما دام الغصن غضًّا يقبل التقويم، ورطبًا يطيع التثقيف، ولا ننتظر به العُسُوَّ[3] والامتناع، وداوِ فتقًا تُنهره الأيام خرقًا إن تركته، وارأب شعْبًا[4] يزيده الدهر وهيًا إن أغفلته.

ومن جميل جمله: إلى الذل عاقبة المستبد العزيز، وإلى العز عاقبة المستبشر الذليل فتعوذ من موبقات الكبر بمنجيات التواضع، ومن مطغيات الغنى بكافيات التقنع، ومن سكرات الاستبداد بصحوات الإشارة، ومن عثرات البغي باستقالة الاستخارة.

---

(١) الختل كسكر: كورة فيما وراء النهر.

(٢) عيش أغلف: واسع، وسيف أعلق بين الغلف وقوس غلقاء في غلاف.

(٣) العسو: الغلظ واليبس.

(٤) أصلح الصدع.

ولابن العميد شعر فيه كثير من شعوره، ودليل على علو كعبه واتساع باعه، وقد ذكر الثعالبي في كتابه خاص الخاص أن من أظرف شعره قوله في غلام قام على رأسه يظلله من الشمس:

قامت تظللني من الشمس ... نفسٌ أعز عليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب ... شمس تظللني من الشمس

وقوله في مداد أهداه له صديق:

يا سيدي وعمادي ... أمددتني بمدادِ
كمسكنَيْك جميعًا ... من ناظري وفؤادي
أو كالليالي اللواتي ... رميننا بالبُعاد

ومن قوله:

متى علقِت نفسي حبيبًا تعلقت ... به غير الأيام تسلبنيه

وقال:

وسألتك العتبى فلم ترني لها ... أهلًا وجئت بعِذرة شوهاءِ
وردت مموَّهة فلم يرفع لها ... طرف ولم ترزق من الإصْغاء
فأعار مُنطقها النديم شكية ... فتراجعت تمشي على استحياء
لم تشف من كمد ولم تبرد على ... كبد ولم تمسح جوانب داء
داوت جوى بجوى وليس بحازم ... من يستكف النارَ بالحلْفاء

وقال:

فلو أن ما أبقيت من جسمي قذى ... في العين لم يمنع من الإغفاء

وقوله في الأقارب:

آخ الرجال من الأبا ... عد والأقارب لا تقارب

إن الأقـــــارب كالعقـــــا ... رب بـــل أضر مـــن العقـــارب

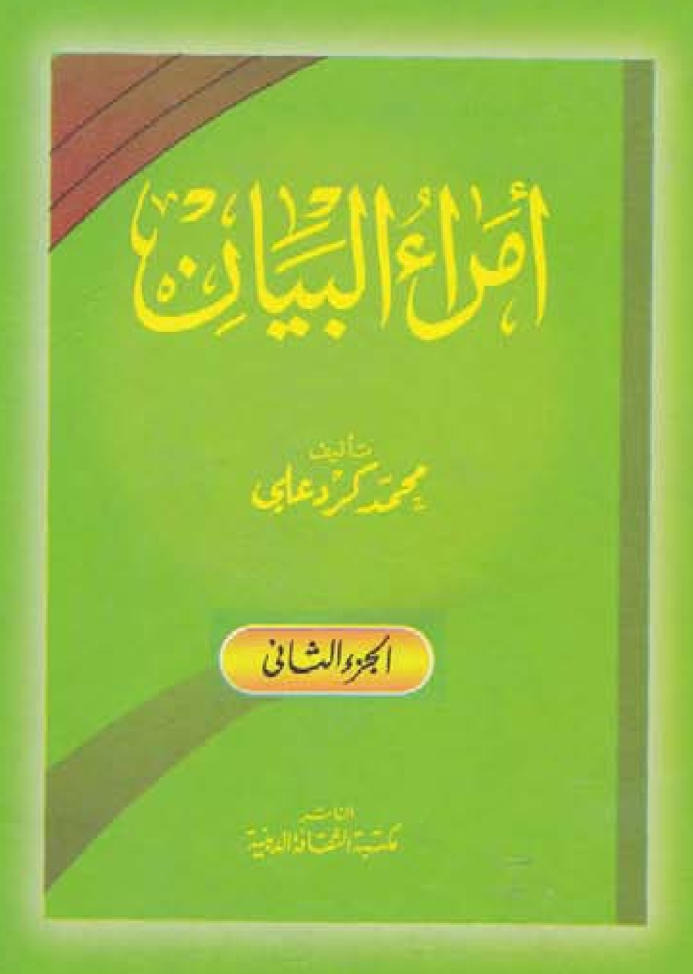
ولأبي الفضل على رواية ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله، وكتاب المذهب في البلاغات؛ وذكره ابن حاجب النعمان في الشعراء الكُتَّاب وقال: إن له خمسين ورقة.

تمَّ أمراء البيان والحمد لله تعالى



فهرس الجزء الثاني





الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com